

سلسلة الدراسات الكبرى

مذكرات وليام شالر

قنصل أمريكا في الجزائر

[1816 - 1824]

تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي



مذكرات
وليام شالر
الاضرع
قنصل أمريكا في الجزائر



[1824 - 1816]

تعريب وتعليق وتقديم
إسماعيل العربي

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

© الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
رقم النشر : 982 / 81
الجـــزائر 1982

مقدمـــة المترجـــم

ظهر القنصل شالـر على مسرح الاحداث في الجزائر ، في مرحـلة شهدت فيها العلاقات الجزائرية الامريكية تطورا مهما لم يكن في صالح بلدنا . فبعد فترة الضعف التي اعقبت حرب الاستقلال (1776) والنظام الكونفدرالي الذي كانت فيه الولايات غيورة على استقـلالها السياسي والمالي ، انطلقت الولايات المتحدة في طريق القوة ، في ظل الدستـور الفيدرالي (1787) ، وبنت اسطولا حديث التجهيز والتسليح . وقـد قامت الجمهورية الناشئة بهذه الخطوة ، خصوصا ، نتيجة للضغـط الذي كانت تواجهه سفنها التجارية في البحر الابيض وفي المياه الشرقية من المحيط الأطلسي ، من اسطول القرصنة الجزائرية . وبعد الفترة التي كانت تغطيها المعاهدة الاولى مع الجزائر ، والتي تحملت امريكا في ظلها نوعا من التبعية التي لم يكن يقلل من اثرها سوى كون عدد من الدول الاروبية تجد نفسها في نفس الوضع ، جاءت الحرب الامريكية - الانجليزية ، واستجاب الداي للضغوط اللطيفة التي كان يمارسها الوصي على عرش انجلترا ، واعلن الحرب على الولايات المتحدة (سنة 1812 م) .

وهذه الخطوة لم يكن احد يستطيع ان يلوم الداي عليها ، فيما عـدا الولايات المتحدة ، اذا نظرنا الى الموقف طبقا لقواعد المنطق الذي كـان يسود العلاقات الدولية في ذلك الحين . فان مجاملة بريطانيا العظمى التي لم يكن الداي يشك في انها ستنتصر في هذه الحرب ، كان لها اكثر من مزية واحدة ، فهذه الدولة التي تارجح ميزان القوة في صالحها وضمنت سيطرة لا منازع لها فيها منذ معركة الطرف الأغر (سنة 1805) ، ضرورية لبسط « مظلة » حمايتها على الدول التي تمارس القرصنة في المغرب . وعلاقات بريطانيا بالباب العالي قديمة ، مثل علاقاتها بالجزائر ، ومن الملائم المحافظة عليها . واما المليون دولار (او نحو ذلك) الذي تجنيه الجزائر سنويا على سبيل الضريبة من المعاهدة الامريكية ، فهو مبلغ ، على اهميته ، يمكن تعويضه (بل واكثر !) باسر عشر سفن امريكية ..

ولكن نتيجة الحرب الامريكية الانجليزية كانت مخيبة للآمال ، حيث ان هذه المباراة البحرية اسفرت على ما يعـرف في لغة الرياضيـين بالتعادل .

ولما عقدت الصلح مع بريطانيا ، وجهت الولايات المتحدة كل اهتمامها الى الجزائر ، حيث كان الساسة الامريكيون يعتقدون ان تحرير قوتهم البحرية من الحرب مع انجلترا قد اصبح عاملا قويا يكفي لأن يضمن لهم فرصا معقولة في حرب بحرية مع الجزائر . والمهم أنهم قرروا الآن انهم لم يعودوا يستطيعون قبول الشروط التي تمليها الجزائر .

ومما زاد من قوة آمال الامريكيين في الخلاص من السيطرة الجزائرية، أن الاسطول الجزائري كان حينئذ منهمكا في الحرب مع كل من ايطاليا واسبانيا ، وهولندا ، وبروسيا ، والدانمارك ، وروسيا .. في وقت واحد .

ان كل شيء يدل على ان ساعة تسوية العم سام لحسابه مع الداي قد حانت ، وان المستقبل قد لا يجود ابدا بافضل من هذه الساعة !

وفي 23 فبراير ، 1815 اوصى الرئيس ماديصون الكونجرس باعلان الحرب على الجزائر .

وفي شهر مارس التالي ، خول الكونجرس رئيس الولايات المتحدة السلطة لتجهيز اسطول وتعبئته واستخدامه بالطريقة التي يراها لشن اعمال عدوانية على الجزائر .

واثر ذلك اقلعت قوة بحرية كبيرة تولى قيادة جزء منها الكمودور وليام بينبريدج (عشر سفن حربية ، من بينها ثلاث بوارج) ، وتولى قيادة الجزء الآخر ، الكمودور استيفان ديكاتور ، الذي كان يحمل معه على متن بارجة الاميرال ، وليام شالر الذي عينه رئيس الولايات المتحدة قنصلا عاما لأمريكا في بلدان المغرب ، والذي فوضه لعقد الصلح مع الجزائر « قبل المعركة ، ان امكن ، أو بعدها ، اذا لم يكن بد من ذلك » .

وقبل ان يقلع الاسطول ، اصدر وزير الخارجية تعليمات الى القائدين البحريين ، تقضي بأن يعملا لعقد صلح مع الجزائر في اقرب وقت ممكن ، ولاطلاق سراح الاسرى الامريكيين المحتجزين في الجزائر ، وذلك بدون تعهد بدفع اي نوع من الضريبة او الفدية ، ولكنها تأذن بتقديم هدايا للداي مرة في كل سنة .

وكانت التعليمات التي يحملها ديكاتور تقضي بان يسعى ، لدى وصوله الى جبل طارق لمعرفة المنطقة التي يعمل فيها الاسطول الجزائري ، وفي حالة ما اذا كانت بعض قطعه تعمل في المحيط الاطلسي ، ان يقوم باسر هذه القطع ، او تدميرها .

ولدى وصوله الى الجزائر ، كلف ديكاتور بان يدخل فى مفاوضات مع الداي ، مباشرة .

ويختم وزير الخارجية تعليماته قائلا :

((مهما يكن الوقت الذي تبدا فيه المفاوضات ، وسواء اكان ذلك قبل الالتجاء الى الحلول المتطرفة (الحرب) ، ام بعدها ، يجب ان تكون شروط الصلح مشرفة للولايات المتحدة)) .

وقد وصلت قوة ديكاتور البحرية الى جبل طارق فى 15 يونيو ، وهناك علم القائد ان بعض قطع الاسطول الجزائري قد دخلت الى المحيط الاطلسي فعلا ، ولكنها عادت ادراجها الى البحر الابيض المتوسط .

واستنادا الى المعلومات التي جمعها ديكـــاتور ، اتجه الى المنطقة التي يرجح ان تكون قطع الاسطول الجزائري فيها .

وفى 17 يوليو ، لمحت البارجة الامريكية ((كونستليشين)) بارجة على مقربة من راس ((جات)) ، كانت البارجة هي بارجة الاميرال الجزائرية ((مشهودة)) التي كان يقودها القبطان العظيم ، حميدو ، وكانت تتجه الى الجزائر .

وعلى الفور ، شرع الاسطول الامريكي فى مضايقتها ومطاردتها ، ولما حاول اللحاق بها ، حولت وجهتها الى الشواطىء الاسبانيـــة ، ولكـــن الامريكيين قطعوا عليها الطريق ، فاستسلمت لهم .

وفى هذه المعركة ، قتل حميدو ، واختتمت بذلك اسطورة قائد من اعظم القواد البحريين فى زمنه ، والقارىء سوف لا يفوته ان ينتبـــه لوصف شالر لهذا البحري فى مذكراتها بانه كان ((يتسم بالذكاء الخارق ، والشجاعة النادرة)) .

وبعد هذه المعركة العاثرة الحظ بيومين ، اكتشف الاسطول الامريكي، سفينة حربية جزائرية اخرى ، ذات صاريتين . ولما التقى الفريقان وقعت بينهما معركة شديدة ، كانت كل عناصر التوازن مفقودة فيها ، وانتهت باسر السفينة الجزائرية . وبوقوع السفينتين فى ايديهم ، ضمن الامريكيون بهما عربونا للمساومة ، حيث اودعوهما فى ميناء قرطاجنـة باسبانيا .

وعقب ذلك ، اتجه الاسطول الامريكي الى الجزائر ، حيث ينوي قائده ان يدخل فى مفاوضات مع الداي ، عمر باشا .

وفى 29 يونيو ، وصل ديكاتور الى الجزائر ، وبعدما ارسى الاسطول في الخليج ، رفع علما ابيض وعلما سويديا على بارجة الاميرال ، وهي اشارة معناها انه جاء للتفاوض ويطلب وساطة قنصل السويد .

وعقب ذلك ، صعد قنصل السويد ويرافقه امير البحرية الجزائرية الى ظهر البارجة الامريكية «جيرير» . وهناك ابلغهما الاميرال ديكاتور الاخبار المذهلة التي تتعلق بمقتل القائد البحري حميدو ، وأسر السفينتين « مشهودة » و « استوديو » .

كانت هذه الفجيعة اسوأ ما عرفته البحرية الجزائرية منذ اجيال ، وكان من الطبيعي ان تهتز لها الدوائر البحرية ، وخصوصا ، وأن هذه الضربة جاءت من دولة اشتهرت بالجشع التجاري أكثر مما عرفت بتوجيه الأساطيل الحربية ، على ان هذه الأنباء ، على ضخامتها ، لم تكن سوى مقدمة للمأساة السياسية .

تساءل المسؤول الجزائري عن شروط الصلح التي يريد الامريكيون فرضها ، فجاءه الرد في شكل رسالة قدمها اليه وليام شالر ، وديكاتور ، موقعة من رئيس الولايات المتحدة وموجهة الى الداي ، فتسلمها هو ، وقنصل السويد ، ونزلا الى البر .

وفى اليوم التالي ، عاد المسؤول الجزائري ومعه قنصل السويد الى البارجة « جيرير » ومعهما اذن بالدخول في مفاوضات مع الطرف الامريكي .

ولكن ، الواقع ان « التفاوض » كلمة ليس لها معنى ، حينما تكون شبه اسير فوق سطح بارجة العدو ، وحينما تكون مدافع اسطول ضخم مسددة الى المدينة التي جئت لتتفاوض باسمها . وهكذا ، وبدلا من المحادثات والمساومات التي كان ينتظرها الطرف الجزائري ، اخذ ديكاتور ورقة من درج مكتبه وهي عبارة عن مشروع للمعاهدة جاهز للتوقيع ، وسلمه اليه .

وبينما كان الطرف الجزائري ينتظر مناقشة حول الضريبة التي تدفعها الولايات المتحدة والتعويضات التي تقدمها للجزائر عن عدوانها على سفينتين جزائريتين ، فاذا بالمشروع الامريكي يقلب الوضعية راسا على عقب ، حيث ينص على الغاء الضريبة الامريكية المتفق عليها قديما وعلى ضرورة تحرير الأسرى الامريكيين بدون فدية ، بل وايضا على دفع الجزائر تعويضا قدره عشره آلاف دولار ، في مقابل استيلائها على السفينة « ايدوين » .

وقد اكتفى الطرف الجزائري ازاء هذا الوضع ، بأن لاحظ ان الشروط الامريكية لا نظير لها في تاريخ علاقة الجزائر باية دولة اخرى ، واعرب عن شكه في ان يقبلها الداي . وبعد ذلك سعى لاستعادة السفينتين الاسيرتين في قرطانه ، واسفرت المداولات على استجابة الطرف الامريكي لهذا الطلب ، حيث كان يعتبرهما لا قيمة لهما بالنسبة للولايات المتحدة .

وبذلك انتهت الجولة الاولى من هذه المفاوضات الغريبة ، وطالب الطرف الجزائري بهدنة للمزيد من التفكير والتروي ، ولكن رد الطرف الامريكي على هذا الطلب كان حاسما :

« لن نمنحكم دقيقة واحدة للتفكير ! واذا ظهرت قطع اسطولكم في الافق قبل توقيع المعاهدة واطلاق سراح الاسرى ، فان بوارجنا ستستولى عليها غنيمة من غنائم الحرب ! » .

وفي نهاية الامر ، توصل الطرفان الى حل وسط : وقف اعمال الحرب ، بمجرد ما يغادر اليابسة مركب يحمل علما ابيض في طريق عودته الى البارجة الامريكية ، وقد وعد قنصل السويد بأن العلم الابيض لن يرفع على المركب ، الا اذا تم توقيع الداي على المعاهدة ، ووضع الاسرى الامريكيون في المركب .

وبالفعل ، لم تمض سوى ثلاث ساعات على هذه المقابلة ، حتى عاد المركب يحمل الاسرى الامريكيين ونسخة من المعاهدة التي وقعها الداي .

وقد كان من حسن الحظ ان المركب عاد بهــذه السرعة لأن حراقة (طرادا) قد ظهرت والمركب في طريقه الى البارجة ، وكان مما لا شك فيه ان تقع غنيمة في يد الامريكيين لو تأخر في الرجوع بضع دقائق .

وفي نفس اليوم الذي وقعت فيه المعاهدة ، نزل المفاوض الامريكي الثاني ، وليام شالر ، الى البر ، ليشغل منصب القنصل العــام في الجزائر . ومما هو جدير بالذكر ان الداي أحسن استقباله الرسمي له ، وكأنه يمثل دولة صديقة ، وليس هو الرجل الذي املى على متن سفينة حربية معاهدة مهينة .

وعقب ذلك بوقت قصير ، بعث القنصل شالر الى وزير الخارجية بتقرير جاء فيه :

« لقد سارعت الايالة الى تنفيذ شروط المعاهدة ، وذلك بقدر ما يتوقف الامر على ارادة المسؤولين فيها . لقد بعثوا الي بمائة وسبعة وعشرين بالة من من القطن ، وبعشرة آلاف دولار نقدا ، كما تقضي أحكام المعاهدة (المادة 14) ، واعتبرت هذا العمل وفاء كاملا بنصوص المعاهدة » .

وجهت المعاهدة فور توقيعها على متن سفينة ، علم فيما بعد ، أنها اجتازت مضيق جبل طارق يوم 14 يوليو ، ولكنه لم يسمع خبر عنها بعد هذا التاريخ ، والمفروض أنها غرقت بالوثيقة التي تحملها في اعصار كان يجتاح الشواطئ الغربية للمحيط الاطلسي في ذلك الوقت .

وعقب انتهاء المفاوضات وعقد المعاهدة ، وجه ديكاتور سفينتين حربيتين الى ميناء قرطاجنة لمرافقة السفينتين الجزائريتين المحتجزتين هنالك ، ثم سار على رأس بقية أسطوله للقيام بزيارة لتونس وطرابلس، لتسوية حسابات أخرى مع البلدين ، وذلك قبل أن يعود الى نيويورك في 12 نوفمبر .

واما النص الذي وصل فيما بعد الى الولايات المتحدة من المعاهدة الجزائرية ـ الامريكية التي املاها شالر وديكاتور فقد صدق عليه مجلس الشيوخ الأمريكي في 21 ديسمبر 1815 . وبعد هذا التاريخ بخمسة ايام ، اعلن رئيس الولايات المتحدة انها اصبحت نافذة المفعول . ولكن المعاهدة ستظل شجا في حلق الداي ، لا يستطيع ابتلاعها ولا لفظها .

وفي 22 يناير (1816) اقلعت البارجة «جافا» من شواطئ الولايات المتحدة تحمل نص المعاهدة الرسمي الذي صدقت عليه السلطات الامريكية الى القنصل العام ، شالر .

قلنا ان المعاهدة كانت جرحا داميا في جنب الجزائر بما تحتوي عليه من الشروط المهينة ، ولكن الاسوأ من شدة هذه الشروط ، هو أن الطرف الامريكي لم يحترمها ، ولاسيما ، ما يتعلق منها باعادة بارجة الأميرال « مشهودة » التي ظلت محتجزة في قرطاجنة ، وقد طالب الداي القنصل شالر بالوفاء بتعهد بلده ، المرة بعد المرة ، بدون جدوى .

وفي شهر نوفمبر ، ابلغ الداي شالر رسميا انه اذا لم تعد الولايات المتحدة البارجة « مشهودة » قريبا ، فسيعتبر المعاهدة ملغاة .

وقد استمر التوتر يسود العلاقات بين البلدين ، حتى شهر مارس ، حينما اعيدت السفينة الى الداي .

ولكن هذا الاجراء الذي جاء متاخرا لم يكن كافيا للتخفيف من حدة شعور المرارة في الجزائر ، وعلى الرغم من محافظته على المظاهر ، فقد كان الداي مصمما على عدم الاعتراف بصلاحية المعاهدة في الوقت المناسب .

ولما ادرك القنصل شالر ان الحرب واقعة لا محالة ، اغتنم فرصة وصول قطع من الاسطول الامريكي الى الجزائر ، بقيادة الاميرال «شاو» وانزل العلم الامريكي من اعلى قنصليته والتجأ الى بارجة الاميرال .

واثر ذلك وضع الطرف الامريكي خطة لقصف مدينة الجزائر التي ترتبط ببلدهم بمعاهدة رسمية املوا شروطها بانفسهم ، ولم يمض على تصديق السلطات الأمريكية عليها سوى بضعة أشهر . وقد بيت الامريكيون نيتهم على اخذ المدينة غرة وان يتم القصف بدون اعلان الحرب وفي جنح الليل ، حتى يحدثوا اكبر دمار وارهاب ممكن .

على ان بارجة فرنسية علمت بالمؤامرة المدبرة ، وسارعت الى ابلاغ الداي مضمون الخطة ، وبزوال عنصر المفاجأة واستعداد المدفعية الجزائرية ، فقد التخطيط الامريكي العنصر الاساسي الذي يضمن نجاحه .

وهذه النية العدوانية الواضحة والتلكؤ في تطبيق نصوص المعاهدة من الطرف الامريكي (ولا سيما فيما يتعلق باعادة السفينة الحربية الثانية) ، حملت الداي على الامتناع عن مبادلة امريكا التصديق على المعاهدة .

وفي 16 أبريل 1816 ، اعلن الداي انه لا يعتبر المعاهدة ملزمة له ، ولو انه يلتزم ، على كل حال ، بالمادة التي تفرض مهلة ثلاثة أشهر للتفكير قبل استئناف الحرب .

ومن جهة اخرى ، كتب الداي الى رئيس الولايات المتحدة ، عن طريق القنصل شالر ، رسالة مختومة يعرض عليه فيها ما تنطوي عليه الوضعية من الصعوبات ، ويقترح لاعادة بناء العلاقات الجزائرية الامريكية على اسس سليمة ، العودة الى معاهدة سنة 1795 .

وفي شهر اكتوبر ، تلقى الداي رسالة من رئيس الولايات المتحدة مؤرخة في 21 اغسطس ، احتج فيها على اتهام بلده بنكث العهود ، واعلن اليه تعيين القنصل شالر والكمودور اسحاق تشونسي مغاوضين بالنيابة عنه لتسوية الخلافات القائمة بين البلدين .

على ان وثائق تثبت ان هذه الرسالة لم تكن سوى مناورة لذر الرماد في العيون . فان رسالة اخرى بعث بها نفس الرئيس ماديصون الى وزير خارجيته (مونرو) في 25 يونيو (اي قبل رسالته الى الداي بأقل من شهرين)، جاء فيها قوله :

((يجب على الداي ان يفهم بوضوح انه على الرغم من آننا نفضل السلم ، فنحن مستعدون للحرب ، ولن ندخل اي تعديل على نصوص المعاهدة الاخيرة ، وآننا لن نقدم اية ترضيات من أي نوع كان لتجنب ذلك)) .

واذا كان هذا هو الموقف النهائي (وهو يبدو كذلك) ، واذا كان الطرف الامريكي قد صمم على عدم ادخال اي تعديل على المعاهدة ، فلماذا مسرحية المفاوضات التي تعلنها رسالة الرئيس الامريكي الى الداي ؟

على آن سوء الحظ اراد ان يصادف المسعى الامريكي الذي ينقصه الصدق والاخلاص ، احداثا خطيرة وقعت في الجزائر كانت في صالح الطرف الامريكي ، واستغلها الى اقصى حد ممكن .

ففي أواخر شهر اغسطس بالذات ، ظهرت حملة بحرية في مياه الجزائر اشترك فيها الاسطول الهولندي والاسطول البريطاني ، بقيادة اللورد اكسموث ، قامت ، لأسباب تافهة في حقيقة الأمر ، بقصف مدينة الجزائر وانتهت بتدمير تحصينات المدينة المنيعة وباسكات مدفعيتها واحراق معظم قطع الاسطول الجزائري . وهذه العملية يصفها القنصل شالر ، بدقة ، حيث انه كان شاهد عيان للأحداث ، وكان يسجل تقدم الحرب ساعة بعد ساعة ، ونحن نترك للقارىء المجال ليكتشف بنفسه هذه الوثيقة الفريدة من نوعها في المذكرات التي يتضمنها كتاب شالر .

ولما راى الداي أن الوضعية ميئوس منها من الناحية السياسية والعسكرية معا ، اعلن قبول جميع مطالب اكسموث ، التي من بينها اطلاق سراح نحو الف ومائتين من الاسرى المسيحيين بدون فدية ، واعادة اموال الفدية التي دفعتها من قبل دول تتمتع بحماية بريطانيا .

وبينما كان الجزائريون يلحسون جراحهم بعد هذه الحرب المدمرة ، ظهر الأسطول الأمريكي في خليج الجزائر ، بقيادة الكمودور تشونسي . وهذا التطور غير المنتظر بعث الخوف في نفوس السكان الذين لم يكن في وسعهم ان يتوقعوا خيرا من الضيف الجديد ، فراحوا يغادرون المدينة زرافات ووحدانا ، في الوقت الذي اخذت فيه السلطات تعد عدتها للمقاومة .

ولكن القنصل شالر جاء في الوقت المناسب الى الداي ليعلن اليه ان زيارة الأسطول الأمريكي زيارة ودية .. لأنه كان يعـــرف الحقائق التي تنطوي عليها الوضعية جيدا ، ويدرك ، بحكم التجربة ، انه يمكنه الحصول على كل ما يريده بمجرد التهديد الصامت .

وبعد مشاورات بين شالر وقائد الأسطول ، اتفق الاثنان على اعتبار معاهدة يونيو 1805 ملغاة من طرف الداي .

ولكن شـــالر وتشونسي لم يتلقيا التعليمات التي وردت في خطاب الرئيس الأمريكي السابق الذكر الى الداي للتفاوض لعقد معاهدة جديدة . ولملء هذا الفراغ قرر المفاوضان السفر الى جبل طارق حيث سينتظران وصول التعليمات .

وبوصول التعليمات عاد القنصل والقائد البحري الى الجزائر في 8 ديسمبر 1816 . ولكنه نظرا لرداءة الأحوال الجوية ، فقد راى الكمودور عدم النزول الى البر ، وبقي على متن بارجته .

ونتيجة لذلك ، وجد شالر نفسه وجها لوجه امام الداي بوصفه ممثل رئيس الولايات المتحدة ، ليجري معه مفاوضات (مرة اخرى !) وهو في مركز القوة المطلقة .

ولكن المحادثات في مثل هذه الظروف ، امــر مستحيل . وبدلا من الاتفاق المنشود ، اسفر اللقاء على توجيه الطرف الأمريكي انذارا للداي ينكر فيه الغاء المعاهدة ، كما ينكر نصا في النسخة الجزائرية منها ، يفرض على الولايات المتحدة تقديم هدايا قنصلية للداي ، مثل غيرها من الدول (والغريب ان وزيــر الخارجية قد اذن صراحة في تعليماته للمفاوضين الامريكيين بقبــول هذا الشرط الذي هو نوع من المجاملات) . بل ان الانذار يطالب الجزائر بامتيازات اخرى .

حاول الداي بجميع الوسائل وبكل ما اوتي من براعة التخلص من ثقل الشروط التي ينص عليها الانذار ، ولكن الحيلة قلما تنفع ازاء فقدان توازن القوة بصورة خطيرة . وكذلك انتهى الأمر الى الرضوخ والاذعان « لهذه الشروط ، او لأية شروط اخرى » يمليها الطرف الذي يملك القوة الخام .

والترضية الوحيدة التي حصل عليها الداي ، هي شهادة بتوقيـــع القنصل شالر ، بأن الداي وقع المعاهدة الجديدة تحت التهديد بالقوة .

وفي 22 ديسمبر ، انتهت مهزلة المفاوضات . وفي شهر يناير من السنة التالية وجه القنصل شالر نص المعاهدة المجددة الى حكومته . ولكن الأقدار شاءت (واية اهمية لذلك ؟) ان يهمل مجلس الشيوخ التصديق عليها - نتيجة لسهو - حتى سنة 1822 . وبعد هذا التاريخ اعلن ان المعاهدة اصبحت نافذة المفعول .

* * *

تلك ، في اعتقادنا ، هي الملاحظات المهمة التي يمكن التقديم بها لكتاب القنصل شالر ، دون ان نفوت على القارىء متعة اكتشاف ما يضمنه بين دفتيه من المعلومات المتفاوتة القيمة . وهي اذ تعطيه الملامح الرئيسية للعلاقات الجزائرية الأمريكية ، تبرز بوضوح الدور الذي قام به القنصل أثناء ممارسته مهامه الرسمية .

وقد كان من الممكن ان نتوسع فنقدم معلومات اخرى عن القنصل شالر ، ولكن بعد التفكير والتروي تبين ان حياته الشخصية التي قد يجد المؤرخ الأمريكي فيهما مادة بوصفه من رواد الديبلوماسية الأمريكية ، لا يمكن ان تهم القارىء العربي في قليل ولا كثير . والمهم بالنسبة الينا ، اولا واخيرا ، هو ما سجله في كتابه عن بلدنا ، سواء أكان تقريرا للحقيقة ، او نقدا ، او مجرد انطباعات من شأنها ان تساعدنا على فهم الجو العام الذي كان يسود في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي مباشرة .

والفكرة الأساسية التي لابد وان يكون القارىء قد استخلصها من السطور السابقة ، والتي ينبغي تأكيدها مع ذلك ، لابراز اهميتها ، هي ان شالر الذي كان عدوا لحكومة الأتراك ، لم يكن صديقا للشعب الجزائري الذي يرى فيه شعبا منقسما على نفسه الى قبائل شتى ، وينقصه التعليم والتدريب . ولكنه من الانصاف ان نقرر انه لم يكن يحتقر هذا الشعب ، بل على العكس ، قد اكتشف كثيرا من فضائله ، وذلك في الوقت الذي يتحدث فيه عن عاداته وتقاليده وعقائده الدينية بما ينبغي من الاحترام . وكذلك اكتشف شالر في ابناء القبائل عنصرا يصفه بالذكاء والأمانة والنزاهة وكان يميل اليهم ، او على الأقل ، قبل ان يأسر سكان جبال الشواطىء الشرقية ربان سفينة امريكية وبحارتها كانت غرقت هناك .

واما علاقات شالر بالأتراك ، فيمكن ان نميز فيها بين جانبين :

على الصعيد الشخصي ، يبدو انه كان يتمتع بالحظوة لدى بعض الوزراء والشخصيات ، بل ان عمر باشا نفسه ، كان ، على الرغم من كل

شيء ، يحسن استقبـاله ويبدي له شعـور التقـدير . والشخصيات الكبيرة التي كان يرتبط معها بعلاقات تقدير ومودة ، هي الآغا (بمثابة وزير الدفاع) ووزير البحرية ومدير الميناء ، والخزنجي الذي كان وقتا ما في حالة فقر اضطر معها الى الالتجاء الى القنصل ليستلف منه دولارا واحدا ، ثم ارتفعت به الحظوظ الى اكبر منصب (بمثابة رئيس الوزراء) في البلد ، بعد منصب الداي .

وهؤلاء كانوا بدون شك ، يزودونه ببعض المعلومات الداخلية ، أو على الاقـل ، بالنصائح في أوقات الملمات ، كما كانـــوا يستمعون الى آرائه ونصائحه في شؤون السياسة العليا . والمشاورات التي جرت بشأن تحديد موقف الجزائر تجـاه مطالب اكسموث في حملته الأولى الفاشلة تقدم لنا دليلا مؤشرا في هذا الاتجاه ، مثل رضوخ سلطات الداي أمام امتناعه عن تسليم خدمه من أبناء القبائل للشرطة التي لم تتـــورع عن اقتحام مخدع زوجة القنصل البريطاني للتفتيش والقبض على خدمه .

وعلى الصعيد الرسمي ، كان القنصل شالر ، ومثا ، في ذلك مثل معظم القناصل الأروبيين ، يشعر بالضيق ويجد أن من غير الطبيعي أن يكون لبلد صغير الرقعة قليل السكان ، متخلف من الناحية الصناعية والتجارية ، مثل ما للجزائر من النفوذ والقوة أمام الدول البحرية . وهو يرى ان حكومة الأتراك التي يكثر من وصفها بالبربرية والاستبداد ، لم تكن لتتمكن من تدعيم نظام القرصنة ، لولا سياسة الاستغلال والقمـــع في الداخل وسياسة القهر واستعباد المسيحيين التي وجدت في تخاذل الدول الأروبية ومنافستها خير سند لها .

ونحن يمكننا ان نلخص النقد الذي يوجهه شالر الى حكومة الاتراك والحجج التي يقيم عليها ادانته لها ، في النقاط التالية :

1 ـ انها حرمت العنصر الأهلي من العرب والقبائل من كل فرصة لشغل المناصب في الحكومة (ماعدا البحرية) والاشتراك في ادارة شؤون بلدهم .

2 ـ انها تقوم على عاتق حثالة من الانكشارية الذين ينتمون الى احط الطبقات في بلادهم ويجندون ، خصوصا من سهول الأناضول ، فاذا وصلوا الى الجزائر انفتحت امامهم ابواب المناصب العليا ، وذلك حتى لو لم يكونوا يحسنون القراءة والكتابة .

3 ـ انها حرمت تجارة التصدير على الأهالي (فيما عدا ثلاث او اربع مواد تبيع احتكارها لليهود) وذلك خشية ازدهار التجارة والانتاج وتدفق الثروة على الأهالي .

للدولة ،

4 ـ ان الأتراك الذين يتخذون من القرصنة المورد الرئيسي للدولة ، تجاهلوا كل ما حققته الدول البحرية فى غضون القرون الثلاثة الماضية من التقدم الصناعي والتجاري والعظمة الحربية ، وظلوا يشعرون شعورا زائفا بتفوقهم البحري ، فى الوقت الذي كانت فيه قرصنتهم لا تتجاوز كونها اداة فى يد دولتين كبيرتين تستخدمها لمنع قيام منافسة تجارية من الدول الصغيرة لمنتجاتها .

5 ـ انها لاتزال تدعى الحق فى استرقاق المسيحيين فى الوقت الذي حرمت فيه معظم دول العالم استرقاق السود .

6 ـ ان نظام الحكم التركي يتجاهل قواعد الاقتصاد السياسي وما يقتضيه من موازنة الدخل والخرج ومن قيام النظام الجبائي على اسس معقولة من العدل والانصاف .

ومن هذا النقد الذي لا يمثل نتيجة التحليل المنطقي اكثر مما يمثل مزيجا من رواسب الضغائن والأحقاد التي تنبعث خصوصا ، من الاهانات التي تعرضت لها أمريكا فى ظل المعاهدة الأولى ، يخرج شالر برأي حاسم ، وهو ان نظام الحكم التركي غير قابل للاصلاح ولا يمكن علاجه . فما هو البديل الذي يقترحه شالر نظاما للجزائر بعد ذهاب الأتراك ؟ .

الجواب بسيط ، فى نظره : الاستعمار ـ الاستعمار الذي سينشر الصناعة ويشجع التجارة مع الدول البحرية والبلدان الافريقية الداخلية المجاورة . والدولة الأروبية التي تقوم باستعمار الجزائر ، ستجد ابواب افريقية كلها مفتوحة امامها ، ولاسيما افريقية الغربية التي يزعم انها تنطوي على ثروة زراعية لا حد لها .

واما نوع الاستعمار الذي يقترحه ، فهو الاستعمار الفنيقي الذي يقوم على التجارة ويتيح للأهالي حرية واسعة للتطور ويضمن لمؤسسات البلد استقلالا ذاتيا .

وهذا النمط من الاستعمار (الفينيقي) لو كان موجودا لكان من المرجح ان يصلح للولايات المتحدة ايضا لكي يمكنها من استغلال مساحات « الغرب البعيد » الشاسعة ، ولكنه غير موجود ، وانما النمط الموجود ، هو نمط الاستعمار البريطاني .

ونظام الاستعمار الذي قاومته المستعمرات الامريكية التي يمثلها شالر عدة سنوات قبل ان تنال استقلالها منذ نحو ربع قرن فقط ، هو ، بالضبط ، النظام الذي يراه القنصل مثاليا للجزائر .

من ذا الذي يصدق ان شعلة الحرية التي رفعها واشنطون وغيره من ابطال حرب التحرير ستنطفيء بهذه السرعة ، ويظهر فى نفس الجيل الذي قاوم الاستعمار البريطاني مسؤولون من رجال الجمهورية الجديدة لينادوا بان هذا الاستعمار الذي يشكل عقبة للتقدم فى امريكا ، يمثــل طريق الخلاص والرخاء الوحيد للجزائر ولافريقيا السوداء ؟ ولكن النص الذي بين ايدينا يثبت هذه الحقيقة بما لا يدع مجالا للشك .

والقنصل لا يكتفي باقتراح نظام الاستعمار نظريا ، بل هو يذهب الى ابعد من ذلك ، ويكشف عن عورات البلد ويدل على الثغرة الخطيرة فى نظام الدفاع عن مدينة الجزائر . فهو يتطوع ويرشد اي جيش يريد غزو مدينة الجزائر ان يتجنب ارساء سفنه الحربية (فيما عدا عدد صغير من السفن للتمويه والتضليل) فى الخليج حيث سيتعرض لنيران مدفعية قوية لا قبل له بمواجهتها ، مهما كانت قوته ، وانما يتحتم عليه اذا رام النجاح لعمليته ، ان ينزل قواته فى سيدي فرج ، ومن هناك يتجه الجيش الغازي الى الهضاب التي تشرف على برج الامبراطور ، فى طريق تستغرق مسافة ثلاث ساعات (قام شالر بتوقيت الطريق والساعة فى يده) وبعد ما يستولي علىهذه الهضاب يتخذها قاعدة للهجوم على برج الامبراطور (وهو يرشد الى افضل الطرق للاستيلاء عليه بسهولة) . ومتى احتل هذا الحصن اصبح يسيطر على المدينة من اعلى وقد احاط بالمدفعية المسددة الى البحر ، واخذها من الخلف .

وعندما ينتهي الجيش الغــازي من العمليات الحربية ، لن يجـد صعوبة فى التعويض عـن الخسائر التي تكبدتها الحملة ، اذا قصد الى خزينة الداي التي تحتوي على خمسين مليون دولار (اي نحو 300 مليون فرنك فرنسي) .

واما مقاومة الحكومة التركية فى الجزائر ، فان شالر لا يتوقع ان تستمر اكثر من بضعة ايام ، بسبب كره السكان لهذه الحكومة ، ولو انه لا يستبعد قيام بعض المقاومة فى الداخل . ولكن هذه المقاومة سوف لا تكون فعالة ، بسبب الشقاق والحزازات بين القبائل ، وبسبب الجهل المخيم وقلة التدريب وعدم توفر الأسلحة .

وبعد هذا كله ، يجب ان نذكر بما تعلمناه من الكتب المدرسية ، من ان الجيش الفرنسي الذي قام بغزو الجزائر بعد ظهــور الكتاب الذي بين ايدينا بست سنوات (وبعد ظهور الترجمة الفرنسية باقل من سنــة واحدة) ، قد نزل فى سيدى فرج واحتــل الهضاب المشرفة عـلى برج الامبراطور وطوق مدينة الجزائر من الخلف ، وان مقاومة الأتراك للجيش

الغازي لم تستمر سوى بضعة ايام ، وان من بين الأعمال الأولى التي لم يفت الجيش الفرنسي القيام بها تحت اشراف الضباط ، نهب الخزينة الجزائرية التي كانت تحتوي حصيلة ثلاثة قرون من الضرائب التي تدفعها الدول ومن اعمال القرصنة .

وهذا الكتاب الذي ترجمناه عن الاصل الانجليزي الذي نشر فى بوسطن (1826) ، وضعت له ترجمة فرنسية نشرت فى باريس فى سنة 1830 . ومما يضفي عـــلى هذه الترجمة اهمية خاصـــة فى السياق السياسي والعسكري لاحتلال الجزائر ، ان مترجمه M.E. Blanchi هو المترجم الرسمي للملك شارل العاشر الذي خطط حملة الجزائر . وان فقرة وردت فى مقدمة المترجم الفرنسي لتدلنا بوضوح ، على انه لا يمكن ان تكون قيادة الجيش الفرنسي اهملت استغلال المعلومات الخطيرة التي يحتوي عليها الكتاب . فقد جاء فى صفحة 4 من المقدمة ما يلي :

« واما ما ذكره المؤلف عن موقع مدينـــــة الجزائـــر ، وامتدادها ، وتحصيناتها ، وضواحيها التي استكشف بعناية طبوغرافيتها ، فهو ، بدون شك ، سيكون موضع تقدير خاص من ضباط الجيش ، وسيجدون فيه عونا كبيرا لتوجيه العمليات العسكرية » .

وخلاصة القول ان هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه حقائق وشهادات لا يوجد ما يدعو الى الشك فى صدقها ، يحتوي ايضا على آراء ومواقف عدائية للجزائر ، وانه لمن حسن الحظ انه لا يمكن ان تختلط هذه بتلك ، فى ذهن القاريء الواعي الذي يبحث عن الحقيقة . وبقراءته بروح من النقد والتمييز مع تناسي ميول الكاتب الشخصية فقط ، يمكن الاستفادة من هذه الوثيقة التي لا نظير لها فى تاريخنا الحديث .

الجزائر 16 مايو 1977

اسماعيل العربي

تاريخ الجزائر الحديث

مع مذكرات وليام شالر

قنصل الولايات المتحدة بالجزائر

1816 – 1824

ترجمه عن الانجليزية وعلق عليه

اسماعيل العربي

عنوان الكتاب الأصلي :

SKETCHES OF ALGIERS

Containing An Account
of the
Geography, Population, Revenues, Commerce, Agricuture,
Arts, Civil Institutions, Tribes, Manners, Language
and

RECENT POLITICAL HISTORY OF THAT COUNTRY

By WILLIAM SHALER
American Consul general at Algiers

نشر في بوسطن ، الولايات المتحدة – جامعة كارولين الجنوبية ، 1826 .

مقدمة المؤلف

المؤلف مدين في تاليف هذا الكتاب ، بصفة خاصة للكتاب القيم الذي وضعه الدكتور شاو عن بلاد البربر ، وكذلك استفاد من كتاب شينيي ، ابحاث عن البربر ومن رحلات علي بك في افريقيا وآسيا . والـكاتب يأسف لأنه لم يتمكن من الحصول على نسخة من رحلات بروس ، ولو أنه يعتقد بناء على ماعلق بذاكرته ، أن هذا الكتاب الأخير لا يكاد يضيف شيئا الى الأول .

والمؤلف يعتقد ان الدكتور شاو ، في بلاد البربر وفي المشرق ، هو الدليل الوحيد الذي يستحق ثقة الباحث في جغرافية وتاريخ مملكة الجزائر ، بل وفي تاريخها الطبيعي ايضا .

صحيح ان الوصف الجغرافي الذي يقدمه لهذه المملكة قد لا يكون كله دقيقا ، ومع ذلك ، ونظرا لأنه لم يقم كاتب اكثر تضلعا منه بتصحيح هذه المعلومات ، فاني قد فضلت الاعتماد عليه في هذا العمل . وهـذه المعلومات ، في الحقيقة تستجيب لجميع اغراض المؤلف الذي لا ينوي سوى وضع خطوط جغرافية عامة لتكون اطارا لبحثه عن هذا البلد .

والمعروف ان الاخلاق والعادات وطرق السلوك لا يعتريها سوى تغيير طفيف عبر السنين في البلدان الاسلامية ، على عكس الحالة في البلدان الاكثر تقدما . واذا نظرنا الى الوضع على ضوء هذا الاعتبار ، فسنقتنع بان حالة البلد من هذه النواحي لم يطرا عليها تغيير يذكر منذ ان سجل شاو ملاحظاته عنه .

والهدف الذي كان يتوخاه الدكتور شاو ، هو وضع دراسة عن الحالة الجغرافية والتاريخ الطبيعي والتاريخ القديم لبلاد البربر .

واما مؤلف هذا الكتاب ، فقد اقتصر ، بسبب علمه المحدود ، وبسبب عدم توفر الفرص الضرورية للتعمق في بحث هذه الموضوعات المهمة ، على عرض الحالة الأدبية والسياسية في مملكة الجزائر . وفيما يتعلق بهذا الموضوع ،

فان المؤلف يشعر بالفخر ، لأن كتابه سيعتبر مفيدا ومكملا لكتاب الدكتور شـاو .

قد يبدو للقاريء انه ربما كان من الأفضل تخصيص فقـرات للـدول البربرية الأخرى ، ولكنه نظرا لأن هذه البلدان تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا في شكل الحكومات ، ولانها لا ترتبط فيما بينها الا بعلاقات واهية في حالة الحرب والسلم معا ، ولا تربط بينها سوى علاقات الدين المشترك والتبعية (فيما عدا المغرب الأقصى) للسلطة العثمانية ، فان المؤلف يرى من الحكمة ان يقتصر في ابحاثه على مملكة الجزائر .

وقع حادث هنا في الجزائر ادى الى دخول هذا البلد في حرب مع بريطانيا استمرت اكثر من ستة اشهر .

وفي غضون هذه المدة ، قمت بتسجيل كل ما حدث وكل ما يتصل بهذه الحرب في سجل حفظ في قنصلية الولايات المتحدة الامريكية . وحيث أن احداث هذه الحرب ونهايتها بعودة السلام وآثارها على الحياة العامة تمثل اهم موضوع للتعليق عن حالة البلد السياسية ، فاني ضمنت تلك المذكرات الفصل الأخير من هذا الكتاب .

والمؤلف يرجو ان يتجاوز الجمهور عن الأنانية المحتمة التي تبدو من خلال هذا السرد للاحداث ، لأنه هو الشخص الحي الوحيد الذي أستطاع متابعتها بطريقة صحيحة ، حيث قام بالدور الرئيسي على مسرح الاحداث التي يرويها . لقد شاءت الظروف أن يتولى الكاتب التعليق عـلى الأعمال التي قام بهـا .

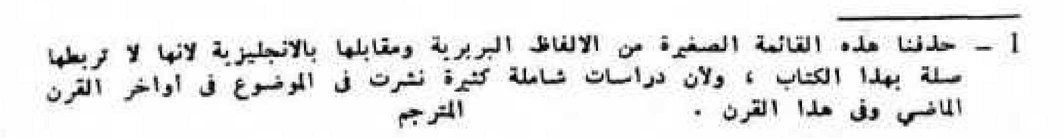
ولكنه اذا كان المؤلف مضطرا للحديث عن نفسه ، فهو انما يفعل ذلـك بوصفه ممثلا لدولته . ومن ثم ، فان كل فضل له في رواية هذه الأحداث مهما كان نوعه ، انما يعود الى الاحترام الذي توحيه سياسة الولايـات المتحدة التي تتسم بالأمانة والوفاء .

والوثائق الملحقة في آخر الكتاب ، لا يستدعي الحاقها اي توضيـح أو اعتذار ، وذلك فيما عدا المقالة المترجمة عن ((شول)) بشأن التجارة في رقيق الزنوج .

وهذا المقال احتاج الأمر الى ادراجه ، لا بقصد زيادة رصيد مواطني المؤلف من المعلومات ، فان عمل السيد ((ويلش (Walsh) القيم يغني عن ذلك ، ولكنه لتوضيح الطريقة التي تنظر بها شعوب القارة الأوروبية الى تشريعات بريطانيا ومفاوضاتها بشأن هذه القضية الخطيرة الأهمية .

واعتقادا منه ان لغة السكان الأهالي موضوع يستحق البحث والعناية من العلماء ، وضع المؤلف ملحقا للكتاب يحتوي على قائمة من الألفاظ (1) نشرها كتاب غير المؤلف عن لغة هذه المنطقة من العالم الافريقي . ومتى قام الباحثون بدراسة لهجات واحة سيوا وآسيا الصغرى وورجله ، ومختلف قبائل التوارج ـ وهو موضوع تبشر الدلائل بأن الرحالين الانجليز سيقومون بدرسه ـ فان النظرية التي تتعلق بالشاوية ستكون محكا للتجربة . ومتى ثبتت صحتها ، فسيقتضي الأمر اتخاذ اجراءات اخرى للقيام بأبحاث اعم واشمل ، وللمحافظة على هذه اللهجات الطريفة . والمؤلف الذي يحمل فى ذهنه هذا الهدف ، سوف يستمر على بحث الموضوع بقدر ما تسمح بـه ظروفـه .

الجزائر فى مارس ، 1825 .


1 ـ حذفنا هذه القائمة الصغيرة من الالفاظ البربرية ومقابلها بالانجليزية لانها لا تربطها صلة بهذا الكتاب ، ولان دراسات شاملة كثيرة نشرت فى الموضوع فى اواخر القرن الماضي وفى هذا القرن . المترجم



الفصـــل الأول

حدود وامتداد مملكة الجزائر ، المظهر العام للبلد ، الجبال والمناخ ، التربة ، الحيوانات ، الانتاج الطبيعي ، الانهار ، الشواطىء ، الخلجـان والموانىء ، التقسيم السياسي ، المدن والسكان .

تحد القسم الذي يسمى باسم عاصمته من بلاد البـربر ، مملكـة الجزائر ، من الغرب ، امبراطورية المغرب الاقصى ، ومـن الشـمال ، البحر الأبيض المتوسط ، ومن الشرق الاراضي التونسية ، ومن الجنوب الصحراء الكبرى ، والحدود الغربية لهذه المملكة على البحر الأبيض ، تقع عند مكان يسمى «طونت» على مسافة نحو أربعين ميلا من نهـر ملوية الكبير ، 16 دقيقة من خط طول غربي خط طول جرينيتش الذي تعتبره هذه الدول خط الطول الأول كلما اقتضى الأمر تحديد الأطوال ، ومن هنا ، فان المسافة حتى طبرقة التى تقع عند مصب نهر صغير عند 90 درجة و 16 دقيقة طول شرقي ، تبلغ حوالي 500 ميل .

هذا فيما يتعلق بالطول ، وأما فيما يتصل بعرض المملكة فهو موضع شك ، حيث أنه لم يجر أي تحديد من أي موقع كان لرسم الحدود الصحراوية .

والدكتور شاو الذي يعرف هذا الموضـــوع أكثـر من أي جغرافي آخر ، يعتقد أن عرض المملكة فى اتجاه تلمسان لا يتجاوز 40 ميلا ، ومن مدينة الجزائر لا يتجاوز 60 ميلا ، وأن متوسط 60 ميلا يمثل عرض

المملكة انطلاقا من البحر الأبيض حتى الصحراء . وهذا الامتداد يمثل ما يسميه العرب «التل» ، أو الأراضي القابلة للزراعة التي لا يغطيها الصحراء .

ومع ذلك ، يمكننا أن نلاحظ أن الحدود الصحراوية لا تتجه في خط مستقيم ، حيث أن هذه الحدود التي تتخللها جبال ومستنقعات وسهول خصبة ، هي التي تسمى على خرائط أفريقية ببلاد الجريد ، وهذه الأراضي يحيط بها الغموض ولا يمكن الحديث عنها قبل أن تستكشف بصورة أفضل .

لقد قمت بتحقيق في الموضوع مع عدد من الأهالي المسافرين جعلني أفترض أن بلاد الجريد واسعة ، ولكنه نظرا لأن حدودها لم ترسم بوضوح ، فأنا لا أريد أن أدخل في نقاش وأعرض نتائج تتعارض مع ما ذكره المسافرون والرحالون الموثوق بهم .

وطبقا لهذه المعلومات ، اذا ، تبلغ مساحة مملكة الجزائر حوالي 30 ألف ميل مربع . والبلاد جبلية حيث تخترقها سلسلة جبال الأطلس التي تمتد من الغرب الى الشرق ، والتي تشكل ألوانا مختلفة من التشكيلات الجبلية والأودية . والأهالي يؤكدون أن جميع هذه الجبال تعلوها الغابات ، وأن قسمها مأهولة بالسكان من « القبائل » الذين يجدون فيها مراتع وافية وتكفي لرعي قطعانهم وأراضي زراعية محدودة تفي بحاجاتهم .

والمناطق المأهولة من هذه البلاد الممتازة تمتد بين الدرجة الرابعة والثلاثين والدرجة السابعة والثلاثين عرض شمالي ، وتتمتع بجو صحي ومناخ معتدل مريح ، ليس بشديد الحرارة في الصيف ولا بقارس البرد في الشتاء . على أنه تستثنى من هذه القاعدة الرياح الجنوبية التي تهب

بين الحين والحين ، وتدوم أحيانا ، أربعة أو خمسة أيام فى منتصف الصيف . وحينئذ ، ترتفع درجة الحرارة لتبلغ فى بعض الأوقات 108 درجة فهرنهايت .

وفى غضون الفترة بين شهري أبريل وسبتمبر ، تهب الرياح عـادة فى اتجاه الشرق وهي تكون مثقلة بالرطوبة ولكنها لا تحمل أمطارا . وفى غضون الفترة الباقية من السنة ، تهب الرياح عادة فى اتجاه الغرب .

وموسم الأمطار فى المملكة يمتد من نوفمبر حتى أبريل . ويحدث أن تكون الأمطار غزيرة فى شهري نوفمبر وديسمبر ، وفى يناير وفبراير . ويكون الطقس جميلا فى معظم الوقت .

وأما كميات الأمطار التي تنزل سنويا . فهي تتراوح بين 24 و 28 بوصة .

والتربة فى هذه المنطقة لم تتدهور ولم تنخفض قيمتها عما كانت عليه فى العصور القديمة حين اشتهرت بالخصب . وهي فى بعض الجهـات سوداء ، وفى جهات اخرى حمراء ، ولكنها فى جميع الحالات ، خصباء ، حيث انها مشربة بالنيترات .

والسكان قلما يزرعون اية حبوب اخرى غير الحنطـة والشعير ، والكمية التي يزرعونها فى الاكـر (1) هي 5 « بيكات » يبلـغ مردودها (على الرغم من حالة الزراعة البدائية) ما يتراوح بين 8 و 11 «بيك» .

والقمح الجزائري من النوع الصلب ، والدقيق الذي يطحن منه يشبه الرمل فى مظهره ، وهو صعب للعجن ولكن الخبز الذي يصنع منه لذيذ الطعم .

1 ـ مقياس انجليزي ـ أمريكي للمساحات الزراعية يساوي 4840 ياردة مربعة = 4000 مترا مربعا .

وهذا القمح مشهور فى الأسواق الايطالية ويفضله التجار على جميع أنواع القمح الأخرى ، بسبب جودته لصنع « المقارونة » وغير ذلك من أنواع العجائن .

والمؤرخون القدامى يقولون ان هـذه المنطقـة من أفريقيـة قليلة الغابات ، والحالة كذلك الآن ، حيث أن الغابات نادرة فى السهول .

وبعض الأخشاب تنقل الى ميناء الجزائر من بجاية ، ولكنني فهمت أنها من نوع غير جيد وقلما يستعمل لبناء السفن . وأشجار الزيتون تعيش هنا فى بلدها الأصلي ، وذلك فيما يتعلق بالتربة والمناخ معا . والنبات ينبت من تلقاء نفسه فى كل مكان تتوفر له فيه الفرصة . وشجر الجوز والكستناء يوجد فى جميع أطراف المملكة ، والانتاج من النوع الجيد ، ولو أنه يقل عن مثيله فى آسبانيا وفرنسا وايطاليا .

وغابات النخيل كثيرة فى البلد والتمور التي تنتج فى المناطق المجاورة للصحراء لذيذة للغاية .

وكذلك توجد فى المملكة جميع الفواكه التي تنتج فى المناطق المعتدلة وتنتج بوفرة ، ولكنها فيما عدا التين والرمان والعنب ، من نوع ثانوي. وسهول هذا البلد وهضابه الكثيرة ، خليقة بأن تنتـج أرفـع أنواع الخضروات لو يتاح لها سكان مجتهدون ويعرفون الزراعة .

والمعدن الوحيد الذي نعرف بوجوده فى الجزائر فى الوقت الحاضر ، هو الحديد والرصاص الذي تستخرج منه كميـات كبيـرة فى جبـال القبائل .

وتوجد فى البلد عدة أنواع من الطين الذي يصنـع منـه الأهالي كميات من الفخار البدائي ، وكذلك توجد معادن الملح الرفيع بكثـرة فى بعض الجبال .

واذا كانت مملكة الجزائر تحتوي على ينابيع وجداول وفيرة للمياه العزيرة ، فانها لا تملك أنهارا ذات أهمية تذكر .

ونهر شلف هو أعظم أنهار البلد . ومنابعه تقع فى الصحراء . فى جنوب ولاية تيطري . ومجرى النهر يقترب من مدينة الجزائر حتى يمر على مسافة نحو خمسين ميلا منها . ثم يعرج فى اتجاه الغرب ليجري فى اتجاه شبه مواز لخط الشاطىء . وينصب فى البحر الأبيض المتوسط عند درجة 20ر1 من الطول الشرقي ، على مسافة نحو ثلاثين ميـــلا غـــربي رأس تنس .

وهذا النهر يرجح أن يكون قابلا للملاحة فى بعض المناطق فى أعاليه .

وفى مواسم الأمطار ترتفع مياه شلف وتطغى على جنبـــاته لتغـــرق مساحات معتبرة من الأراضي المجاورة ويصبح عقبة كبيـــرة فى طـــريق المواصلات بين الجزائر ووهران .

وفيما عدا نهر شلف لا يوجد نهر يستحق الذكر ، ولو أنه توجد أنهار صغيرة وجداول من الطول بحيث أنها تبلغ الى البحر .

وكذلك يوجد فى الجزائر عدد من ينابيع المياه المعـــدنية والينابيـــع الملحة .

وفيما يلي وصف الدكتور شاو لحمام ريغة ومياهه المعدنية وهو يقع بين الشلف والبحر ، على مسافة نحو 60 ميلا فى غرب الجزائر .

وهذا الحوض الذي يكثر الاقبال عليه ، يمتد على 12 قدما مربع ، ويبلغ عمقه أربعة أقدام . ولمياهه درجة من الحرارة محتملة ، وبعدما تخرج هذه المياه من الحوض الأول ، تجري لتملأ الحوض الثاني الذي هو أصغر من الأول ، وفى هذا الحوض الصغير يستحم اليهود الذين لا يحق لهم الاختلاط بالمسلمين .

وفى العهد الغابر كان يقف مبنى أنيق يرتفع فوق الحمــام وتمتــد ممرات مفروشة بالحجر حول الحمام نفسه . ولكن الحمام فى الوقت الحاضر يقع فى الهواء الطلق ، وفى الوقت الذي زرته فيه كان معطى بالاحجار والفضلات .

وفى فصل الربيع الذي هو الفصل الذي يقصد فيه الناس الحمامات المعدنية ، يأتي جمهور غفير الى هذا الحمام ، ويقال ان مياهه تشفي من الروماتيزم البرقان وغير ذلك من الأمراض المزمنة .

والشواطىء الجزائرية ذات منحدرات فى كل مكان ، ولكنها لا تشكل اخطارا غير متوقعة .

وخليج بجاية وخليج ستورا يضمان الميناءين الوحيدين اللذين تتوفر فيهما الحماية . والخليجان واسعان وتحيط بهما جبال تقي السفن من الرياح فى جميع الفصول ، وهذه المعلومات زودني بها ربان كبير لسفينة انجليزية اضطرته الاحوال الجوية الى الالتجاء الى الميناءين المذكورين أثناء رحلة قام بها فى فصل الشتاء من الجزائر الى بجاية ومن عنابه الى الجزائر .

على أن الشواطىء الجزائرية غير معروفة بوضوح . ولو درست هذه الشواطىء بعناية لكان من المحتمل اكتشــاف موانىء أخــرى فيها . والجزائر ووهران وعنابه فى وقتنا هذا هي الموانىء الوحيده التي تتردد عليها السفن الأجنبية ، لأنها تجد فيها مرافىء مأمونة فى جميع فصول السنة عادة ، ولو أن السفن التي ترسو فى هذه الموانىء تتعرض فى الشتاء للرياح الشمالية التي تهب بشدة وعنف .

وفى بحر الجزائر تعيش جميع أنواع السمك المعروفة فى البحــر الأبيض بوفرة ، كما يوجد على السواحل الشرقية أجمل أنواع المرجان المعروف فى العالم ، وهذه المادة يمكن أن تصبح مصدرا للصناعة وموردا

للثروة للبلد ، ولكنه في الوقت الحاضر لا تتمتع بحق استخراجه والتجارة فيه الا فرنسا ، وفي مقابل هذا النشاط الهام ، لا تتلقى الحكومة الجزائرية سوى عوائد زهيدة .

ونظرا لأن سكان البوادي يمارسون الرعي على نطاق واسع ، بحيث تعتبر قطعانهم المصدر الأساسي للثروة ، ولأن خصائص البلد الطبيعية حيث يتوفر فيه العشب ، تسمح بتغذية الحيوانات ، فاننا نجد هنا جميع أنواع الحيوانات الدواجن بكثرة ، بما في ذلك الفرس ، والثور ، والجمل ، والجمل ذو السنامين والحمار والبغل والغنم والماعز والخيول العربية تتمتع بشهرة عالمية ، ولكنني لا أذكر أنني رأيت فرسا واحدا جميلا في مدينة الجزائر ، وأنا أعتقد ، على كل حال ، أن الخيول العربية أقل قيمة من خيول الولايات المتحدة .

والثيران في الجزائر صغيرة والبقرة لا تدر سوى قليل من الحليب . وفي مقابل ذلك ، نجد أن الصوف الجزائرية من النوع الممتاز ، ولذلك ، فان القنطار الانجليزي (1) من الصوف ، يساوي ، قبل غسله ومشطه في الأسواق الفرنسية والايطالية ، يساوي خمسين فرنك .

والحيوان البرية كثيرة في الجزائر ، وأهمها ، الوعل ، والأرنب ، والحجل ، والسماني ، ودجاجة الأرض ، والسنقب ، والحذف (2) والبط الوحشي .

وفي أطراف الصحراء ، تعيش الظباء والغزلان والماعز الوحشي .

---

1 ـ القنطار الانجليزي = 112 رطل فرنسي في ذلك الوقت ، وكلمة قنطار من اصل عربي ، وقد وردت في القرآن الكريم الكريم .

2 ـ بط بري صغير = Teal بالانجليزية .

والحيوانات المفترسة فى الجزائر ، هي النمر ، والأسد ، والفهد ، والضبع ، وابن آوى المخرب ، والقط الوحشي ، وهذه كلها تعيش فى أطراف الصحراء .

والأسد النوميدي المشهور فى التاريخ ، لم يفقد شيئا من خصائص وحشيته ، لأنه لا يزال ، اذا صدقنا أقوال الأهالي ، فى عتوه وجبروته . وهو أنبل الحيوانات التي من نوعه .

ومملكة الجزائر تنقسم من الناحية السياسية الى ثلاث ولايات : وهران ، فى الغرب ، وتيطري ، فى الجنوب ، وقسنطينة فى الشرق .

فأما ولاية تيطري ، فيحدها من الناحية الغربية نهر مزفران (12ر3 درجة طول شرقي) الذي يفصلها عن ولاية وهران ، ومن الناحية الشرقية نهر بوبراك الذي يفصل بينها وبين ولاية قسنطينة (15ر4 درجة طول شرقي) .

والمعتقد أن الولايات الثلاث تمتد من البحر الأبيض شمالا ، حتى الصحراء جنوبا .

وعاصمة المملكة تقع على شاطيء تيطري (48ر36 درجة طول شمالي ، و 30ر3 درجة طول شرقي) ، ويدعى الدكتور شاو أنها تقع فى مكان مدينة ايكوسيوم (Icswm) القديمة .

وسلطة مدينة الجزائر تمتد على مساحة شاسعة ، وكثير من حكومات الولايات الثلاث تابعة لها ، كما سنرى فيما بعد ، ومن ثم ، يمكننا أن نعتبرها ولاية رابعة .

ومدن المملكة (اذا استثنينا العاصمة التي ستتعرض لوصفها فى الفصل التالي) ليست بذات أهمية .

فمدينة تلمسان تقع فى الغرب ، غير بعيد من الحدود ، على مسافة متساوية بين البحر والصحراء . وتلمسان كانت عاصمة المملكة فى الماضي، وهي مدينة معتبرة ، فان الدكتور شاو يقول ان سورها الدقيم يبلغ دوره أربعة أميال . على أنه ، منذ حلول الأتراك فى هذا البلد ، أصبحت تلمسان باهمال ، وذلك على الرغم من موقعها الجغرافى الممتاز ، ويفترض أن عدد سكانها فى الوقت الحاضر يبلغ 3000 نسمة .

ومدينة وهران تقع على مسافة 54 ميل فى الشمال الشرقي من مدينة تلمسان ، وميناء وهران ممتاز فى الفصول العادية ، ويمتد فى برزخ على مسافة خمسة أميال فى الجنوب الغربي من خليج أرزيو الجميل (35ر48 درجة عرض و 4ر40 درجة طول شرقي) .

وسكان مدينة وهران يبلغ عددهم فى الوقت الحاضر نحو ثمانية آلاف نسمة ، والمدينة تمتد أحياؤها فى منطقة خصبة للغاية ، واذا اعتبرنا خليجيها الجميلين وقربها من جبل طارق وأسبانيا ، فانها ، بدون شك ، هي المدينة المهمة الثانية فى المملكة .

وعلى مسافة بضعة أميال الى الشرق من وهران ، تقع مدينة مستغانم التي كانت مدينة مهمة جدا ، أثناء احتلال الأسبان لمدينة وهران ، ولكنها فقدت كل أهميتها بعد ما استعادتها المملكة .

كان الأسبان قد أقاموا حول مدينة وهران تحصينات منتظمة ، وبعد احتلال دام نحو قرن من الزمن ، بموجب معاهدة صلح مع الجزائر ، أعادوها الى الجزائريين وهم يأملون الحصول على فوائد ، ولكن أملهم لم يتحقق قط (3) .

3 ــ عقدت هذه المعاهدة فى 12 سبتمبر 1791 ، وجلى الاسبان عن وهران فى السنة التالية .

ومدينة البليدة يبلغ عدد سكانها ما يتـراوح بين 8 و 10 آلاف نسمة (4) وهي تقع فى جنوب العاصمة ، على الطرف الشمالي لسهول متيجة ، على مسافة 24 ميل من مدينة الجزائر .

وبعد ذلك ، وعلى مسيرة يوم فى نفس الاتجاه ، تقع المدية ، قاعدة ولاية تيطري ، وهي تشبه البليدة من حيث الأهمية والامتداد .

وموقع هاتين المدينتين قرب العاصمة ، وفى أخصب مناطق نوميديا ، قد جعلهما تتمتعان بوفرة ورخاء زراعي كبير .

وقسنطينة ، قاعدة الولاية الشرقية ، هي مدينة سرت القديمة ، وهي تقع على نهر يسمى الرمل على مسافة نحـو أربعيـن ميـلا من البحـر (36ر20 درجة عرض شمالي 6ر30 درجة طول شرقي) . والأهالي يذكرون أن سكان قسنطينة يبلغ عددهم حوالي 25 ألف نسمة فى الوقت الحاضر .

وموقع مدينة قسنطينة من أعظم المواقع التي يتصورها الانسـان ، ومتى أشرفت على ادارتها حكومة حكيمة ، يمكن للمدينة أن تأمـل فى الحصول على فوائده جمة .

---

4 — فى اليوم الثاني من شهر مارس 1825 على الساعة التاسعة والنصف صباحا ، وقعت هزة ارضية عنيفة فى مدينة الجزائر ، تلتها هزات اخرى فى ظرف 48 ساعة ، وقد نجم عنها تدمير مدينة البليدة تماما بحيث لم يبق فيها منزل واحد قائما على اساس ، وقد كان الدمار الذي اصاب هذه المدينة العاثرة الحظ مفاجاة تامة للسكان بحيث لم يكد ينجو احد منهم بالفرار ، وتدل تقديرات معتدلة جدا ، على ان عشرة آلاف نسمة قد هلكت فى هذا الحادث الفظيع ، ولما تساءلت بشان الفرق الكبير بين عدد سكان المدينة وعدد الهالكين فى الحادث ، تلقيت الرد التالي : ان موقع المدينة الممتاز ووفرة المياه فيها وخصوبة ارضها وتبعيتها للحكومة المركزية التي تحميها من تعنت الباي ، عوامل جعلت الناس يتدفقون عليها من المناطق المجاورة فى غضون السنوات الاخيرة ، وبذلك زاد عدد سكانها زيادة كبيرة وسريعة . والجدير بالذكر ان الدكتور شاو لم يذكر مدينة البليدة ضمن القرى التي ذكرها .

هامش المؤلف

ومدينة عنابة هي «هيبو ريجيوس Hippo Regius ce القديمة ، وعدد سكانها فى الوقت الحاضر نحو 000 أو 4000 نسمة . وللمدينة ميناء مأمون (43ر36 درجة عرض شمالي و 0ر8 درجة طول شرقي) .

كانت مدينة عنابة قبل الثورة الفرنسية مركزا تجاريا أهم من مدينة الجزائر ، حيث كانت محورا لجميع العمليات التجارية التي كانت تقوم بها الشركة الفرنسية الافريقية التي أسست بموجب امتياز لاحتكار صيد المرجان الذي يستخرج من مياه هذه الشواطىء ، وقد منحت امتيازات أخرى كذلك ، وهذه الامتيازات جددت عقب عودة الملكية الى فرنسا ، ولكنه لم ينجم عنها أي تحسن ملحوظ فى تجارة مدينة عنابة التي يضمن لها موقعها المهم تحقيق تقدم أكبر لو وجدت التجارة والزراعة أي تشجيع فى هذا البلد .

وبجاية (45ر36 درجة عرض شمالي و 49ر9 درجة طول شرقي) تملك أعظم ميناء على هذه الشواطيء ، وقد كانت فى الماضي أهم مستودع بحري للايالة .

والمناطق المجاورة لبجاية مناطق جبلية ولكنها تتمتع بخصب نادر لانتاج الزيتون ، ولو نالت بجاية التشجيع الذي تستحقه لأصبحت مدينة ذات تجارة واسعة مهمة ، وعدد سكان بجاية فى الوقت الحاضر لا يتجاوز ألفي نسمة .

لقد قدم لنا الدكتور شاو وصفا لعدد آخر من المدن على الشواطىء وفى الداخل ، ولكن هذه المدن لم تتمكن ، فيما يبدو ، من الاحتفاظ بالمزايا التي كانت لها ، ولذلك ، فأنا لم أستطع جمع أية معلومات عنها . وأنا أستنتج من ذلك أن تلك المدن فقدت كل نفوذ سياسي أو تجاري كان لها فى الماضي . ومع ذلك ، ينبغي أن أسجل بعض الملاحظات عن

مدينة شرشال (Julia Caeserie) البحرية التي كانت أهم مدنموريتانيا الرومانية ، وهي تقع فى غرب الجزائر (39ر2 درجة طول شرقي) .

كانت شرشال فى عهد الدكتور شاو مدينة كبيرة نوعا ما ، ولكنها الآن فقدت كل أهميتها وأصبحت قيمتها لا تتجاوز كونها مركزا لصنع نوع الفخار الرديء الذي يحمله سكانها على السفن الى الجزائر لبيعه .

ان الآراء تختلف بشأن عدد سكان المملكة ، والتقديرات لا تقوم على أساس تعداد السكان ، بل هي تقريبية ، وبالمقارنة ببلدان أخرى التي عرفت احصاءاتها .

واذا اعتبرنا عدد المدن الصناعية والتجارية الصغير ، والاستبداد القاسي فى حكومة البلد ، والحياة الرعوية التي يعيشها معظم السكان ، أعتقد أنه على الرغم من مزايا المناخ المعتدل ، فان سكان المملكة أقل ، وليس أكثر من مليون نسمة .

****

الفصـــل الثـــاني

الدين واللغة ، شكل الحـكومة ، التبعية للامبراطورية العثمانية ، حكومات الولايات ، المؤسسات السياسية والمدنية والقضاء ، امتيـازات وترخص الاتراك ، المالية ، الجيش ، البحـرية ، القرصنة ومبادئها السياسية المصرح بها ، المعاهدات والعلاقات مع الـدول الاجنبيـة ، التحيات ، المراسم ، رمضان وعيد الاضحى .

الاسلام هو الدين الوحيد الذي يدين به الجزائريون ، ولا يوجد فى البلد دين آخر ، ما عدا اليهودية المسموح بممارستها لليهود .

واللغات المستعملة للحديث فى مدينة الجزائر ، هي العربية ، والتركية، والعبرية ، وما يسميه الدكتور شاو بالشاوية ، أو اللغة التي يتحدث بها سكان الجبال المستقلون والتي يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأنها لغة قديمة وأصيلة .

واللغة التركية هي لغة الادارة ، وذلك على الرغم من أن اللغة العربية هي لغة أغلب السكان .

واللغة الفرنسية تستعمل فى دوائر الأعمال والوكلاء الأجانب الذين يقيمون هنا .

واللغة «الفرنكية» (Langua Franca) التي هي خليط من الاسبانية والفرنسية والايطالية والعربية ، هي واسطة الاتصال ، عادة بين الأجانب والأهالي .

ولكي نكون فكرة دقيقة عن النظام السائد هنا ، يقتضي الأمر أن نعرض هنا بعض الحقائق التي تتصل بغزو الأتراك للجزائر .

ففي سنة 1516 ، كان ملك جزائري صغير يدعى التـومي (1) من الحماقة بحيث استنجد بالأخوين عروج وخير الدين ضد الأسبان الذين كانوا حينئذ يحتلون مدينة وهران وكانوا يحتفظون بحامية فى بجاية وفى جزيرة صغيرة تقع مقابل مدينة الجزائر .

وهذان الأخوان ينتميان الى جزيرة ميتيلانس (Mytilence) وقد اشتدت شوكتهما وشاع ذكرهما بسبب ما اشتهرا به من الشجاعة وما أحرزاه من النجاح فى أعمال القرصنة . وقد عرفا فى الممالك المسيحية باسم « باربروسا » (Barbaroussa) .

وقد قبل الأخوان العرض الجزائري بكثير من الشره حيث كـانا منذ وقت بعيد يأملان الحصول على ميناء يكون قاعدة لسلطانهما .

وكذلك استقبل عروج فى مدينة الجزائر استقبال الصديق (وكـان على رأس قوة تتكون من خمسة آلاف رجل) ولكنه عمد الى قتـل الأمير الذي جاء لنجدته ، ثم أعلن نفسه ملكا على الجزائر بدلا منه (كذا).

وفى سنة 1518 ، هزم عروج فى معركة مع الأسبان ، وقتـل وهـو يتراجع من تلمسان .

وبعد ذلك حل محله ملكا على الجزائر ، أخوه خير الدين .

1 – كانت مدينة الجزائر قد تعهدت بطاعة الملك فرديناد الكاثوليكي ، ولما توفي هذا الملك فى سنة 1516 ، اعتبروا انفسهم فى حل من هذا العهد ، ولكن ما كانوا عليه من الضعف حال دون اعلان استقلال بلدهم ، وكذلك استنجد الشيخ سليم التومي بالاخوين ، عروج وخير الدين اللذين استغلا هذه الفرصة لتثبيت سلطانهم .

وهذا الزعيم قد نال حظا من الشهرة أكثر من أخيه ، تحت نفس الاسم ، بربروس ، ولم يكد يتسلم زمام السلطة ، حتى وضع المملكة الجديدة تحت حماة سلطان تركيا الذي أمده بحامية كافية لاحباط كل محاولة من الأهالي لاستعادة حريتهم .

وبعد ذلك ، عين خير الدين فى منصب « قبطان باشا » وبذلك أصبح ميناء الجزائر «باشاليك» تابعا للباب العالي .

انني لا أملك المعلومات التي تبين فى أي وقت أصبح فيه دايات الجزائر ينتخبون ، كما هي الحال الآن ، ولو أنه يبدو أن السلطان ظل يعين الدايات حتى منتصف القرن السابع عشر (2) .

والأرجح أن الحكومة العثمانية قد تنازلت فى حوالي هذا التاريخ للحامية التركية بالجزائر عن حقها فى التعيين وخولت لها حق انتخاب الداي ، مع الاحتفاظ للسلطان بحق تأكيد الاختيار بتوجيه القفطان والسيف للداي الجديد ، رمزا لتزويده بالسلطة .

وأول معاهدة عقدتها بريطانيا مع الجزائر ، تحمل تاريخ 1682 ، ومن ذلك التاريخ بدأت شهرة الايالة التي كانت خلال ثلاثة قرون متوالية تبعث الرعب فى الممالك المسيحية وسوطا فى جنب العالم المتحضر .

فان هؤلاء البسطاء تمكنوا من اقامة الحكومة التي سمحت لهم بها الظروف ، على غرار النموذج الوحيد المعروف لديهم للحكومة ، وهي الحكومة العثمانية ، وأقاموا دستورهم على مبدأ الغزو والفتح ، مع

---

2 ـ وقع هذا التحول عقب اغتيال اغا على ، حين قررت طائفة الرياس ان تنتخب الداي بنفسها (سنة 1671) ، ولكنه فى سنة 1689 ، اصبح الانتخاب من حق الضباط .

الاحتفاظ للانكشارية وحدهم بحق شغـل منـاصب الثقة والمناصب الشرفية أو المناصب التي تدر مكاسب .

وقيمة هذا النظام تثبتها استمراريته . حيث أن هذه الادارة استمرت ثلاثة قرون على نفس الطراز ، اذا استثنينا حالات طفيفة من التغير .

والواقع أن هذا النظام عبارة عن جمهورية عسكرية ينتخب رئيسها لمدى الحياة . وهو ، بشكل مصغر ، يشـبه النظـام الـذي قـام فى الامبراطورية الرومانية بعد وفاة كمودس (Commodus)

وهذا النظام الحكومي يقوم على رئيس يتمتع بالسيادة ويحمل لقب الداي ، وعلى ديوان (أو مجلس أعلى) يشتمل على عدد غير محدود من الأعضاء الذين هم ضباط قدماء أو كانوا ولا يزالون يقودون تشكيلة عسكرية .

والديوان هو الذي ينتخب الداي ويتداول فى الأمور التي يرى الداي عرضها عليه .

تلك هي النظرية التي يقوم عليها نظام الحكم فى الجزائر . وعلى ضوء هذه المبادىء تختلف أهمية الديوان وما يتمتع به من الثقة ، باختلاف شخصية الداي وبراعته . وقد كان الديوان فى المـاضي جهـاز الدولة الحقيقي ، فكان يعقد جلسات بانتظام ويتصرف فى الأموال ، ويدعي الحق فى أن يناقش جميع الاجراءات الحكومية ويتخذ قرارات بشأنها، ولكنه الآن أصبح مجرد شبح لا حول ولا قوة له .

بل ان وجود الديوان نفسه أصبح مشكلة ، لولا أن الداي عمر باشا قد استدعاه للانعقاد فى سنة 1816 لكي يبحث موضوع المفاوضات لعقد معاهدة بين الايالة وبريطانيا .

والواقع أنه منذ أن انتقل مقر الداي الى القصبة ، يمكن اعتبار الديوان مجرد حبر على ورق فى دستور المملكة . فقد أصبح الداي هو الذي يعين وزراءه بنفسه ، وهؤلاء الوزراء ، هم : الخزنجي الذي تشمل سلطته الشؤون المالية والداخلية ، والأغا الذي هو القائد الأعلى والذي يمكن تسميته بوزير الحربية ، ووكيل الخرج ، أو وزير البحرية والشؤون الخارجية ، وخوجة الخيل ، وهو المشرف على أملاك الدولة ، وصاحب هذا المنصب لم يلبث أن زادت أهميته ، بسبب أهمية المنصب من الناحية المالية .

وهؤلاء الوزراء يشكلون مجلس وزراء الداي ، وهو الحكومة الحقيقية التي تحررت من كل سيطرة للديوان .

وانتخاب الداي ، لابد من أن يؤكده السلطان الذي يعترف الداي بسيادته ، وهذا التأكيد لم يرفض قط ، وهو يمنح مع لقب الباشا ، الذي هو اللقب المستعمل .

وأما لقب الداي ، فهو لا يكاد يلفظ فى الجزائر ، وانما يستعمله الأجانب ، والمرجح أنه كان فى مبدأ الأمر مجرد كنية ، حيث أن معناه باللغة التركية : «العم» .

ودايات الجزائر يملكون ويمارسون جميع سلطات السيادة ، عقب انتخابهم مباشرة .

وتنصيب الداي رسميا لا يقع الا بعد وصول تأكيد السلطان لانتخابه ، ووصول القبطان التقليدي وسيف الدولة . والقفطان والسيف يرسلان عادة بأسرع ما يمكن بواسطة «قبجي باشى» ، أو مبعوث الدولة .

وفى أوقات الرخاء توجه الجزائر هدية الى الباب العالي مرة فى كل ثلاث سنوات • وقد جرت العادة أن توجه هذه الهدية الى القسطنطينية مع سفير وعلى متن سفينة حربية أجنبية .

ان قوة الجزائر عظيمة فى الوقت الحاضر ، بحيث أنها تعتبر هذه البعثة ذات أهمية شرفية ، ولا تكلف بالقيام بها الا الحكومة التي تتمتع بحظوة كبيرة لديها •

والهدية دائما عظيمة القيمة وقد تبلغ ما لا يقل عن 500ر000 دولار .

وفيما عدا هذه الهدية لا تعترف الجزائر بسلطان الدولة العثمانية ، بل انه يحدث ، حينما تكون الجزائر فى نشوة القوة الوهمية ، ألا تحترم علم الدولة العثمانية ، وفى مقابل هذه الهدية ، جرى التقليد على أن يرسل الباب العالي سفينة تحمل شحنة من الذخيرة الحربية الى الداي واذنا له بأن يجند الجنود فى البلاد الخاضعة لسلطانه •

واذا كان انتخاب الداي من حيث المبدأ من اختصاص الديوان ، فان هذا الانتخاب يجري ، عادة فى جو من المؤامرات وتنتصر فيه الفئة القوية من الانكشارية • وهذا الانتخاب تصحبه دائما مأساة دامية . فان الداي يذبح لكي يترك العرش لمغامر أسعد حظا منه • وكذلك يقتل أنصاره وأصدقاؤه وتنهب أموالهم أو يبعدون • وهذه العمليات تقطع الهدوء الذي يسود البلد والشؤون العامة ، وفى ظرف أربع وعشرين ساعة ينتهي كل شيء •

وهذه الثورات تتابع بسرعة يصعب على المرء تصورها ، اذا لم يكن يعرف سلوك الأتراك وقسوتهم .

ان داي الجزائر حاكم مطلق يطيعه الجميع فى حياته ، ولكن حكمه متزعزع ، والموت الطبيعي بالنسبة اليه حادث من الحوادث الطارئة •

وأي تركي مهما كان أصله ووضعه ، بمجرد ما ينخرط فى الانكشارية، يستطيع أن يرشح نفسه لمنصب الداي ، ويستثنى من هذه القاعدة من ولد فى البشنق أو فى جزيرة كريت . وبعد ذلك ، يصبح « انكشاريا » : ذلك كل ألقابه ومؤهلاته . ولقد حدث كثيرا أن ساعد الحظ أحط الأشخاص وأسوأهم للخروج من الحالة التي كانوا فيها مغمورين ليرتقوا عرش الجزائر ، والانسان يستطيع أن يشاهد فى الجزائر قبور سبعة مغامرين أعلن انتخابهم ملوكا وقتلوا جميعا فى نفس اليوم . ولاثبات مدى حظهم من الاحتقار ، دفنوا على قارعة الطريق . والداي الذي ينتخب لا يستطيع رفض هذا الشرف ولا الاستقالة من منصبه وبالنسبة اليه ، لا يوجد فى العالم سوى مكانين : العرش ، أو القبر .

والبايات الثلاثة الذين يحكمون الولايات والذين يعينهم الداي فى مناصبهم ، يزودهم أيضا بسطوته وبسلطته الاستبدادية ، كما يلحق بكل واحد منهم وكيلا ، أو مراقبا للشؤون المالية .

وكل ولاية تفرض عليها ضريبة بمبلغ معين طبقا لمقدرتها المفترضة على دفعه ، وتتلقى وزارة المالية على قسطين ، مرة فى كل ستة أشهر ، وهذا الموضوع سأتعرض له بالتفصيل ، حينما أتحدث عن مصادر الدخل للمملكة .

ووضع الباي وضع مضطرب ومتزعزع حتما ، واستبدادهم والضغط الذي يمارسونه على الولايات الخاضعة لسلطتهم من أجل جمع الموارد المالية التي تسمح لهم بالاحتفاظ بمناصبهم ، شيء لا يوجد له ، بالتأكيد، مثيل فى تاريخ الشعوب الأخرى .

تلك هي حالة البؤس التي يعيش فيها سكان هذه المملكة ، وكل محاولة من الباي لضمان العدل أو اللين فى الولاية ، ستعتبر سعيا

لكسب رضا الشعب وحسن السمعة ، وهو أمر تدينه الحكومة المركزية وتستنكره ، والباي الذي تثبت ادانته بهذا الذنب ، كما تدل على ذلك أمثلة عديدة ، سيدفع ثمن غلطته بأمواله وحياته .

والبايات مسؤولون عن تقديم تقارير مرة فى كـل ثـلاث سنوات بالحساب القمري الى الحكومة المركزية ، ويسير الى الجزائر فى احتفال وبذخ عظيم . وعلى هذه المناسبة يتوقف استمرار عملهم وسلطانهم ، بل وحياتهم أيضا . كل شيء يتوقف على مدى استطاعتهم اشباع جشع الداي وأعضاء حكومته .

ولقد أخبرني مسؤول يتمتع بالثقة أن كل زيارة يقوم بها باي وهران وباي قسنطينة للحكومة المركزية تكلفه ما لا يقل عن 300٫000 دولار .

وبهذه المناسبة يتحتم تقديم رشوة لكل واحد من الضباط ، ولكل حسب ما يتمتع به من المكانة والنفوذ ، ولكن هذه المبالغ الاضافية لا يدفع منها شيء الى الخزينة العمومية .

والضباط فى الايالة لا يتلقون أي مرتب غير الجراية التي تقدم اليهم فى الانكشارية والتي يقدمها الباشا نفسه ببساطة بدائية . ودخل هؤلاء الضباط انما يتوقف على ما يجنيه كل واحد منهم من الامتيازات التي تتصل بمنصبه ، وعلى الرخص التي يمنحها لابتزاز الأموال فى مختلف أنواع علاقاته بالمجتمع .

والقضاء الذي يعالج الجرائم من اختصاصـات البـاشا ووزرائه ، والقتل والسرقة وقطع الطريق والاحراق بالعمد والخيانة والزنا جرائم يعاقب عليها بالموت ، والتركي يخنق سريا اذا ارتكب جريمة سياسية ، ولكنه اذا كان مرتكب هذه الجريمة من الأهالي ، فهو يشنق فى ساحة عمومية أو يقطع رأسه أو أوصاله أو يلقي به من على سور مرتفع ويتلقفه

خطاف حاد من الحديد أثناء سقوطه ليعرف أشنع أنواع العذاب قبل أن يموت .

وفى مثل هذه الحالة الاخيرة ، يبدى الجلاد شعورا انسانيا ، متى دفع له مبلغ معتبر ، ويتولى خنق الضحية قبل أن يلقى به من على السور .

ومتى كان المجرم يهوديا ، فاما أن تقطع رأسه أو يشنق أو يحرق حيا ، وأما الجنح واضرام نيران صغيرة ، فيعاقب مرتكبها بالغرامة ، أو الجلد بالسوط ، أو بالأشغال الشاقة مقيدا فى السلاسل .

ومنذ أن ألغي استرقاق المسيحيين ، أصبحت الأشغال الشاقة أكثر أنواع العقاب شيوعا ، حيث أنها توفر عملا بدون مقابل ، بدلا من العبيد ، لانجاز الأشغال العمومية .

والمبدأ المعمول به فى الجزائر ، على عكس الشائع فى مجتمعنا ، هو أنه يفضل معاقبة شخص بريء بدلا من هروب مجرم .

وطبقا لهذا المبدأ ، يقف المتهم أمام القضاة وهو فى وضع سيء للغاية، اذا عجز عن اثبات براءته بشكل لا غبار عليه ، هذا اذ الم يكن يتمتع بحماية شخص قوي النفوذ (وعلى الرغم من أن العدالة هنا تقتصر على الحد الأدنى من الشكليات والأحكام يجري تنفيذها بسرعة البرق ، فان الحظوة تسمح بوقف التنفيذ .

ووظيفة « تشو » ، أو الجلاد ، تعتبر هنا منصبا محترما ، وكل وزير فى الحكومة يلحق بمنصبه جلاد ، والجلادون يترقون ليشغلوا أعلى المناصب فى الدولة .

وكما هي الحالة فى البلدان الاسلامية الأخرى يشكل القرآن والأحكام المستخلصة منه ، القانون المدني ، ويضاف الى هذا المصدر

العادات المتبعة والسوابق العدلية ، ولقد أصبح من الثابت ومن العرف الذي لا يحيد عنه الأتراك ، أن ما سبق الحكم به أصبحت له قوة القانون .

ولادارة القضاء المدني فى جميع حكومات ولايات الايالة ، يعين قاضي تركي وآخر عربي ، وكلاهما يعقد جلسات يومية للحكم فى القضايا التي تعرض عليه ، وذلك فيما عدا يوم الجمعة .

والأطراف فى النزاع يقومون بالمرافعة والدفاع عن قضاياهم بأنفسهم ، وبدون مساعدة محامين (وهذا البلد لا يوجد فيه محامون) . وبعد المرافعة مباشرة يصدر القاضي حكمه .

والمفروض أن هؤلاء القضاة لا يترفعون دائما عن تأثير الرشوة والنفوذ . ولكن النفوذ لا يمارس على القاضي الا فى الحالات التي لها أهمية خاصة . وفى هذه الحالة يحق للطرف الذي يعتبر نفسه مظلوما أن يستأنف الحكم ويرفع قضيته أمام المفتي الذي يعتبر حكمه نهائيا .

والمفتي (يوجد مفتي حنفي تركي ، ومفتي مالكي عربي) يعقد جلسات للنظر فى القضايا مرتين فى أسبوع . وهذه المحاكم متساوية فى اختصاصاتها ، ولكنه فى حالات القضايا المختلطة ، يتمتع التركي دائما بحق رفع قضيته أمام القاضي التركي ويستأنف أمام المفتي الحنفي التركي .

ومحكمة القاضي (حينما تشتمل على العدد الكافي من العدول والخوجات) هي التي تتولى أيضا مختلف أنواع العقود .

وفى الحالات التجارية والبحرية التي تحيط بها ظروف معقدة ، يستدعي قناصل الدول الأجنبية الى الديوان لاستشارتهم بشأنها .

وأما تكاليف القضاء ، فهي متواضعة جدا فى جملتها . ويبدو أن الحكومة مصممة على نيتها فى أن يكون العدل من حق الجميع فى كل الحالات . ان هذا ، بالتأكيد ، هو الاعتقاد السائد هنا . وهذا الاعتبار . مضافا اليه الاختصار فى المرافعة وسرعة تنفيذ الأحكام . لها تأثير كبير على استقرار الأمن وما ينجم عنه من الطمأنينية فى الجزائر .

كان من الضروري فى الماضي أن يحصل الانسان على شهادة علمية من مدارس القسطنطينية أو مدارس القاهرة الكبيرة لكي يمكنه شغل منصب القاضي أو المفتي . ولكن الأتراك الذين يتوصلون الى أرفع المناصب فى الدولة دون أن يعرفوا مباديء القراءة والكتابة ، قد انتهوا ، بطبيعة الحال ، الى نتيجة ، وهي أن كل رجل عاقل يستطيع قراءة القرآن ، يمكنه أن يشغل منصب القاضي عن جدارة .

والمفتي عبارة عن موظف خاضع فى الحكومة الجزائرية وليس له أية سلطة سياسية من أي نوع كان .

والمنصب الخطير الشأن فى الحكومة الجزائرية هو ذلك الذي يعالج شؤون الميراث . فان صاحب هذا المنصب يدفع الى بيت المال مبلغا يتجاوز بثلثين المبلغ المفروض دفعه على الباي . ومركزه يأتي بعد منصب الوزير مباشرة .

وصاحب هذا المنصب يرث بحكم منصبه جميع الأشخاص الذين يتوفون دون أن يتركوا أوصية ، أو الأشخاص الذين لا وارث لهم . وسلطته تمتد على جميع أراضي المملكة . وسلطة هذا القاضي تبعث الرعب فى النفوس بحق . وقد جرت العادة فى هذا البلد أن يقوم الأشخاص الذين يريدون التهرب من سطوته بوقف أملاكهم على الحرمين الشريفين ، متى لم يكن لديهم وارث شرعي . وهذا الترتيب يحرم بيت المال من أي قسط من التركة .

وللأشراف على ريع هذه الأوقاف ، تحتفظ الأماكن المقدسة بوكيل لها فى الجزائر ، هو الذي يتولى جمع الدخل منها .

والمعتقد أنه يوجد سجل عقاري دقيق يشمل جميع أراضي المملكة الخاضعة مباشرة للحكومة . ولكن الحجز الذي يقع يوميا ، وبطريقة تعسفية ، يزيد باستمرار من رقعة أملاك الدولة بحيث أصبحت واسعة جدا . والاراضي غير التابعة لاحدى المدن الكبيرة ليس لها سوى قيمة ضئيلة . والزراعة والتجارة فى هذا البلد تعاني من تدهور شديد بسبب الحظر المفروض على تصدير مختلف أنواع المنتجات (باستثناء بعض المنتجات التي ينصب عليها الاحتكار، وهو موضوع سنعالجه فيما بعد). والأتراك الذين يحكمون هذا البلد والذين يعملون بوحي من الأنانية الضيقة ، يشعرون بالغيرة من كل شخص ينال حظا من الرخاء دون أن يكون ذلك تحت سيطرتهم مباشرة .

ان الأتراك محقون بدون شك فى نظرتهم هــذه الى الأمور . لأنه لو وجدت الزراعة والتجارة تشجيعا ، لنجــم عن ذلك تدفق الثروة والفوائد الطبيعية . ومع هذه الثروة سيزداد حظ البلد من الحضارة وعدد سكان البلد أيضا ـــ الأمر الذي سيصبح من الصعب معه على حفنة من المغامرين الأجانب حكم البلد بالطريقة التعسفية التي يحكمونه بها الآن .

ان المباديء الأساسية التي تقوم عليها حكومة الجزائر تتسم بصفات غريبة . واذا استثنينا حكم الممالك لمصر ، فأنا لا أعرف مثـالا لهذه الحكومة فى التاريخ الحديث :

ان عصابة من المغامرين الأجانب قد استولت عــلى سلطة السيادة واستحوذت لنفسها وحدها على جميع الوظائف الحكومية وعلى جميع

مصادر الربح والثروة تحت اشراف الحكومة التي يشكلونها هـم ، أنفسهم وهذا النوع من الحكم توجد له أمثلة ، وأما أن تحرم مؤسساتهم حتى الأطفال الذين يولدون لهم فى البلد أي حظ من الاعتبار والشرف والمال والثقة ، ويبقى كل ذلك وقفا على المغامرين الذين يجندون فى الخارج ، فهذا هو الشيء الغريب حقا .

ومع ذلك ، فان هذه هي المباديء الأساسية التي يقوم عليها نظام الحكم فى الجزائر ، هذا اذا استثنينا أمورا صغيرة علمتهم التجارب فيما بعد أنها ضروريــة .

ومن الغريب أن أعضاء هذه العصابة يعترفون بأنه لا يوجد وطن لهم غير الجزائر ، حيث يريدون أن يستقروا ويتركوا ذرية لهم .

والواقع أن الامبراطورية العثمانية نفسها لا يخلو تنظيمها الاداري والسياسي والعسكري من كثير من مثل هذه المظاهر الغريبة التي نمت ، بدون شك ، نتيجة لفتوحاتها ولغطرستها القومية على الشعوب الأخرى وللتعصب الديني .

ووجود الأتراك ، حيثما وجدوا ، هو أشبه ما يكون بمعسكر بربري منه بدولة قائمة على قواعد سليمة . ومن هذه الزاوية تعتبر حكومـة الأتراك فى الجزائر نموذجا لحكم الشعوب الأخرى التي تنضوي تحت هذه الامبراطورية .

والجيش التركي المرابط فى الجزائر ، قلما كان فى الآونة الأخيرة يتجاوز خمسة آلاف جندي وضابط . وهو فى الوقت الحاضر قد هبط عدده ، لأسباب معينة ، الى أربعة آلاف .

وهؤلاء الجنود والضباط ، هم وحدهم الذين يتمتعون بالحق لشغل المناصب الرفيعة فى الحكومة ، ولتولي المهام الشرفية أو المريحة ، وذلك

فيما عدا البحرية ، حيث تتاح الفرصة للجزائري ، اذا أبدا كفاءة ، لأن يرقى الى أعلى الرتب العسكرية ، ولو أنه لا حق لهم فى شغل أية وظيفة مدنية فى الأسطول .

والرايس حميدو الذي قتل فى معركة حينما أسر الكمودور ديكاتور سفينتــه فى شهــر يــوليــو ، سنــة 1815 ، كــان ينتمي الى قبيلة تسكن فى الجبال الداخلية ، وقد ارتقى الى مركز القيادة بسبب ما كان يتمتع به من الذكاء الحاد والشجاعة الخارقة .

وفى بعض الحالات يخلف أبناء البايات آباءهم على رأس حكومة الولاية . وفى بعض الحالات أيضــا عين الكلوغليون (3) فى منصب « القايد » فى الادارة ، ولكن الأرجح هو أن هذه الحالات كانت نتيجة للرشوة ، لأن هذه التعيينات تتناقض مع قواعد الحكم التركي .

وقد كان باي وهران واحدا من هذه الحالات . ولكن ذكرى الثورة التي قام بها حيث وصلت جيوشه الى مكان لا يبعد عن الجزائر الا بثلاثة فراسخ ، فى سنة 1814 ، سوف تبقى عالقة بالأذهان ، والمرجح أنه لن يسمح بتكرارها فى المستقبل .

والجيش التركي فى الجزائر يحتفظ بكيانه بتجنيد الجنود فى الشرق . ومعظم الذين يقبلــون الانخراط فى سلــك الانكشارية مــن الأشرار الذين يخرجون من السجون وينتمــون الــى أحط الطبقات الاجتماعية فى تلك البلاد

وحكومة الجزائر تحتفظ بوكلاء لها فى القسطنطينية وفى أزمير ، مهمتهم جمع الجنود وتجنيدهم واستئجار السفن لنقلهم الى الجزائر .

---

3 - هو الشخص المولود فى افريقية من أب تركي وأم من الاهالي .

ولدى وصولهم الى البلد يصبحون بحكم الأمر الواقـع جنودا فى الجيش ويحمل كل واحد منهم لقب « انكشاري » ويوزعون على مختلف ثكنات المدينة حيث يفترض أن يبقوا مدى الحياة ، وذلك بغض النظر عن الحظوظ التي يخبئوها الغد لكل واحد منهم .

وفى هذه الثكنات يترقون (اذا لم يسعفهم الحظ السعيد لشغل مناصب ادارية) وتزداد مرتباتهم على أساس الأقدمية حتى يصلوا الى أعلى الدرجات العسكرية ، ويصبحوا أعضاء فى الديوان . وهناك ، لابد وأن يكون العضو بليدا حقا ، اذا لم يحصل على منصب يدر عليه المال الوفير .

والمرتب الذي يتقاضاه الانكشاري ، عقب انخراطه فى سلك الجندية ضئيـل ولا يكـاد يتجـاوز نصـف دولار فى الشهـر . ولكن هذا المبلغ يزداد بالأقدمية تدريجيا حتى يصل الى ثمانية دولارات فى الشهر ، وهو الحد الأعلى لمرتبات الانكشارية .

على أنه أصبح من المعتاد فى الأعوام الأخيرة أ نيزيد الداي مرتبات الانكشارية لكي يزيد من شعبيتهم .

والجيش الذي يتكون على هذا المنوال ، يكون ــ بالطبع ــ عرضة لزعازع الثورة .

وجراية الانكشاري هي حوالي رطلين من الخبـز العادي يوميا . والعزاب منهم يسكنون فى غرف فسيحة ملائمة . والحكومة تقـــوم بتزويدهم فى مرحلة تالية لوصولهم بالكسوة والسلاح والذخيرة بأسعار زهيدة .

والانكشاري الذي يتسلح ويكون مستعدا لخـوض معركة يحمل مسدسا أو مسدسين كبيرين فى حزامه و « يتجـانا » وخنجرا عـلى صدره ، وبندقية طويلة على كتفه . وجميع هذه الأسلحة مزينة بالزخاريف

الشرقية الرفيعة بقدر ما تسمح به ظروفه الخاصة وثروته . واذا أضفنا بذلته العسكرية الى كل ما تقدم ، يمكننا بحق أن نقارن الانكشاري بالصبي فى ورق اللعب !

والأتراك المقيمون فى الجزائر كلهم أساسيا من الجنود ، ولكنه توجد فئة منهم ، أو طبقة من المدنيين الذين يسمون الواحد منهم « خوجة » ، أو الكاتب . وهم ممن يعرفون القراءة والكتابة ، أو على الأقل ، قادرون على معرفة القراءة والكتابة . وهذه الفئة تتمتع بامتيازات كبيرة وتوفر كتاب الادارة الحكومية .

والأتراك شعب بسيط حذر ولهم نفس الفضائل والرذائل التي نجدها فى دولتهم نصف المتحضرة . وهم ، فى العادة جديرون بالثقة فى كلمتهم . كما أنهم يتصفون بالأدب واللياقة والانسانية فى معاملاتهم اليومية . ولكنهم حين يجدون أنفسهم فى الحياة السياسية يكتشفون فى أنفسهم وحشية نادرة .

العراك بين الأتراك محرم ويتعرض المتعاركون لأقسى أنواع العقوبات، واذا كان تسلط القوى على الضعيف أمرا شائعا كما هو فى بلدان أخرى ، فانا ، مع ذلك لم أسمع باهانة تركي لتركي علانية .

وأحط الأتراك قدرا وأوضعهم شأنا يرفض باحتقار أية فكرة للمساواة بينه وبين الأهالي . والنظرية التي تعلمها الأتراك جيلا عن جيل والقائلة بأن التركي ولد ليحكم ويتولى عجلة القيادة والجزائري والأهلي ليخضع ، فقدت مع الوقت بعض ما تنطوي عليه من الدناءة ، ولم تعد الآن سوى مبدا سياسي عام .

والجنود الأتراك الشبان يلازمون ثكناتهم ولا يسمح لهم بالخروج الى المدينة الا فى يوم الخميس ، وتحت مراقبة حارس يكون مسؤولا

عن سلوكهم ، وذلك حتى تنمو لحاهم . وحينئذ يسمح لهـم بلبس الطربوش والاختلاط بالناس على مسؤوليتهم .

واذا كان الأتراك يراعون حســن السلوك ويحترمون تعاليم الدين التزاما بمبدا سياسي حسن ، فان التجربة أثبتت أن هذا لا يمنعهم من التحلل أحيانا والميل الى المجون الذي يميز الجنود فى كل مكان . وتبعا لذلك ، فان الحكومة تسمح بفتح المواخر التي يديرها اليهود لتسلية الشبان الأتراك . وهناك يسمح لهم بتناول الخمور والحكول بدون قيد ، بشرط ألا تقع فضائح مشينه أمام الجماهير . وكل تجاوز عن هذا الشرط ، يعرض صاحبه لأقسى العقوبات .

والواقع أن الحياة المفروضة على الانكشاري حياة مملة وتبعث على الضيق ، ومن ثم ، فان كثيرا ممن لا يرتبطون بعلاقات الزواج فى البلد ، وليس لديهم وظائف تــدر عليهم المال يهربون من هــذه الحياة متى استطاعوا ذلك .

وكل ما من شأنه أن لا يؤدي الى تعكير الهدوء السياسي ويسمح فى نفس الوقت بانعاش كبرياء الانكشاري وزهوه تطبقه الحكومة بدون تردد . والتركي فى كل مكان له الأولوية ومكان السبق على الأهلي الجزائري . والجزائري يتنحى بكل خنوع أمام التركي ، متى لقيه فى الطريق العمومي .

والأتراك تعلموا منذ أجيال عديدة أن من حقهم الدخول الى الحدائق العمومية التي توجد فى ضواحي مدينة الجزائر لقطف الثمار والأزهار ولتزويد أنفسهم بما يريدون من الخضروات بدون حساب ولا رقيب . وهذا الحــق لا يترددون قط فى ممارسته الى أقصى حد . بل انهم يتجاوزون الحدائق العمومية لينهبوا حدائق قناصل الدول آيضا .

وعقب عقـد معاهدة الصلح (بين الجزائر والولايات المتحدة) في سنة 1815 ، عرضت على الداي عمر باشا الذي كان حاكم البلد حينئذ صورة لوضاعة هذه التصرفات المشينة ، وأكدت له أن وقوع مثل هذه الاعتداءات على قنصلية الولايات المتحدة ، سوف يعتبر اهانة قومية ويعامل على هذا الأساس .

وكذلك منع هذا التعدي تدريجيا فيما يتعلق بممتلكات القنصليات : ولكن الانكشارية ظلت مبعث الرعب كما كانت دائما ، في نفوس الأهالي ملاك الحدائق في ضواحي مدينة الجزائر .

يمتاز الأتراك بقوة أجسامهم وجمال أشكالهم . والامتيازات التي تتمتع بها طائفتهم وآمالهم في الحصول على مناصب عالية في الدولة ، تتيح لهم فرصا نادرة للمصاهرة والزواج في البلد . وهذا الاختلاط في العرق نجم عنه تحسن ملحـوظ في هذا الجنس ، وذلك فيما يتعلق بالخصائص الجسمية والأخلاقية معا .

والمعتقد أن عدد الكلوغليين الذين ينحدرون من أصل تركي يبلغ في البلد نحو عشرين ألفا . والكلوغليون لا يتمتعون بحقوق أكثر مما يتمتع به الجزائريون فيما يتعلق بالمناصب في الدولة ، ولكنه يمكنهم الترقي في البحرية ، كما يمكنهم الوصول الى منصب « القائد » والباي، وهـم لا يزالون حتى الآن يتمتعون بالاذن بلبس الملابس المطرزة بالذهب ، كما يتمتعون بامتيازات مماثلة لا قيمة لها ، ولكنه لا تربطهم أية علاقة بالأتراك ، وقد رفضهم الجنس التركي رفضا قاطعا واعتبرهم من جنس السكان الجزائريين .

والأتراك يقومون بالخدمة العسكرية بالتناوب ، الأمر الذي يتيح للواحد منهم الدخول في الوظيف العمومي الذي يشعرون جميعا أنهم خلقوا له ، دون أن يفقدوا بذلك أي حق من حقوقهم . ولكنه يتحتم

على التركي أن يكون دائما مستعدا لخدمة الدولة كلما دعت الحاجة اليه .

وحظوظ الأتراك الذين يبقون بعيدين عن الحياة السياسية أكثر استقرارا من حظوظ أولئك الذين تدفعهم المطامع الى كسب الثروة والجاه . وهي مزايا يتعرض صاحبها دائما للخطر .

والمؤكد أن الأتراك متمسكون بالولاء لحكومتهم تمسكا تشبه فى آثاره شعور الوطنية . وهذا الشعور تغذيه وتشحذه التغييرات والثورات المتوالية فى الحكومة والادارة ، وعجلة الحظوظ فى هذا البلد تدور كثيرا بحيث يبدو أنها تضمن لكل واحد من الأتراك فرصة للحصول على الثروة والجاه يوما ما فى حياته .

وفيما يلي حكاية تصلح لأن تكون تعليقا عن فكرتي هذه :

فى الصيف الأول الذي حللت فيه بالجزائر ، حضر الي شيخ تركي وقدم نفسه بلقب « الرايس » ، أو ربان سفينة ، وقال لي انه قام برحلة مع الكمودور بينبريدج من الجزائر ، الى القسطنطينية بوصفه عضوا فى وفد جزائري كلف هذا الضابط بنقله على متن بارجته الى تركيا . وقد ترك فى نفسي انطباعا بأنه يهتم كثيرا بالكمودور ، ولذلك اعتقدت أن الهدف لزيارته هو السؤال عن صحة هذا الضابط الأمريكي وعن المنصب الذي يشغله وللحصول على غير ذلك من أخباره . ولكنه قبل أن يغادر القنصلية أخبرني أنه بغير عمل وأنه فقير جدا . وقد انتهى به الأمر أن طلب الي أن أقرضه دولارا واحدا ، واستجبت لطلبه ثم ألححت عليه فى أن يعود الي كلما واجه ضائقة ، وأكدت له أنني سوف لا أتأخر عن مساعدته بقدر ما تسمح به وسائلي .

وهذا الشيخ أتيح لي أن أقابله بعد ذلك عدة مرات فى المناسبات الرسمية ، وفى كل مرة يتقدم الي فى استحياء ويعرض علي علبة سعوطه، ولكنه كان دائما يقف بعيدا عن الشخصيات التي أقوم بزيارتها .

وبعد ذلك ببضع سنوات عين هذا الشيخ فى منصب الخزنجي ، أو رئيس الوزارة ــ وهو المنصب الذي يشغله حتى الآن ، وقد بلغ سن التسعين ، وأما مرتبه السنوي فى هذا المنصب ، فيبلغ 50،000 دولار .

ان شخصية التركي الذي يتصف بقوة الرجول وما تتسم به حكومة الأتراك فى الجزائر من البأس والشدة ، عوامل كان لها أثر حسن فى تربية الأهالي الذين لا يزالون حتى الآن كما وصفهم سالوست (Saluste) بأنهم متقلبون وقليلو الحظ من الجد .

والأتراك حينما أقاموا حكومة فى الجزائر كانوا يعتمدون على القرصنة لتكون المورد الأساسي لحكومتهم ، وهذه الحسابات ساعدها وراء ما كان يحلم به الأتراك ضعف الدول المسيحية البحرية وغباؤها وسياسة التنافس التي تنتهجها كل منها تجاه الأخرى .

فان هذه الدول قد أمدت الأتراك بما يرضي حاجاتهم حتى سنة 1815 ، وزيادة على ذلك ، فقد جمعت الجزائر كنوزا من الذهب والفضة يمكن أن تعيش عليها بضع سنوات بعد الآن .

ولكنه ابتداء من ذلك التاريخ لم تعد تلك الحكومة تجني أية أرباح من النهب والسلب فى عرض البحار ، وكذلك يمكن اعتبار المداخل والنفقات الواردة فى القائمة أسفله هي متوسط الميزانية السنوية فى الفترة التي تمتد بين 1815 و 1822 .

والضرائب الداخلية تجبى على أساس ما ينص عنه القرآن (الزكاة) ، ومتى تمت الجباية بحسن نية واخلاص ، يكون العبء خفيفا وتوفر

فى نفس الوقت ، موردا كبيرا للدولة . ولكن الحكومة التركية فى الجزائر تتسم بجميع الرذائل التي تلازم شركة تجارية كبيرة ولا تتمتع بأية مزية من مزاياها ، فان الاعتبار الذي له المكان الأول فى نظر الحاكم التركي ، هي ثروته الشخصية ، ومما يزيد هذا الشعور حدة فى نفسه ما يشاهده من الترف والبذخ فى الدوائر الحكومية وعدم تأكده من الحصول على لقب يضمن له مكانته .

والبايات وحكام الأقاليم ، هم المسؤولون عن جمع الضرائب ، وبواسطة أعوانهم من العساكر والشرطة ، يستحوذون على كل ما يقع تحت أنظارهم من أموال الشعب وهذا الظلم الذي لا يطاق جعل الناس يهجرون البلد ويتركون السهول الخصبة ليلجأوا الى الجبال ويسكنوا قمما لا سبيل الى وصول الأتراك وأعوانهم اليها ، أو الى أطراف الصحراء ، وهذه الحالة ستؤدي ، حتما ، الى القضاء على هذه المؤسسة « الشرعية » ، واذا لم يقرر الحلف المقدس بحكمته مساعدة هؤلاء الناس ، فسوف يصبحون قبل أن يمضي وقت طويل شوكة فى جنب الحضارة .

حساب الدخل والخرج للخزينة فى سنة 1822
بالدولار الاسباني

	دولار
من باي وهران (الضرائب المقدرة على الولاية)	60000
من نفس المصدر (الضرائب على صادرات وهران)	15000
من باي قسنطينة (الضرائب المقدرة على الولاية)	60000
من 7 قياد تابعين للحكومة المركزية	16000
من قاضي المواريث (الضرائب المقدرة)	40000

	دولار
من شيوخ البلاد (الضرائب المقدرة)	3000
من باي تيطري (الضرائب المقدرة على الولايه)	4000
من خوجة الجلود (الضرائب المقدرة على هذه المصلحة)	4000
من خوجة مصلحة الجمارك	800
من الطائفة اليهودية (الضرائب المقدرة عليها)	6000
من مصلحة الجمارك للاستيراد	20000
من ايجار الأملاك الحكومية فى مدينة الجزائر	40000
من الحكومة الفرنسية فى مقابل احتكار صيد المرجان فى عنابة	30000
من احتكار الشمع والصوف والجلود	40000
ضريبة سنوية من ملك نابلي	24000
ضريبة سنوية من ملك السويد	24000
ضريبة سنوية من ملك الدانمارك	24000
ضريبة سنوية من ملك البرتغال	42000
المجمـــــوع	434800

وبالاضافة الى ما تقدم تتلقى حكومة الايالة أيضا ضريبة سنوية من شيوخ العرب مبلغ 200000 كيل من القمح ومن باي قسنطينة وباي وهران 10000 كيل من الشعير لكل واحد منهما تستعمل لتغدية رجال البحرية والجيش والعمال فى القطاع الحكومي .

حساب الخرج فى الايالة فى سنة 1822

	دولار
النفقات السنوية على العمال والفنانين وعمال الميناء	24000
النفقات السنوية لشراء الخشب والحبال ولوازم البحرية	60000

النفقات السنوية لمرتبات الضباط والبحارة	75000
النفقات السنوية لمرتبات العسكريين من جميع الطبقات	700000
المجمـــــــــــوع	859000

وهذا يعني عجزا فى الميزانية السنوية مقداره 424،200 دولار.

وهذه الأرقام استقيتها من رجل ثقة مطلع على السجلات الرسمية .

وجيش الحكومة التركية فى الجزائر يتكون من خمسة عشر ألف جندي وضابط ، من الأتراك والكلوغليين والعــرب . والعنصر الأول والثاني ، يشكلان جيش المشاة ، بينما يشكل العرب الخيالة .

وهذا الجيش موزع على الحاميات أو فى معسكرات متنقلة فى عاصمة المملكة وفى مختلف أطرافها ، والجيش يستعمل لحفظ وجمع الضرائب للحكومة .

ومعظم هذا الجيش يتكون من المجندين الأتراك والكلوغليين الذين يقومون بالخدمة العسكرية بالتناوب ، لا يوجد فيه ما يمكن وصفه بالنظام والطاعة العسكرية ، وعلى الجملة . يمكن وصفه بأنه تنقصه الفعالية كلية .

والانكشارية يلازمون الثكنات التي يوضعون فيها عقب وصولهم . وهناك يترقون الى مختلف الرتب العسكرية بالأقدمية ويتولون قيادة الوحدات أو الكتائب ، وهذا الترتيب هو مظهر النظام الوحيد الذي اكتشفته فى هذا الجيش .

والبحرية الجزائرية كانت فى الماضي تتكون من عدد من السفن ذات المجاديف والسفن الثلاثية الصواري ، ولكنه فى العصور الأخيرة أعيد تشكيلها عقب التحسينات التي أدخلها الأروبيون على بناء السفن وعلى

فن الحرب فى البحر ، وذلك بعناية بعض الدول الأروبية التي كـانت تحتفظ بعدد من بناة السفن والمهندسين .

وقبل معاهدة الصلح (الجزائرية الأمريكية) التي عقدت فى يونيو 1815 ، كانت الجزائر تملك أربعة بوارج تتراوح قوتها بين 44 و 50 مدفعا ، وأخرى قوتها 38 مدفعا ، وسلوب (مركب ذو صارية واحدة) حربي مزود بثلاثين مدفعا ، وآخر بستة وعشرين مدفعا ، وآخر باثنين وعشرين مدفعا ، وواحد آخر مسلح بعشرين مدفعا وسفينة ذات صاريتين مسلحة بعشرين مدفعا ، وسفينة ذات مجاديف مسلحة بخمسة مدافع ، وذلك بالاضافة الى ثلاثين زورقا حربيا .

ولكن هذه السفن حطمتها الأساطيل البريطانية والهـولنـدية أثناء المعركة البحرية التي جرت فى أغسطس ، سنة 1816 .

على أن الجزائريين تمكنوا بعد ذلك من اعادة تكوين أسطولهم بشراء بعض السفن أو ببناء سفن أو بالسفن الحربية التي قدمها اليهم الباب العالي وسلطان المغرب الأقصى وباشا طرابلس ، وبذلك أصبح الأسطول الجزائري قويا وفعالا بحيث يستطيع القيام بكل مهمة يكلف بها .

ونظرا لأن عدد قطع الأسطول الجزائري يختلف بين الحين والحين ، فسنخصص لحاله فقرة فى آخر هذا الفصل .

ودار صناعة السفن فى الجزائر تتلقى كميات مهمة من الخشب وجميع المواد الضرورية لبناء السفن وتجهيزها وتسليحها . وأحواض السفن الجزائرية كاملة التجهيز لاصلاح السفن الحربية بجميع أنواعها وأحجامها، من البارجة فنازلا .

والحكومة الجزائرية تستخدم فى أسطولها بصفة دائمـة نحو ثلاثة آلاف بحار ، ولكنه فى امكانها ، عند الضرورة ، رفع هذا العدد الى ستة آلاف رجل .

والسفن الجزائرية التي تعتبر سفنا حربية لا تستحق أي اهتمام ، وبحارتها يجهلون طرق المناورة فى المعارك البحرية ، وأما روح الجرأة الخارقة التي تعزى اليهم ، فهي انما خلقتها مؤامرات الدول الأوروبية وجشعها ، ومع ذلك ، فان مقدرة الجزائريين على تجهيز الأساطيل وتسليحها للقتال لا تفوقها مقدرة أي شعب آخر فى العالم ، والبارجة الجزائرية الكبيرة تنقل على متنها 500 بحارا وضابطا ، مائة منهم من الأتراك الذين تتكون منهم هيئة الضباط ، وهذه النسبة على وجه التقريب ، يحتفظ بها فى تجهيز السفن الحربية التي هي أصغر من البارجة .

تلك هي حالة الأسطول الجزائري الذي يتمتع بشهرة عظيمة تردد صداها أغاني الشعراء ، ويرتعد من ذكره الأطفال والعجائز ، والذي تسبب فى اهانة كثير من الدول .

والقارىء قد يندهش كيف سمح لدولة ذات قوة لا قيمة لها أن نعرقل التجارة وتفرض ضرائب لا تقبل المناقشة ، مدة طويلة ، وهو قد يتعجب كيف أن الدول البحرية الأروبية قد ذهبت الى أطراف العالم وتكبدت تضحيات كبيرة فى المال والرجال لتكون هناك مستعمرات ، فى الوقت الذي تستحوذ فيه حفنة من القراصنة المغامرين على أجمل بقعة فى العالم وتفرض عليهم شروطا هي أقرب الى التبعية التي يفرضها ملك قوي على أمير صغير .

والجزائريون الذين يقوم نظامهم السياسي على القرصنة يمنحون لأنفسهم حق اعلان الحرب على كل دولة مسيحية لا تشتري رضاهم بمعاهدة صلح ، هذا الموضوع سنعالجه فى غضون الفصول التالية بالتفصيل . وأما الآن فيكفي أن نلاحظ عابرين أن بريطانيا وفرنسا

وهولندا والولايات المتحدة وسردانية قد قاومت كل واحدة منها في أوقات مختلفة ادعاءات الايالة فى هذا السياق ، وأن علاقاتها مع الجزائر فى الوقت الحاضر تنظمها معاهدات منفصلة لا تدفع فى مقابلها أي مبلغ من المال على سبيل الضريبة ، وكذلك كانت أسبانيا فى نفس الحالة حتى وقت متأخر ، ولكن هذا البلد قد دخل الآن فيما يشبه الحرب مع الجزائر .

والامبراطورية الروسية ، مثل النمسا ، تعتبر الجزائر ولاية من ولايات الامبراطورية العثمانية ، وتحمل الباب العالي مسؤولية منع أعمال العدوان على السفن التي تحمل أعلام البلدين .

وأما السويد والدانمارك والبرتغال ونابلي . فهي تدفع للجزائر ضريبة سنوية ، وكذلك اشترت دوقية توسكان السلام من الجزائر بمبلغ من المال دفعته مرة واحدة .

والسبب فى حصول الدوقية على شروط بينة من الجزائر فى مقابل السلام الدائم ، هو أن الايالة تجني فوائد من حرية المواصلات مع ميناء لاجورن حيث ترسل سفنها للاصلاح .

وأما بقية الدول المسيحية ، فان الجزائر تعتبر نفسها فى حرب معها .

والدول التي تربطها معاهدات بالجزائر تحتفظ بعلاقات ديبلوماسية معها ويمثلها وكلاء فى الايالة يطلق عليهم لقب «القنصل العام» ، وهؤلاء القناصل يتمتعون عادة بنفس الحقوق والامتيازات والحصانة التي يعترف بها الباب العالي للوزراء المفوضين فى القسطنطينية ، وذلك باستثناء حق اللجوء السياسي الذي لم تعترف به الجزائر قط ، ولو أنه وجد بطريقة مشكوك فيها فى بعض المناسبات .

وجريا على تقليد شرقي قديم ، فان القنصل عندما يقدم أوراق اعتماد في الجزائر ، يقدم أيضا هدية الى الداي والى كبار الضباط في الايالة ، وهذه العادة كانت في مبدأ الأمر ، بدون شك ، مجرد مبادرة للمجاملة والاعراب عن التقدير ، ولكن مرور الزمن وتضعضع أحوال الدول تقدم الى أصحابها لا تثير في نفوسهم أي شعور بالرضا ، بل على 17,000 دولا .

وقبل أن يمنح القنصل الاذن بالنزول من السفينة التي تقله ، يجري تحقيق حول ما اذا كان يحمل معه الهدية التقليدية ، وهذه الهدايا حينما تقدم الى أصحابها لا تثير في نفوسهم أي شعور بالرضا ، بل على العكس ، فكثيرا ما تعاد الهدايا الى القنصل باعتبارها غير كافية ، وعقب ذلك يدخل المهدي والمهدي اليه في مفاوضات في الموضوع تنتهي عادة في صالح الأخير .

وباختصار ، فان الهدايا التي يقدمها القنصل في الجزائر لدى تقديم أوراق اعتماده ، لم تعد تتسم بطابع منحة ودية ، بل ان الأمر ذهب بولاة الأمور الى حد المطالبة ، بحجة أن القناصل لا يتغيرون في وقت قصير ، بدفع الهدية مرة في كل سنتين . وهذا الادعاء استجابت له الدول التي تدفع الضرائب للجزائر .

وكذلك أصبحت هذه الهدية تسمى الآن ، « هدية السنتين » . وفي حالات معينة ، دفعت الهدية القنصلية وهدية السنتين باعتبارهما دينان أحدهما مستقل عن الآخر .

وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت تغير قناصلها كثيرا ، بناء على شكوى سلطات الايالة ، فقد كانت تقتصد في الهدايا التي قلما زادت على المبالغ السنوية التي تدفعها الدول البحرية التي ترتبط بمعاهدات مع الجزائر .

ولكن فرنسا وأسبانيا ، بحجة ابراز عظمة ملوكها كثيرا ما تدفع الهدية القنصلية ضعفين أو ثلاثة وأربعة أضعاف .

وعندما يرسو أسطول أو سفينة حربية فى مرسى الجزائر ، تطلق المدافع واحدة وعشرين طلقة على سبيل التحية ، وعقب ذلك ، يقوم الأسطول أو السفينة الحربية برد التحية بعدد مماثل من الطلقات ، ومتى نزل قائد الأسطول أو السفينة الى البر ، تطلق المدافع أيضا خمس طلقات تحية له ، وهذه التحية تكرر عندما يرحل نهائيا .

ومتى نزل القنصل الى البر تطلق المدافع خمس طلقات تحية له ، ونفس التحية تؤدي له عندما يغادر البلاد ويرحل عنه نهائيا .

ومتى استمرت اقامة أسطول أو سفينة حربية فى الميناء ثلاثة أيام ، أرسلت السلطات اليها هدية ، وهي عبارة عن عجول ودجاج وخبز وفواكه وخضر ، وبعد ذلك ، يدفع قنصل الدولة التي يتبعها الأسطول، أو السفينة ، 40 دولار للتحية ومبلغ 14 دولار فى مقابل الهدية .

والمظاهر الخارجية للحكومة الجزائرية تتسم ببساطة ونبل مؤثر ، تبين بوضوح طبيعة ادعاءاتها ، فان الباشا يجلس على عرشه ويستقبل ضباطه وأعوانه بدون تمييز ومنذ الصباح المبكر ، عقب صلاة الصبح ، يقدمون اليه تقاريرهم ويتلقون أوامره .

وعندما ينهض الباشا للخروج من قاعة الاستقبال ، يقابله الجميع باحناء رؤوسهم الى الأرض وترتفع أصواتهم بالعبارة التالية : « ليحفظ الله ملكنا ! » ، وبعد ذلك يمر الباشا أمام مختلف الصفوف الواقفة على طريقه بانتظام ويتحول اليهم ببطء ، واضعا يده على قلبه ويرد التحية بمثلها ، وتنحني الصفوف مرة ثانية لترتفع الأصوات من جديد : « ليحفظ الله ملكنا ! » .

وهذه هي المناسبة التي يستغلها الثوار لخلع الداي في الجزائر ، ففي الوقت الذي يغادر فيه الباشا قاعة العـرش ، ينقض عليه المتـآمرون ويستحوذون على شخصه ماسكين بحزامه ، ويذبحونه في عين المكان ، أو ينقلونه الى مكان آخر ليخنقوه بعيدا عن الأنظار .

وعقب ذلك مباشرة يجلس خلفه على العرش في مكانه .

وعيد الفطر الذي يتوج شهر الصيام عند المسلمين ، مثـل عيـد الأضحى الذي يأتي بعده بشهرين وعشرة أيام (4) ، مناسبة جليلة تعلنها طلقات المدافع المدوية ويطلق المسلمون فيها العنان للفرح والسرور .

وفي هذه المناسبة تجري ألعاب شعبية وتصفف مـوائد الطعام في القصر وفي كل مكان . ان كل شيء يدل على السرور والحبـور والاحتفال .

وفي هذه الاعياد توجه الدعوة الى قناصل الدول ليشـتركـوا في الاحتفالات ، ولكن ليس بوصفهم ممثلين لدول مستقلة ، وانما يدعون لكي يقدموا تحياتهم الى الداي ويلهجوا بالثناء على قوته وعظمتـه ، لأنهم يتركون في وسط الجماهير ولا يخصص لكل واحد منهم مكانه .

وعندما يدخلون على الداي ليقدموا اليه تحياتهم لا تقدمهم قواعد المراسم على أحد ، فيما عدا رئيس الطائفة اليهودية . ولكي يثبت القناصل تبعيتهم ، تقضي هذه القواعد أن يقبلوا يد الباشا في كل مرة يقفون أمامه .

4 ـ تصحيحنا في الاصل : ياتي بعده باربعين يوما .

فيها عـلى أن بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وأسبانيا استطاعت أن تحرر قناصلها على التوالي من هذا التقليد المهين والذي يدل على الخنوع •

ومنذ وقت قصير ألغيت هذه العادة بالنسبة الى جميع قناصل الدول . ونحن فى الوقت الحاضر نصافح يده وننحني أمـــامه ، بـــل ان بعض القناصل ينتحلون المعاذير فى الوقت الحاضر لاعفاء أنفسهم من حضور هذه الاحتفالات .

وكذلك يوجد احتفال آخر يقام فى الربيع ، ويدل على مدى غطرسة ادعاءات الأتراك الغزاة المحتلين . وفى هذه المناسبة يخـــرج الخزنجي بوصفه مساعد الداي وينصب سراقه ويضرب معسكره خارج أســـوار المدينة عند بابها الشرقي ، وعلى باب هذا السرادق ينصب اثنين من ذيول الخيل الثلاثة التي ترمز الى سلطانه .

وعندئذ يتقدم أغا يمثل أحد شيوخ العرب أمام الخزنجي ليقدم اليه فى ضعة ومذلة تحيات الشيخ ، وعلى الفور يصدر اليه الخزنجي أمرا بأن يقدم مائة شاة لامتناع جنوده ، وعندما تصل رؤوس الغنم يقوم هو بنفسه بذبح رأس واحدة لتطبخ وتقدم على مائدة سعادته .

وهذه المواشي تقدم فورا ، وأما غيرها من المؤن ، مثل الدجاج والبيض والسكس الخ ، فتطلب من شيوخ العرب الذين يسارعون الى الطاعة ويقدمون كل ما يطلب اليهم دون أن يرتفع صوت منهم بالشكوى أو الاحتجاج .

وبعد ذلك ، يصدر الأمر الى شيخ العرب فى المنطقة ليدفع مبلغـا من المال ، يأخذه الخزنجي لدفع مرتبات الجيش ، ولكن الشيخ العربي ينتحل المعاذر أما مهذا الطلب ويترجى محتجا بفقـــر السكان وبمختلف

الكوارث التي حلت بمنطقته والتي تجعل من المستحيل أن يدفع السكان المبلغ الضخم الذي يطالب به سعادة الخزنجي ، وذلك على الرغم من حسن نيتهم واستعدادهم للطاعة .

وعندئذ يبدي الخزنجي أعراض غضب جارف ويهدد بقطع رأس شيخ العرب فى عين المكان ، ثم ينتهي الأمر بأن يصدر أمره بأن يقيد بالسلاسل ويجلد حتى يعلن استعداده لدفع المبلغ المطلوب .

وبعد صدور الأمر يبدأ الاستعداد لتنفيذه ، وعندئذ يبدي الشيخ العربي ما يدل على الاستسلام والرضوخ ويعلن استعداده لدفع مبلغ أقل أهمية ، ولكنه نظرا لأن كل تضرعاته لا تجدي شيئا ، فسيتقدم شيوخ القبيلة لينقذوه من ورطته ويتعاونوا لجمع مبلغ يكمل المبلغ الذي عرض استعداده لدفعه .

وحينئذ يؤتي بالمبلغ كله ويوضع عند أقدام سعادة الخزنجي ، الذي يصطنع بعد ذلك مظهرا من اللين واللطف ويقدم يده لشيخ العرب ليقبلها ، ويدعوه بالصديق الحميم ويقربه ويجلسه بجنبه ويقدم اليه فنجانا من القهوة اللذيذة الطعم .

وبذلك تنتهي هذه المهزلة التي تمثل بأمانة علاقات الشعب الجزائري بحكومة الأتراك الجزائرية .

وفيما يلي قائمة السفن الحربية التي تشكل الأسطول الجزائري فى سنة 1825 :

بارجة	مفتاح الجياحه	62 مدفعا
	ابن الحواس	50 »
	نفر اسكندر	36 »

حراقة (طراد)	مظهر اسطفسي	36	»
	فاسية	46	»
سفينة ذات 3 صواري	نعمة خوده	18	»
	موجراس	16	»
سكونة (ذات صاريتين)	فضل الاسلام	24	»
	جيارن	14	»
	طونعردة	14	»
	ثورية	بدون مدافع	
	سياد داريا	بدون مدافع	
بولاكر (مربعة الأشرعة)	زاغــزا	20 مدفعا	
اكسيكس (ثلاثية الصواري)	ميورقه	10 مدافع	

وفيما عدا هذه السفن ، توجد فى أحواض بناء السفن الجزائرية فى طريق البناء ثلاث سكونات ، ينتظر أن ينتهي العمل فيها وتنزل الى البحر فى الصيف القادم ، وخمسة وثلاثون زورقا حربيا من الحجم العادي .

* * *

الفصـــل الثـــالث

الجزائر ـ موقعها ، امتدادها ، طبوغرافيتها وتحصيناتها ، حاميتها ، وحكومتها ، المدنية والعسكرية ، ثروة السكـــان ، امن الاشخـــاص ورخاؤهم ، انواع السكان ومميزاتهم ، حالة العلوم والمعارف ، تعليـم الاطفال وتربيتهم ، الملابس ، جمال النساء ، تحسن عادات المسلين ، طريقة لباسهم ، وغذاؤهم ، اليهود واحوالهم المدنية والظلم الذي يعيشون فيه ، الافريقيون الاجانب الذين يعيشون فى المدينة ، الفنون الميكانيكيـة والمنتجات الصناعية ، المنازل والطرق والاحيـاء السكنيـة ، الخـوف والخرافات عند الجزائريين ، المباني العمومية والمؤسسات الدينية ، حالة العبيد المسيحيين هنا فى زمن الاسترقاق ، التجارة ، حياة البذخ فى الجزائر وآثاره ، مجتمع الوكلاء الاجانب ، سهول متيجة ، الموازين والمقاييس .

اسم الجزائر بالعربية معناه « جمع جزيرة فى البحر » ، وهي تلقب بالحربية ، والمدينة هي مركز الثروة والسلطة لهذه الامبراطورية العربية . ففيها توجد دور الصناعة التي تحتوي (بفضل مساهمات الممالك التي تدفع الضرائب) على كل أنواع الدخائر العسكرية والبحرية . وآلات الحرب الضرورية للهجوم والدفاع معا .

وهنا يقيم وكلاء الدول الأجنبية لتقديم خنوع دولهم أو للتآمر ، وهنا تعرض فى بعض الأحيان المناظر المؤثرة لمثلي دول ، وبعضها كبيرة ، مثقلين بالسلاسل ويرغمون على القيام بالاعمال الشاقة فى المحاجر لكي يستدروا عطف سادتهم البطيء .

يقول الدكتور شاو ان مدينة الجزائر تقوم فى مكان « ايكوسيوم » (Icosium) القديمة (عرض 3648 درجة وطول شرقي 327 درجة) فى الطرف الغربي لخليج جميل يمتد فى شبه دائرة على مسافة 15 ميل . 8 و 60 قامة (1) وله مهد جميل من الرمل الناعم .

وبنفقات باهضة وأشغلال جبارة ، أمكن وصل الجزيرة الصغيرة التي أشتق منها البلد اسمه باليابسة ، وعلى الممر المرتفع على مستوى البحر ويجمع بين اليابسة والجزيرة تقوم سلسلة عظيمة القدر . والى جانب ذلك ، يحيط بالجانب الجنوبي للجزيرة رصيف يبلغ عمق امتداده فى البحر خمس قامات (1) . والميناء مرسى مأمون من الرياح ويتسع لحوالي خمسين سفينة .

وجميع منافذ مدينة الجزائر تحميها تحصينات منيعة مسلحة بالمدافع الثقيلة التي تجعل كل محاولة مباشرة للسفن الحربية للهجوم على المدينة

1 — (Fethom) مقياس لا يوجد مقابلة بالعربية ، وهو يساوي 6 اقدام .

محاولة ميؤسا منها ، متى كان المدافعون يتمتعون ببراعة عادية وبعزيمة معقولـــة .

ولقد دل الهجوم البحري المشترك الذي قام به الأسطول الهولندي والأسطول البريطاني فى أغسطس سنة 1816 على الحد الأدنى من القوة التي يجب أن تتوفر لمثل هذه الغاية .

ومنذ ذلك الهجوم بني وكر يتسع لستة وثلاثين مدفعا ثقيلا على رأس المسر الذي يمتد فى البحر والذي يحتضن الموقع الذي احتله أسطــول اكسموث . وكذلك يبدو من الثابت الآن أن هجوما مـــن نفس النوع سيحبط ويصد ولا محالة . ولكنه نظرا لأنه من الممكن أن ترسو السفن الحربية فى الخليج خارج نطاق مرمى المدافع الجزائرية ، فان قصف المدينة من بعيد قد يقدر له النجاح التام .

ومدينة الجزائر مبنية على شاطيء البحر على قاعدة واسعة نسبيا فى شكل نصف دائري على هضبة سريعة الانحدار ويبلغ قطرها نحو ميل ونصف ، وتحتوي على ما يتراوح بين 8 و 10 آلاف منزل .

وطرق المدينة ضيقة جدا وسقوف المنازل متقاربة الى حد يمنع شعاع الشمس من الدخول اليها . وكذلك يمكن اقامة اتصالات بين مختلف أحياء المدينة بواسطة سطوح المنازل .

وحول المدينة ترتفع أسوار تعلوها حصون وأبراج ، ووراء الأسوار خندق جاف .

وللمدينة أربعة أبواب وليس لها ضواحي ، واذا مددنا قليلا الى الامام خطيها الشمالي والجنوبي ، فستتخذ مع قاعدتها شكل زاوية غير منتظمة . والقصبة تشرف على المدينة من قمة ضيقة ، وتلعو أوكار المدافع المسددة الى البحر .

ان جميع الذين وصفوا هذه المدينة قد بالغوا ، فيما يبدو لـي ، في تقديرهم لعدد سكانها . لقد قدر الدكتور شاو عدد سكان الجزائر بمائة ألف ، ولكنني حين أقارنها بمدن أخرى أضع عدد سكانها فى حـدود خمسين ألف نسمة .

واذا نظرت الى مدينة الجزائر من البحر ، فستبدو لك فى شكلها ولونها، أشبه ما تكون بشراع سفينة ينتشر فى مرج أخضر اللون ، والجبل المشرف عليها والأراضي المزروعة المحيط بها والتي تغطيها منازل بيضاء ، وبعضها من المباني الفخمة ، تترك فى نفسك انطباعا ، وأنت تقترب منها بأنك تشاهد واحدا من أجمل ما يرى على شواطيء البحر الأبيض المتوسط .

وانطلاقا من رأس كاكازين حتى المدينة توجد طريق معبدة تسير موازية لخط الشاطيء عند أقدام الهضاب ، وهذا الجانب من الشاطيء صخري وشديد الانحدار ، ولا يوجد فيه مرفأ مأمون . وعلى اليمين ترتفع جبال بحدة ، وعندما يقترب المسافر من المدينة يعترضه مضيق ينفذ الى البلد وتوجد فيه عدد من المنازل الجميلة . والمواقع التي ينزل الناس فيها من السفن تشرف عليها وتحميها مجموعات من المدافع .

ومن المدينة حتى مصب نهر الحراش ، تمتد طريق جيدة تسير موازية لخط الشاطيء ، وهذه المنطقة التي تشكل جزءا من الخليج تغطيها رمال ناعمة .

وعلى يمين هذه الطريق يمتد سهل خصب ، على مسافة ثلث أو نصف الميل ، ترتفع فى نهايتها هضاب متوالية بسرعة .

وهذا السهل كله مأهول بالسكان ويوفر كثيرا من الخضروات التي تستهلكها المدينة .

والمواقع التي تقف عندها السفن متى كان الجو حسنا كلها تقع تحت مراقبة المدفعية المثبتة في قلاع وحصون مهيبة .

ومن مصب نهر الحراش حتى رأس تمنفوست (Cap Tamanfoust » تبلغ المسافة حوالي تسعة أميال ، وهذه المسافة تضم القسم الشرقي كله من خليج الجزائر .

والشاطيء في كل امتداده جميل ويغطيه رمل ناعم ، وبعد الشاطيء ترتفع الأرض ارتفاعا سريعا يتراوح بين 30 و 40 قدما لتبلغ مستوى من الأرض ، هو امتداد لسهول متيجة .

ومن باب الوادي ، أو الباب الشمالي للمدينة ، يسير طريق مواز لخط الأسوار الشمالية للمدينة ، حتى يصل الى الزاوية الجنوبية الغربية للقصبة، والماشي بتوادة في هذه الطريق يحتاج الى عشر دقائق لقطعها . ومن هناك الى قصر الأمبراطور ، تمتد طريق وعرة ، ولكن بعض أجزائها معبد ، على مسافة نحو ميل .

وقصر الأمبراطور عبارة عن مبنى ذي أضلاع غير متساوية ، ويحتوي على حصن دوره حوالي 500 يادرة ويسيطر على مدينة الجزائر ، انه لا تحيط به خنادق ولا ممرات مخبأة ، كما انه لا يملك تحصينات متقدمة الى الأمام ، وأسواره المبنية بالطوب المكوى تبلغ في بعض جنباته ارتفاعا هائلا لمائة قدم . وفي الجنبات الأخرى تكون هذه الأسوار أقل ارتفاعا ، وذلك طبقا لتفاوة مستوى الأرض التي يقف عليها هذا الحصن . وأسوار الجنوب الغربي لا يزيد ارتفاعها عن عشرين قدماً .

وعلى يمين الطريق المؤدية الى القصبة ، ترتفع هضاب تشرف على هذا الحي مباشرة على مسافة نحو 300 ياردة . ومن الجانب الغربي تشرف على الحصن هضاب أخرى وتقف وراءه على مسافة نحو 250 ياردة .

ومن قصر الأمبراطور الى سيدي فرج ، تمتد طريق على مسافة نحو تسعة أميال فى أرض زراعية خصبة من أجمل ما تشاهده العين . وهذه المنطقة توفر أرضا صالحة لمناورات المدفعية .

وهذه الطريق سلكتها على متن جوادي والساعة فى يدي فى فترة من الزمن استغرقت ثلاث ساعات . وقد كنا خمسة عشر شخصا وكنا نسير فى غير عجلة . وعلى جنبات الطريق كانت تقابلنا هنا وهناك عيون ثرة تفصل بين الواحدة والثانية منها مسافة نصف ميل على أكثر التقدير .

ولكن الطريق بعد العين الأخيرة تتخذ نحـــــو سيدي فرج اتجاها شماليا غربيا فى أرض لا أشجار فيها تمتد على نحو ثلاثة أميال . وهذه الأرض رملية وتغطيها الصخور .

وضريح سيدي فرج والحصن الصغير الذي أقيم للدفاع عن منطقته ، يقف على شبه جزيرة صخرية ومرتفعة نوعا ما . وهذه النطقـــة يمكـــن تحصينها واتخاذها قاعدة عسكرية عظيمة القيمة .

وعلى الشاطيء الذي يتصل بشبه الجزيرة تجري عين ثرة عذبة المياه الى حوض كبير مصنوع من الصخر ، حيث يسقي السكان المجاورون للمنطقة مواشيهم ، ونحن فى هذه الجولة شاهدنا عددا كبيرا من القطعان التي يحرسها العرب .

كان نزول الجنود فى جميع الحملات العسكرية التي شنت على مدينة الجزائر من البحر ، يتم فى الجانب الشرقي من الخليج . وهذه ، بالتأكيد ، غلطة لا تغتفر وتعود الى جهل بشاطيء البلد وطبوغرافيته ، حيث أن جميع وسائل الدفاع قد ركزت فى هذه المنطقة .

انه لمن الواضح أن جيشا يمكنه النزول فى خليج سيدي فرج الجميل دون أن يجد عقبات تذكر . ومن هناك ، يمكنه فى مرحلة واحدة أن يصل

الى الهضاب التي تسيطر على موقع قصر الأمبراطور (2) ، وعندئذ سوف لا يجد عائقا فى طريقه نحو هذا الحصن والاستيلاء عليه بالقوة ، وذلك اما بتسلق أسواره أو باستعمال الألغام لنسفها .

ومتى سيطر الجيش على هذا الحصن وثبت مدفعية قوية فى الهضاب التي تشرف عليه ، أصبح يسيطر على الموقف والهضاب المشرفة على الحصن من السهل التعرف عليها فى خرائب طاحونتين بالريح تتخذ كل منهما شكلا أسطوانيا ، وخرائب قلعة كانت تسمى « سطاو » ، ولكنها لم تعد قائمة ، بسبب مخاوف الحكومة من عواقب بقائها حيث أنها فى موقع يسيطر على حصن الأمبراطور ، وبالتالي ، على المدينة .

وانزال قوات فى سيدي فرج لابد من أن يرافقه ظهور قوات بحرية فى وسط الخليج للتمويه على العدو . وعقب ذلك تستسلم المدينة أو تؤخذ عنوة بالقوة .

وفى الأوقات العادية تتكون الحامية التركية فى الجزائر من عدد يتراوح بين 1500 و 4000 رجل ، ومعظمهم من الجنود المتقدمين فى السن والجنود الحديثي التجنيد والذين يجري تدريبهم للخدمة الوطنية .

والى جانب الادارة التركية العامة التي مقرها العاصمة ، توجد حكومة محلية تشمل شيخ البلد ، أو الحاكم المدني ، وكاهية ، أو قائد المليشيا فى المدينة ، وقول أغا ، أو مدير الشرطة الذي تشمل ادارته مراقبة الحمامات ومنازل الدعارة . وجميع الموظفين فى هذه الادارة من الأهالي . وأنا أعتقد أنه لا توجد مدينة أخرى فى العالم يبدي فيها البوليس نشاطاً أكبر

2 – الجدير بالتذكير أن الطريق التي يصفها المؤلف هي التي سلكها الجيش الفرنسي لاحتلال الجزائر فى سنة 1830 ، ونحن لانشك فى أن القيادة العليا للجيش الغازي قد استعانت بهذه المعلومات وغيرها مما ورد فى هذا الكتاب الذي كان شارل العاشر قد أمر بترجمته من قبل ، أثناء زحفها للاستيلاء على مدينة الجزائر .

مما تبديه الشرطة الجزائرية التي لا تكاد جريمة تفلت من رقابتها . كما انه لا يوجد بلد آخر يتمتع فيه المواطن وممتلكاته بأمن أكبر (3) .

وتتيجة لاستمرار الرخاء والرفاهية فى الجزائر سنوات متواليه . تجمعت ثروة كبيرة فى عدد من العائلات ، خصوصا بفضل محالفتهم ومصاهرتهم للاتراك .

والواقع أنه اذا كانت السلطة السياسية قد تركزت فى أيدي الأتراك ، فان الثروة التي حصلوا عليها تتحول تدريجيا الى العائلات الكبيرة من الأهالي ، وهذه العائلات ، بصفة عامة ، لا يتعرض لها الأتراك بالأذى والاهانة الا فى النادر .

وحظوظ التركي وثروته شيء محفوف بالخطر طوال حياته . ولكن الأهلي ليس له الحق فى أي وظيف سامي . ودوره فى جميع الثورات التي تقع فى البلد دور سلبي دائما ، وبالتالي ، فان ثروته مضمونة هنا ، مثلما هي فى أي بلد آخر .

ومن كل ما تقدم ، يجب أن نستخلص أن مدينة الجزائر تعتبر من أغنى مدن العالم بالمال .

توفيت أرملة أحمد باشا (وهو الداي الذي عقد المعاهد الأولى مع الولايات المتحدة) عن سن متقدمة جدا ، وشاع القول بأنها خلفت تركة تبلغ عدة ملايين من الدولارات .

وورثة مصطفى باشا ، خلفه ، الذي تدفع لهم الولايات المتحدة ايجار المنزل الذي يشغله قنصلها ، يملكون فى مدينة الجزائر وخارجها ثروة تقدر بنصف مليون دولار .

3 – وكدليل على شدة البوليس وشمول رقابة الشرطة الجزائرية ، اسجل هنا الحادثة التالية : اعرف شخصيا رجلا يملك منزلا فى المدينة ومنزلا جميلا يقع بجانب منزل فى الريف ، وباختصار رجل يتمتع بثروة ورخاء ويمكن أن يعتبر من الطبقة الراقية (جنتلمان) فى اي بلد من بلدان العالم ، فاجاء رجال الشرطة مع آخرين فى منزل سيىء السمعة بالليل وفى وقت متاخر فأخذوه الى مقر الاغا وجلد هناك مائة جلدة . هامش المؤلف .

ومع ذلك ، فان أحمد باشا ومصطفى قد قتل كلاهما علانية .

والحضارة النسبية التي تسود فى هذا الجزء من بلاد البربر ، تعود . بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، الى الفتح العربي . والموارد التجارية التي تتمتع بها افريقية ، كانت السبب الذي أدى الى انشاء عدد من المدن والى استمرار عمران عدد آخر على هذه الشواطيء التي نبحث عبثا لمعرفة أصل سكانها ، بسبب عدم وجود أية سجلات تاريخية فيها . ومدينة الجزائر لا تستثنى من هذه القاعدة ، وليس لها أي تاريخ يميزها عن باقي مدن بلاد البربر ، قبل الغزو الروماني . وسكانها عبارة عن خليط من العرب والبربر ، وبقايا الأجناس التي غـزت هذه البلاد عبر العصور ، والمهاجرين من الأندلس والأتراك . وهذا الاختلاط له ميزة عظيمة فيما يبدو ، حيث أنه لا توجد سوى شعوب قليلة فى العالم تفوق سكان الجزائر فى الجمال . وملامحهم بصفة عامة ، قوية التعبير ، وألوانهم ليست أغمق من سكان جنوب اسبانيا .

والأجانب قلما تتاح لهم الفرصة لرؤية امرأة عربية ، ولكنني ، استنادا على الفرص العابرة التي أتيحت لي لرؤية بعض النساء ، وعلى أقـوال السيدات الأجنبيات اللائي يقمن هنا ، واعتبارا لجمال أطفال الجزائريات، أعتقد انهن يستطعن منافسة نساء أي بلد آخر فى العالم . والميزة الأولى للمرأة الجزائرية ، هي جمال القامة واعتدالها ، ويأتي بعد ذلك جمال العينين والحواجب الكبيرة والأسنان الجميلة . ولكن نوع الجمال الذي يروق الناس هنا هو جمال المرأة السمينة .

والمرأة الجزائرية تصل الى النضوج فى وقت مبكر ، ويحدث كثيرا أن تتزوج فى سن الثانية عشر ، ولكنها تذبل بنفس السرعة ، وقد بلغني أن المرأة الجميلة يبدأ جمالها فى الزوال فى سن الخامسة والعشرين وانها

عند هذه السن كثيرا ما تكون جدة . وربما كان السبب فى هذه الظاهرة يرجع الى الافراط فى استعمال الحمامات البخارية .

والمعلومات التي وصلت الينا منذ العصور الغابرة تتهم سكان هذا البلد بعدم الاستقرار والخداع . وهذا الاتهام قد يوجد ما يبرره فى الوقت الحاضر ، ولكن هؤلاء السكان أبعد ما يكونون عن البربرية التي يصف بها البعض الجزائريين فان فى سلوكهم لياقة ومجاملة . وأنا قد وجدتهم فى المعاملات اليومية دائما مهذبين ومتمدنين وانسانيين ، وأنا لم اكتشف فيهم حتى أعراض التعصب الديني أو الكره للأشخاص الذين لا يدينون بدين آخر غير دينهم . انهم يدينون بالاسلام ويقومون بكل مواضبة واخلاص بالواجبات التي يفرضها عليهم دينهم . ولكن بدون مباهاة أو تصنع ، ولا يضمرون عداوة للأشخاص الذين يسلكون طريقا آخر للحصول على رضا الله .

انني أعرف جيدا أن هذه الصورة التي أرسمها للجزائريين لا تتفق مع الصور التي رسمها لهم كتاب آخرون ، وأنها تناقض الرأي العام الشائع (فى أروبا وأمريكا) عنهم ، ولكن هذه الآراء تختلف كثيرا عن الحقيقة كما شاهدتها بنفسي خلال اقامة طويلة وكما هي فى غضون الخمسين عاما الماضيــة .

ان كاتبا كبيرا من المعاصرين ، وهو اللورد شيفيلد Sheffield يعتبر قوة الجزائر عقبة لا يمكن التغلب عليها فى طريق التنمية والرخاء وازدهار التجارة البحرية الأمريكية ، والوثائق الرسمية تدل عـلى أن حكومة فرنسا قد لمحت فى عدة مناسبات الى استعدادها لاستخـدام نفوذها لدى دول المغرب لحملها على الدخول فى مفاوضات مع الولايات المتحدة الأمريكية .

وأي شخص يعرف بلاد المغرب معرفة جيدة سيشعر بالاشمئزاز والسخرية والاحتقار لهذه الأقوال . لأنه من المعلوم أن الدول البحرية الأروبية قد التجأت الى أحط الوسائل وأوضعها لتدعيم ما تسميه بنفوذها ، وأن شعبا مستقلا ليس لديه ما يرجوه من صداقتها كما أنه لا يوجد لديه ما يخشاه من عداوتها ، هنا فى الجزائر .

ونحن نستطيع أن نرجع التحسن الذي طرأ على شخصية الجزائريين الى عدة أسباب .

ففي المكان الأول يوجد نظام للحكم أجنبي يقوم على حق الغزو ، وهو ديمقراطي بين الغزاة ، ولكنه أريستوقراطي بالنسبة الى الأهالي ، وهو ، على كل حال ، يسهر على تطبيق العدالة . فان مثل هذه الحكومة يجب أن تكون لديها قوة معتبرة لكي تتمكن من قمع ميول النوميديين الى الرذيلة ، ووضع حدود لسلوكهم ، والزامهم جانب الاعتدال واللياقة .

وفى المكان الثاني ، كان لازدهار التجارة التي تخنق الأحقاد الوطنية والدينية أثر لا ينكر فى تغيير الشخصية الجزائرية . ونحن نذكر أنه توجد هنا عدة شركات عربية شكلت بصفة قانونية وتتمتع بثقة فى الخارج تسعى للمحافظة عليها بالمعاملة الحسنة والضيافة الكريمة والثقة الكاملة لمقابلة بالمثل لما لقيه وكلاؤها فى الخارج أثناء أسفارهم وتنقلاتهم .

وأما حالة العلوم ، فان مما لا جدوى فيه الحديث عنها ، حيث انها غير موجود ، أو هي ، متى كانت موجودة ، محتقرة بل ان علم الطب نفسه لا يوجد من يدعيه ، هذا اذا استثنينا المشعوذين وكتاب الحروز .

وبعض الرياس والقادة البحريين وربابنة السفن تعلموا من الأجانب تحديد العروض وقاموا بترجمة الجداول الفلكية الى العربية ، وهم يستعملونها لهذه العمليات فى البحر الأبيض . ولكنهم حينما يجتازون

مضيق جبل طارق للملاحة فى المحيط الأطلسي ، يضطرون الى الالتجاء
لأول سفينة مسيحية تصادفهم لتعبر لهم بحارة يوجهونهم حتى يعودوا الى
البحر الأبيض . ان القرآن هو كل علوم هؤلاء القوم وآدابهم .

ومع ذلك ، فان مدينة الجزائر تملك كثيرا من المدارس العادية التي يتردد عليها الأطفال ابتدا ءمن سن الخامسة والسادسة ، فصاعدا ، حيث يتعلمون القراءة والكتابة . ونظرا لأن الأمور لا تتطور بسرعة فى هذه البلدان ، فانا أميل الى الاعتقاد بأننا مدينون للعرب بالطريقة التربويـة التي تعرف عندنا باسم « الانكاستر » ، فكل تلميذ يحمل لوحة يمكن الكتابة عليها ومحو ما كتب بسهولة . وعلى هذه اللوحة تكتب بوضوح سورة من القرآن ، ثم يقوم بقية التلامذة بنقلها بعناية ، كل على لوحته وبالتوالي ، والتلميذ الذي يتعلم معنى الكلمة وطريقة كتابتها يقوم بتعليم ذلك للتلاميذ الآخرين ، ويعلم الدرس بصوت مرتفع تلميذ كبير أو معلم يجلس فى مكان مرتفع (سدة) ، وفى يده عصا يستعين بها لحفظ النظام ولاثارة انتباه الطلبة .

وبهذه الطريقة يتعلم التلميذ فى نفس العملية القراءة والكتابة . والمرجح
أن الفضل يرجع الى هذه الطريقة فى وجود هذه الوحدة وجمال الخط
العربي ، ويتم تعليم الجزائري عندما ينتهي من حفظ القرآن ويعـرف
الفرائض التي يعلمها له نفس المعلم .

وهذا النظام التربوي لا يكلف الا شيئا قليلا من المال ، والبنات يتعلمن
فى مدارس من نفس النوع تشرف على ادارتها نساء .

وأنا أعتقد أن هذه الشعوب تجد نفسها عند مولد الحضارة ، وأن
الأمر لا يحتاج لكي يجنوا ثمارها الا الى نظام حكومي أقل معارضة من
الناحية العملية والنظرية لروح النمو والتقدم البشري .

ولباس الجزائريين يتكون من عدة قطع ، بعضها باكمام والبعض الآخر بدون اكمام ، مفتوح فى الصدر ومزين بأزرار وزخارف . وبعد ذلك تأتي سراويل فضفاضة ينزل حتى ربلة الساق . وكثيرا ما يلبس الرحل حزاما يلفه عدة مرات حول وسطه ويعلق عليه « يتجانا » أو مسدسا ، ويضع فى طياته أيضا ساعته ومحفظة نقوده الخ . ولباس الرأس هو العمامة ، والرجلين « البلغة » التي تمل زي الرجل الجزائري ، وأما الجوارب ، فلا يلبسها الا الشيوخ ، وفى حالة البرد فقط .

ونوعية الملابس تختلف باختلاف طبقات الناس وثروة الأفراد وفصول السنــة .

وملابس الأتراك الكلوغيين عــادة ميزنة بالقصب وبحواشي الذهب أو الفضة أو الحرير ، طبقا لغرور الشخص ونزواته . وشكل العمامة وثناياها ونوع المادة التي صنعت منه هي المقياس الذي يحكم عليه الناس بقيمة الرجل الذي يلبسها .

وفوق جميع ملابسه ، يلبس الرجل برنوسا يحمله على كتفه ويغطي به كل جسمه ، والبرنوس نوع من المعطف له شكل دائري يلصق فى وسطه « قلمون » يمكن للرجل أن يتركه معلقا بدون استعمال أو يغطي به العمامة ، وهو وسيلة للوقاية من المطر . والبرنوس يصنع قطعة واحدة بدون تخييط ، وهو فى هــذا الشكل يتسم بالبساطة والأناقة معا . وتستعمل لنسج البرنوس صوف ناعمة بيضاء تمزج أحيانا بالحرير . وزخارفه وحواشيه أيضا من الحرير فى بعض الأحيان . والبرنوس الذي يلبس فى فصل الشتاء ويحمل فى الأسفار له نفس الشكل ولكنه ينسج من خيوط أمتن بحيث يقي من المطر ، ويكون لونه أسود .

وفى رأي الدكتور شاو أن البرنوس اذا جرد من « القلمون » يمثل المعطف الروماني «بانيوم» (Pallum) وبالقلمون ، وهو المعطف

وجميع الجزائريين (Bardo cuculeus)
«الجولي» المسمى باردو كوكولوش
الذين تسمح حالتهم المالية يلبسون الملابس الداخلية ، ولكن سكان
الأرياف يرون فيها نوعا من ملابس الترف .

والحايك ظل منذ أجيال لا تعيها ذكرة التاريخ لباس الليبيين ، وهو
وملابس سكان الأرياف عبارة عن نوع من الحايك وسراويل ضيقة
نوعا ما وعمامة ، أو قلنسوة حمراء مصنوعة من الصوف (الشاشية)
وهذه القلنسوات تصنع فى تونس التي اشتهرت بهذه الصناعة . ولكن
بعض البلدان الأروبية تقلد هذه الصناعة وتبعث بشحنات كبيرة منها
لتبيعها فى الجزائر .

والحايك ظل منذ أجيال لا تعيها ذكرة التاريخ لباس الليبيين ، وهو
يصنع من الصوف . له ست بوصات فى الطول وبوصتان فى العرض .
ومن المحتمل أن يكون هذا هو اللباس الذي يسميه الرومان « طوجة »
ولقد أتيح لي أن أشاهد فى روما أو فى المتحف الملكي فى نابلي
تمثالا للامبراطور اغسطس فى ثوبه الامبراطوري ، وهو يشبه كل الشبه
الحايك الليبي والجزائري .

والعرب يلبسون الحايك ، كما يلبس الهنود الحمر البطانية ، وكلا
اللباسين يستعمل لنفس الغرض : معطف فى النهار وغطاء بالليل . ومع
ذلك ، يجب الاعتراف بأن الحايك لباس غير مريح ، لأنه يتحتم على
لابسه أن يمسكه دائما بيده . وأنا قد قرأت فى أحد الكتب أن السبب
الذي كان الرومان يفضلون من أجله الاقامة فى الأرياف ، انهم
يستطيعون هناك التخلص من « طوجة » . وأنا أفهم ذلك بسهولة ،
اذا كان ذلك اللباس حقا يشبه الحايك !

وسعر الحايك يختلف باختلاف نوعه . وهو يصنع من الحرير أو من الصوف الأبيض ، أو من الصوف الأحمر . ومتى استعمل الحايك غطاء للفراش ، فانه لا يوجد ما هو أفضل منه لتوفير الدفء ، على خفة وزنه .

ولباس النساء العربية ، بقدر ما أمكنني ملاحظته ، يتكون من قميص صغير يصنع عند نساء الطبقة الغنية من أرفع المـواد وأفخرها ، ومن سراويل ينزل حتى العقب ، وثوب من الحرير أو من مادة أخرى ويكون غنيا بالتطريز بالدنتيال ويغلق بشريط من الوراء . وأخيرا تلبس المرأة الجزائرية حذاء ، ولكن بدون جوارب .

والمرأة الجزائرية تعني عناية خاصة بشعرها ، وكثيرا ينزل شعر امرأة جميلة حتى يصل الى الأرض . والمرأة الجزائرية لا تقنع بالجمال الذي وهبتها الطبيعة لشعرها ولحواجبها ، فهي تعمل على صبغهما بالأسود كما تصبغ بطلاء خاص أظافر أصابع أنديهن وكذلك يصبغن بالحناء أكفهن وأقدامهن .

ان المرأة الجزائر تلبس الحلي الثقيلة ، بما فى ذلك خواتم وأقراط الذهب وأساور وخلاخل من الذهب والفضة . والمعدن الشائع فى الطبقات الغنية هو الذهب ثم تنزل النساء حسب طبقتهن الى الفضة ، بل والنماس أحيانا . ولباس الرأس القومي هو « السرمة » الذي يصنع من الذهب أو الفضة حسب الطبقة التي تنتمي اليها المرأة ، وهو مخروطي الشكل . وفوقه يلقى حجاب شفاف كثيف أو خفيف التطريزة .

هذا بالنسبة الى المرأة ، وأما الفتاة غير المتزوجة فترتدي على رأسها ، بدلا من ذلك ، قلنسوة عادية مطرزة بسكوينات (4) . والفتاة غير المتزوجة

4 — (Seguin) ذهب ايطالي كانت العملة المضروبة منه متداولة فى مختلف الدول الايطالية ، كما كان شائعا فى تركيا والجزائر .

تعرف حالتها عندما تخرج من بيتها بسراويلها المتعدد الألوان ، وهو لباس يبدو أن أصله يرجع الى أقدم عصور التاريخ •

« انها ترتدي ثوبا متعدد الألوان .

« وهو ثوب بنات الملوك وحلية الأبكار .

وهذا الثوب يغطيه حايك من النوع الذي تقتضيه الظروف ومتى سافرت المرأة الجزائرية الى الخارج ، ترتدي حايكا أبيض يغطي جسمها كله ، من الرأس الى العقب ، بحيث تبدو وكأنها شبح متحرك .

ونساء الطبقة الراقية لا يخرجن الا قليلا ، أو قل ، انهن لا يخرجن اطلاقا • وعلى الرغم من أن هذه السيدات يتعرضن للوم أزواجهن على التبرج والتبذير ، مع بقائهن فى عزلة ، فان من الممكن الاستنتاج بأنهن يمارسن نفوذا غير قليل فى المجتمع . ومن يدري ؟ فربما يعملن فى صمت على تهيئة الرأي العام ليعيد لهن الحقوق التي حرمهن منها الجهل والتقاليد الصارمـة •

انه لا يوجد سوى عدد صغير من الجزائريين الذين يستفيدون مـن ترخيص الاسلام لهم بالتزو جبعدد من النساء . فان القاعدة العامة هي أن الرجل يكتفي بامرأة واحدة تلحق بها عدد من الاماء يختلف باختلاف مركز الرجل الاجتماعي وثروته •

والقاعدة المتبعة فى عقد الزواج ، هي نفس التي يسير عليها المسلمون فى كل مكان ، ولكن طابع الحكومة وأوضاع الطبقات الراقية التي ظهرت فى ظل هذه الحكومة ، قد أدت الى ثورة فى صالح المرأة . فهل من المنطق الافتراض أن وارثة لثروة كبيرة ، تسلم ، كما تسلم الاماة ، لنزوة أي بربري يقبل على الزواج منها ؟

ولهذه الاعتبارات وغيرها يحتوي عقد الزواج عادة ، على شروط على مستوى من المساواة مع الرجل الذي يتزوجها ، أو على الأقل ، تحميها من معاملة تعسفية . أنه ليكون من الحط من قيمة هذه السيدات الافتراض بأنهن لم يدخلن تحسينا على هذه الفوائد التي حصلن عليها . والواقع أن أثر هذه الفوائد قد زاد واتسع تدريجيا وقد نجم عن ذلك أن المرأة العربية لا ترزح فى قيود العبودية لزوجها أكثر مما ترزح تحت ثقـل العادات والتقاليد الموروثة .

ويجري تخطيط الزواج وعقده بواسطة الأمهات والعلاقات النسوية التي تسعى بين الطرفين . والنساء الجزائريات يلتقين اما فى الزيارات المتبادلة فى المنازل أو فى الحمامات العمومية التي يترددون عليها كثيرا والتي تفتح أبوابها فى فترة ما بعد الظهر للنساء فقط .

وفى هذه المناسبات تلتقي القريبة بالقريبة والصديقة بالصديقة عـدة ساعات متوالية ليستغرقن فى الحديث الممتع ، على حساب أزواجهن الذين يطردون من منازلهم ، أو يختبئون وراء الأستار الكثيفة فى احدى زوايا المنزل حيث لا يرون أحدا ولا يسمعون شيئا ، ليفسحوا المجال للعصابة المرحـة !

والخبز ولحم الضأن والدجاج والسمك والحليب والزبدة والخمر وزيت الزيتون والزيتون والفواكـه والخضروات والكسكسي الـذي يصنع من عجينة تشبه العجينة التي تصنع منها المقارونة ، تشكل الأغذية الرئيسية لسكان بلاد البربر . والكسكس يمكن يمكن اعتباره الصحن القومي ، وهو بمثابة المقارونة فى ايطاليا والأرز فى الهند .

والكسكس يفتل حبات صغيرة عادة ، فى قصعة مصنوعة من الخشب ثم يوضع فى « كسكاس » ويطهى بالبخار ، وقد يرفق بالمرق والخضروات،

أو يقدم بالبيض المسلوق أو بأعشاب حلوة الخ • ، والكسكس لذيذ الطعم ومغذ جدا . والطبقة الفقيرة التي لا تستطيع شراء اللحم تحضره بزيت الزيتون وأ مدهونا بالزبدة • وأما طبقة العمال ، فهي تقتنع بالخبز والزيت متى أمكنها الحصول عليه .

والجزائريون لا يستهلكون الا قليلا من لحم البقر ، وهم قلما يذبحون بقرة ، ولا يذبحون عجلا أبدا •

وفى أجود الفصول التي يكثر فيها العشب تعمد كثير من العائلات الجزائرية الى ذبح ثور أو ثورين وتقطع لحمه ثم تجففه فى الشمس • وبعد ذلك يغلى فى الزيت ثم يحفظ فى أواني ويغطى بالزيت أو بالسمن لاستهلاكه فى وقت آخر .

والقهوة هي مشروب الترف لهذا الشعب الذي لا يتناول الخمر ولا يشرب سوى الماء القراح •

والشعب الذي لا يملك أدبا ولا فنا ، لا يجد أمامه كثيرا اللهو والتسلية .

وفيما يتعلق بالرجال ، توجد المقاهي ودكاكين الحلاقين ، أو مزاولة نوع من أنواع التجارة وأ العناية بالحدائق المنزلية أو محاولة تحسين المنزل الريفي لمن يملكون منازل فى الريف ، فهذه الأشغال توفر وسيلة لتزجية الوقت والخروج من الحياة الرتيبة التي يعيشها الناس •

وأما النساء ، فان وسيلة التسلية الوحيدة التي فى متناولهن ، هي تلك اللقاءات التي تقع فى الحمام العمومي أو الزيارات المتبادلة والاجتماعات ، ولا سيما بمناسبات الزواج والميلاد والختان الخ •

والاقامة فى الريف لا تمثل أية فائدة بالنسبة اليهن ، فيما عدا التمتع بالهواء النقي ، لأن العادة تلزمهن ، هناك أيضا ، البقاء بين جدران المنزل الأربعة ، مثلما هي الحالة فى المدينة .

والمفروض أن العرب (5) يملكون عبقرية أصيلة فى الموسيقى، ولكنني أعترف بأنني عاجز عن اصدار حكم فى هذا الموضوع ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن العرب لا يعتنون بتدريس الموسيقى بوصفها علما ، وذلك على الرغم من أنهم يعزفون على عدة آلات يرجح أنهم هم الذين اخترعوها .

واليهود الذين يوجد منهم نحو 5000 نسمة فى مدينة الجزائر يتمتعون بحرية تامة فى ممارسة عقائدهم الدينية . وهم يخضعون لقوانيهم الدينية فى الأحوال الشخصية ، كما يتولى ادارة شئونهم رئيس من أبناء الطائفة يعينه الداي . وبوصفهم رعايا جزائريين يتمتعون بحرية فى التنقل والاقامة حيث يرغبون ، وبممارسة المهنة التي يرونها فى حدود القانون فى جميع أنحاء المملكة . واليهود غير قابلين للاسترقاق .

واليهود يدفعون الجزية وضعفي الضرائب الجمركية المستحقة عـلى جميع أنواع البضائع المستوردة من الخارج . وكما هي عادتهم فى بلدان أخرى ، يمارسون جميع فروع التجارة ، وهم يحتكرون فى هذا البلاد السمسرة وأعمال المصارف وتبديل العملة . وكذلك يوجد عدد كبير من الصيارفة بينهم ، وذلك فى الذهب والفضة على السواء . والحكومـة لا توظف سوى اليهود لصك النقود .

---

5 ـ نترجم كلمة Moors بكلمة « العرب » ونقصد بذلك مجموع السكان الاهالي من غير الاتراك والاجانب ، مع ما فى ذلك من التجاوز ، لان كلمة Moors (maures) بالفرنسـية) كان يطلقها الرومان على البربر فى شمال افريقية ، ثم اصبحت تطلق فى العصور الوسطى على العرب الذين فتحوا الاندلس .

والى جانب حرمانهم من بعض الحقوق ، تتعرض الطائفة اليهودية فى الجزائر لكثير من الاضطهاد ، فان اليهود غير مسموح لهم بمقاومة أي نوع من العنف يمارسه مسلم عليهم . وهم مجبرون على لبس ثياب بيضاء أو سوداء ، وغير مسموح لهم بركوب الخيل ، أو بحمل أي نوع من السلاح ، بما فى ذلك العصا . ويوم السبت ويوم الاربعاء هما اليومان الوحيدان المسموح فيهما لليهود بالخروج من أحد أبواب المدينة بدون ترخيص خاص . ومتى اقتضى الأمر القيام بأعمال شاقة وغير متوقعة ، فان أنظار السلطة انما تتجه الى اليهود ليقوموا بانجازها .

وفى صيف سنة 1810، زارت هذه البلاد جحافل الجراد التيدمرت كل ما مرت به فى طريقها من كل ما هو أخضر . وبهذه المناسبة صدرت الأوامر الى عدة مئات من اليهود للخروج لوقاية حدائق الـداي وبساتينـه الشخصية ، حيث اضطروا للعمل والحراسة بالليل والنهار ، ما دام الجراد يعيث فسادا فى البلد .

وفى عدة مناسبات قامت كتائب الانكشارية بنهب ممتلكاتهم بدون تمييز . وكذلك يعيش اليهود فى خوف دائم من تجدد هذه الحوادث ، والأطفال يطاردون اليهود فى الطرق . وحياة اليهودي كلها مذلة واهانة واعتداءات .

وأبناء يعقوب يتحملون كل هذه الاهانات بصبر أيوب ، فهم قـد تعلموا الخضوع والخنوع منذ نعومة أظفارهم ويتدربون على ذلك طول حياتهم دون أن يجرؤوا حتى على التذمر لمصيرهم .

ولكنه على الرغم من جميع هذه الظروف المثبطة للعزائم ، نجد أن اليهود الذين يتراسلون مع يهود آخرين يقيمون فى الخارج ، هم الطائفة الوحيدة من السكان التي لها معرفة صحيحة بالشئون الخارجية . وهم

ينغمسون فى مختلف أنواع المؤامرات التي يقامرون فيها ، أحيانا ، بحياتهم ، والتي لقي حتفه فيها بعضهم فى عدد من المرات .

ومنصب رئيس الطائفة اليهودية انما يحصل عليه صاحبه بالرشوة والتآمر ، وهو يمارس وظيفته بقمع واضطهاد يساوي ما ينفقه من المال والجهد للاحتفاظ به . لقد وصلت بعض الشركات اليهودية فى أوقات الرخاء فى الايالة الى قمة الثروة والرفاهية ، ولكن عددا من الأثرياء اليهود قد تدهورت أحوالهم فى الأعوام الأخيرة وأصابهم الافلاس ، أو وجدوا طريقا للهجرة ، بسبب ما حل بهم من اضطهاد لا يطاق . وفى نفس الوقت يحل محل التجار اليهود كل يوم عرب ممن يتمتعون بالذكاء والبراعة فى التجارة ، فى مختلف فروع الأعمال فى البلد .

وكذلك يبدو الآن أن الطائفة اليهودية فى تدهور مستمر ، وهذا يصدق على عدد أفرادها أيضا .

ويبدو لي أن الطائفة اليهودية فى الجزائر حاليا تشكل واحدة من الطوائف اليهودية الأقل حظوظا وثروة فى العالم .

وفيما يتعلق بالسلوك والعادات وطرق المعيشة، فان اليهود الجزائريين، باستثناء ما ذكر أعلاه ، لا تكاد تختلف طبقاتهم عن الطبقات المماثلة من الجزائريين ، وبالتالي ، فان هذه الأمور لا تستحق مني التعرض لها بالوصف .

ويهود الجزائر من جنس متين البنية حسن التكوين والبشرة ، ولكن حالة الذل البشع التي ولدوا فيها ويعيشون عليها تترك فى وجوههم آثارا تميزهم عن غيرهم . وانه لمن أندر الأمور أن تقع عين الانسان على يهودي ذي ملامح نبيلة ، وهذا يصدق على الذكر والأنثى معا . ومع ذلك ، فان سلوك هذا الشعب واستسلامه يبعث فى النفس شعور الاحترام لآلامه ، بل والشفقة عليه .

وكثير من اليهود المسنين ومن ذوي العاهات الذين يشعرون أن أجلهم قد اقترب وأنهم لن يلبثوا أن ينفصلوا عن ما يملكونه فى هذا العالم ، يسلمون كل ممتلكاتهم لورثتهم ولا يبقون لأنفسهم الا على ما يسمح لهم بسد الرمق فى القدس التي يقصدون اليها ليلفظوا هناك أنفاسهم الأخيرة .

لقد شاهدت فى سنة 1816 عددا من اليهود المتقدمين فى السن وهم يبحرون فى آخر حج لهم ، على متن سفينة استؤجرت خصيصا لنقلهم الى شواطيء سورية . ويقدر ويقدر مجموع عدد اليهود الذين يعيشون فى مملكة الجزائر حاليا بحوالي ثلاثة آلاف نسمة .

ان عددا كبيرا من سكان الجزائر هم من الأجانب الذين ينتمون الى مختلف القبائل الافريقية المستقلة عن حكومة الجزائر ، أو التي لا تخضع لنزواتها . وأبناء هذه القبائل تحميهم نصوص اتفاقيات مكتوبة أو ضمنية . وفى مقدمة هؤلاء ، الميزابيون والبسكريون ، والقبائل العربية (الكبيرة) أو أبناء بلاد القبائل الذين سنتحدث عنهم فى فصل آخر من هذا الكتاب .

والفئة الأولى والثانية يرعى شئونهم وكيل لبلادهم مقيم فى الجزائر ، يلقب بالأمين ، وهو شبيه بالقنصل ، تعتز به الحكومة وله سلطة على مواطنيه تشبه السلطة التي يتمتع بها رئيس الطائفة اليهودية .

والزنوج يشكلون جزءا آخر من السكان ، ولو أنه صغير ، فهؤلاء فى الأصل ، من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم من داخل القارة أو من طرابلس ، ولكنهم سرعان ما يحصلون على حريتهم باعتناقهم الاسلام ، وهو عمل قلما يتأخر أحدهم عنه ، والمعروف أن الرقيق كان دائما هنا من النوع الخفيف وهو أقرب الى أن يكون نوعا من العمل فى مقابل العناية والحماية منه الى العبودية .

وإذا اعتبرنا عدد المولدين الصغير هنا ، يمكننا أن نستنتج أن التفرقة العنصرية موجودة هنا مثلما هي موجودة في الولايات المتحدة الامريكية ، وذلك خصوصا بسبب انحدار السود من أصل العبيد .

والصنوف الميكانيكية في الجزائر تنقسم الى عدة تشكيلات مهنية ، كما هي الحال في الدول الأوروبية . وكل تشكيلة تخضع لسلطة رئيس يلقب بالأمين ، وتشمل جميع شئون المهنة . وهي سلطة تعسفية .

والجزائريون يتمتعون بمهارة كبيرة في البناء بالآجر والحجر . ويمكن القول عنهم بأنهم بلغوا درجة من الكمال من الناحية العملية . وتطريز الجزائريين بارع ويدل على ذوق رفيع . والطلب على منتجاتهم قوي في الخارج . ولكنهم لم يتقدموا وراء المرحلة الأولى في صناعات النجارة والبرامل والحدادة والأحذية . وأما صناعة الساعات والمصوغات فيقوم بها هنا ناس من الأجانب .

وأهم الصناعات الجزائرية هي صناعات الحرير والصوف والجلود المدبوغة . وتبلغ قيمة المستوردات الجزائرية من مادة الحرير الخام التي يأتي معظمها من سورية 80 الف دولار سنويا . والمنتجات الرئيسية الجزائرية من الحرير هي الشالات والمناديل والأحزمة ونوع من العمائم والقماش الذي يطرز بالذهب وغير ذلك من المنتجات التي تستهلك محليا .

وهذه المنتجات الحريرية تباع بأسعار أعلى قليلا من مثيلاتها من المنتجات الفرنسية والايطالية . ولكن المنتجات الجزائرية أجمل وأمتن ، وألوانها جميلة ودائمة . وعلى العموم ، لا توجد بضاعة أروبية تفوق المنتجات الجزائرية في هذا المجال .

وكذلك تستعمل كميات كبيرة من الصوف لنسج البرانس والحايك والشالات والسجاد ، وهذه المنتجات كلها تستهلك محليا .

ونسج الصوف شائع ف كل عائلة ف المملكة ، ولو أنه يجري بطرق بدائية والانتاج عادة يستعمل لاستهلاك أفراد العائلة . ولكننا نجد أيضا مصانع فى جميع المدن وفى القرى الكبيرة لنسج الصوف (6) .

وتصنع فى الجزائر أيضا أنواع رفيعة وجميلة من الحصائر بحيث أنها تشكل فرشا للأرضية تشبه السجاد . وكذلك تصنع السلل فى الريف ومن مختلف الأنواع للاغراض المنزلية .

وصناعة اعداد الجلود ودبغها صناعة معروفة بكل أسرارها فى هذا البلد . والجلود المدبوغة والمصبوغة على الطريقة المغربية ، تبدو فى هذا البلد قريبة من درجة الكمال .

والمنازل فى الجزائر مخططة ومبنية كلها على نفس الطراز . ووصف المنزل الذي أسكنه شخصيا سيعطي فكرة عن جميع منـــازل مدينــة الجزائر ، التي لا تختلف الا فى الحجم وقيمة المواد التي بنيت بها .

وهذا المنزل مربع ويبلغ 64 قدم من كل واجهة وراتفاعه 42 قدما . وثلثه عبارة عن الطابق الأرضي حيث توجــد المخــازن والصهاريــج والاصطلاب والأقواس القوية التي تحمل المبنى .

وبقية البناية ، أي 28 قدما ، هي عبارة عن طابقين يقعان فى شكل دائري حول حوش مفروش بالمرمر سعته 30 قدما مربعا يغطيها بهو مفتوح سعته 6 أقدام ، ويقوم كل طابق على 12 عمود من المرمر الايطالي . وكل واحد من هذه الأعمدة يكون سندا لأثني عشر قوس اهليجي الشكل وكذلك يحيط بالحوش صفان من الأعمدة الرشيقة الجميلة ، والسقف

---

6 – وانتاج الاقمشة الخشنة شائع ايضا فى الارياف الجزائرية ، وأسعار هذه المنتجات رخيصة جدا ، وهي من حيث النوع تشبه المنتجات الالمانية التي تباع فى أسواق الولايات المتحدة الامريكية . هامش المؤلف .

مسطح وله حاجز يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام ونصف . ومن جهة البحر ، يوجد بهو آخر مقسم الى عدة شقق صغيرة .

ونتيجة لاتساع الحوش ، كانت شقق المنزل الذي له أربع واجهات ضيقة جدا وطويلة جدا . وهذا التفصيل والتصميم ملائم جدا بالنسبة لأحوال المناخ ، ولكنها ، بالتأكيد ، تكون غير مريحة فىمناخ أقل حرارة .

وجهتان من هذا المنزل تواجهان البحر ولهما نوافذ ، ولكن المنـازل فى الجزائر لا تتلقى الضوء عادة ، الا من الحوش ، لأنه من غير المسموح لمنزل يشرف على منازل أخرى أن تكون له نوافذ .

وجميع النوافذ ، التي تشرف منها على الشارع ، أو التي تشرف على الحوش مزودة بقضبان من الحديد ، الأمر الذي يتخذ معه المنزل شكل السجن .

والمنازل المزودة بالصهاريج تحصل بها العائلة فى موسم الأمطار على ما يكفي الحاجة العادية من الماء .

ومنزلي ، مثل المنازل المشابهة له ، الحق به منزل آخر أصغر منه ويدخل ضمن حيطانه ، ولكنه ، فيما عدا ذلك ، يشكل بناية مستقلة بنفسها . وهو يستعمل عادة لايواء النساء ، أو لأسرة تابعة لصاحب المنزل الكبير ، أو لسكن ابنه المتزوج . وكذلك تستعمل هذه البناية فى حالات أخرى مطبخا ، أو مكاتب ، أو حمامات الخ .

وهذا المنزل ليس له سوى باب واحد يفضى الى الخارج . وهذا الباب من القوة والمتانة بحيث يشبه باب قلعة ، والعائلة التي تسكنه تملك فى داخله كل ما تحتاج اليه ، وذلك دون أن يساورها الخوف من الاعتداء من الخارج . وجميع أرضية المنزل مفروشة بالمرمر ، أو بالآجر الذي تم

تلوينه فى هولندا . وجميع غرف الشقق غطيت حيطانها حتى ارتفاع حوالي أربعة أقدام بالفسيفساء الرفيع القيمة .

وفى جميع المنازل فى الجزائر ، توجد شقة صغيرة توضع عند الباب الخارجي ، خارج البناية.وفى هذه الشقة يستقبل رب البيت الزوارويتولى المعاملات ، لأن الأجنبي غير مسموح له بالدخول الى المنزل بسبب وجود النساء . والأجنبي لا يمكنه أن يدخل منزل عائلة جزائرية الا فى ظروف استثنائية . وهذه الشقة التي هي فسيحة وفاخـرة التأثيث ، تسمـى « السقيفـة » .

والحيطان الخارجية لجميع البيوت الجزائرية يعني بصياتتها وبطلائها بالجبس ، الأمر الذي يجعل المدينة تبدو من بعيد فى مظهر أنيق أخاذ .

لقد وصفت المنزل الذي أسكنه بكثير من التفصيل ، كما حاولت ، فى نفس الوقت أن أعطي للقاريء فكرة عن الفن المعمـاري السائـد فى الجزائر ، والآن ، أريد أن أقدم له فكرة عن قيمة المنازل .

المفروض نأ المنزل الذي وصفته قد كلف بناؤه 100ر000 دولار ، وأنا أدفع ايجارا سنويا مقداره 250 دولار .

والجزائريون فى أوقات الرخاء يحرصون على بناء منازل جميلـة . وبالتالي فمن السهل العثور على كثير من المنازل التي هي فى مستـوى منزلي ، أو أجمل منه ، فى الجزائر .

والرجال المسلمون محرم عليهم الصعود الى سطوح منازلهم بالنهار ، وبذلك تبقى هذه السطوح وقفا على النساء . على أن هذا المنع لا يشمل المسيحيين . ولذلك ، فنحن يمكننا ، فى بعض الأمسيات أن نلمح سحر

هذه الأسيرات الجميلات اللائي يستفدن من اللحظات القليلة التي يسمح بها لهن القانون لاستنشاق الهواء براحة فوق منازلهن .

لقد عرفنا أن شوارع مدينة الجزائر ضيقة ولا تتجاوز مجرد كونها ممرات ، بل ان بعض الشوارع لا يمكن أن يمر فيها فارسان على متن جواديهما دون أن يصطدم أحدهما بالآخر . ولكن هذه الشوارع مفروشة بالحجر ، ويعنى بنظافتها وصيانتها فى العادة ، ومع ذلك يوجد شارع نستطيع أن نسميه «الشارع الكبير» ، يمكن أن تمر فيه عربتان دون أن تلمس احداهما الأخرى . وهذا الشارع الذي يبلغ طوله نصف ميل متعرج ، وهو يمتد من باب الواد ، أو الباب الشمالي للمدينة حتى باب عزون ، أو الباب الجنوبي .

ففي هذا الشارع توجد المقاهي الرئيسية ودكاكين الحلاقين . وفيه يلتقي الذين يهتمون بالسياسة ويتناقشون ويتنبئون بالأخبار ، وهذا الشارع هو الذي يقصده الجزائري المسترخي ليزيل عن نفسه ما يساورها من الملل والضجر ، فيجلس فى المقهى الذي يفضله ويتناول قهوته ويتبادل الأخبار ويلعب الشطرنج . وفى هذا الشارع أيضا يوجد الدكان المهم الوحيد فى الجزائر ، على أنه قد يكون من الملائم أن نسمي هذا المتجر ، معرضا حيث توجد فيه معروضة مختلف الأشياء العادية . وهناك نشاهد اسكافيا يعكف بوقار ، وقد جلس القرفصاء ، على الأحذية التي يصنعها ، وكلها فى متناول يده بحيث لا يحتاج الى النهوض .

ومدينة الجزائر تنقسم الى أحياء منفصلة تغلق أبواب كل منها بعد صلاة المغرب مباشرة . وهذه الأبواب يحرسها بسكريون عمي ، ويقومون بفتحها للسكان الذين يضطرون الى الخروج من المدينة ليلا . وهؤلاء الحراس يخضعون لأوامر الشرطة .

وأوامر الشرطة تقضي بأن يحمل المسلم أو المسيحي الذي يسير فى الشوارع ليلا مصباحا مشتعلا . وأما اليهودي ، فيجب عليه أن يحمل ضوءا بدون مصباح ، وذلك لأن اليهود يتعرضون للتمييـــز عـــن المسلمـــين والمسيحيين فى كل مناسبة ، وكل شخص لا يمتثل لهذه الأوامر يعتقل ويعاقب .

هذا فيما يتعلق بأبواب الأحياء ، وأما أبواب المدينة فانها تغلق عند غروب الشمس ، وتفتح عند طلوعها فى الصباح . والجزائريون شعب يتعلق بالخرافات ويؤمن بأثر السحر ، وتدخل القوى غير الطبيعية فى مجرى الأحداث ، ومن هنا الاعتقاد الشائع بينهم بأن جيشا مسيحيـــا يرتدي زيا أحمر سوف يستولي على مدينتهم فى يوم جمعة . وهذا هو السبب الذي من أجله تغلق المدينة أبوابها يـــوم الجمعة من الساعة الحادية عشر صباحا ، حتى الساعة الواحدة بعد الزوال .

والمباني العمومية فى الجزائر تتكون من تسعة مساجد كبيرة ، هذا الى جانب عدد لا يحصى من المساجد الصغيرة ، وأربع ثكنات للجيوش التركية ، وثلاث مدارس عليا وخمسة سجون حيث كان العبيد المسيحيون يحتجزون فى الماضي ، وعدد من الأسواق الشرقية المفتوحة ، وقصر الدايات القديم .

ونظرا لأن المسيحي غير مسموح له بالدخول الى المساجد ، فأنا لا أستطيع تقديم وصف لها ، وأما المباني الأخرى ، فهي لا تختلف الا بحجمها وزخارفها عن المنزل الذي أسكنه والذي سبق أن وصفته .

وأما القصبة (أو القلعة) فهي مقر الدايات حاليا فى الجزائر ، وهي عبارة عن مدينة محصنة تشغل جميع القسم الأعلى من المدينة ، وحوالي عشر مجموع مساحة مدينة الجزائر والقصبة تحتوي على مسجد جامع

كبير وعلى عدد من القصور وجميع المرافق الضرورية بالاضافة الى مقر حامية عسكرية مهمة .

والمدارس التي تحدثت عنها عبارة عن مؤسسات دينية منها يتخرج علماء الدين ، واحدى هذه المدارس خاصة بالقبائل (سكان بلاد القبائل) دون سواهم .

والحمامات العمومية فى الجزائر تستحق الذكر فى هذا السياق ، ولكنه، نظرا لأنها تشبه بدقة حمامات القسطنطينية وحمامات القاهرة وغيرها من مـدن المشرق ، وأن هذه الحمامات قامت بوصفها الليدي مونتاجو ، وسفاري ، وغيرهما من الرحالين ، فان وصفها بعناية هنا قد يكون تكرارا مملا . ولذلك أكتفي بالقول بأن الحمامات كثيرة فى الجزائر ، وأنه يحتفظ بها بعناية ، وأن الاقبال عليها من جمهور السكان كبير .

وعلى الرغم من أن استرقاق المسيحيين فى الجزائر قد الغي منذ سنة 1816 ، فاني أرى من الواجب أن أقول كلمة عن المعاملة الفضيعة التي كانت تنتظر المسيحيين البؤساء الذين يلقون هذا المصير .

لقد ألغيت قرصنة الأفراد فى عرض البحر منذ خمسين سنة . وبعد هـذا التاريخ كان الأسرى يعتبرون عبيدا للايالة . وقبـل ذلك كانت سلطات الايالة دائما تحميهم من الأذى ومن سوء معاملة الأهالي ، وانه لمن الانصاف القول بأن حالتهم هنا لم تكن أسوأ من أسرى الحرب الذين يقعون فى أيدي البلدان المسيحية المتحضرة .

فان الاسيرات كن دائما يعاملن بالاحترام الذي يفرضه جنسهن . والأشغال التي كان يطلب الى الرجال القيام بها لم تكن مفرطة المشقة . والأسرى الذين يجدون كفيلا لهم يضمن عدم هروبهم ، كما نيسمح

لهم بحرية الخروج الى حيث يريدون فى مقابل دفـع مبلغ 75 سنتيم فى الشهر .

والواقع أنه يوجد عدد من المناصب العليا التي كان يشغلها العبيد الذين كسب كثير منهم ثروات طائلة من ورائها . والعبيد الموظفون فى القصر أو الملحقون بالشخصيات الكبيرة فى الدولة يعاملـون بأقصى اللطف . وبصفة عامة ، فان كل عبد له ميل الى الحركة والعمل ، يجد الوسيلة لكسب رزقه . وباختصار فانه وجد من العبيد من يغادر الجزائر وقلبه مفعم بالأسف والحسرة ، وكثير من هؤلاء يحملون معهم أموالا طائلة عند رحيلهم عن البلاد .

صحيح أن العبيد يعانون فى بعض الأحيان من نزوات ملاكم ومن سوء المعاملة من حراسهم ، ولكنهم فى ذلك يخضعون لقانون كوني عام ، وهو أن الرجل الذي يجد نفسه فى قيد الأسر ، هو رجل جرد من وسائل الدفاع عن نفسه وحرم من أي نوع من الحماية .

وفضائح أسواق النخاسة التي تحدث ضجة كبيرة فى العالم والتي قيل عنها الشيء الكثير ، كلها اتهامات لا أساس لها من الصحة ، منذ أن ألغيت القرصنة الفردية . وذلك لأن الأسير الذي يقع فى يد القراصنة انما هو ملك للحكومة التي قلما تبيعه ولا تتنازل عنه الا على سبيل الهبة والترضية ، وبالتالي فانه من أندر الأشياء أن يعرض مسيحي للبيع فى أسواق النخاسة . ومع ذلك يجب الاعتراف بأن التنازل عن العبد بطريق الهبة قد يؤدي الى عرض عبد مسيحي فى السوق ، وانه حدث أكثر من مرة أن بيع مسيحي ليهودي وأعاد اليهودي بيعه ، ولكنني أعتقد أن هذه الحالات نادرة جدا .

وأشد أنواع البؤس والشقاء الذي يعاني منه العبيد المسيحيين فى الجزائر هو برود حكومة بلده وجبنها ازاء حالتهم بحيث أنها تحرمهم حتى من الأمل فى الفدية يوما ما .

ولكنه يجب ألا نذهب بعيدا بحيث نشكر عمل الايالة فى الغاء القرصنة الخاصة . فان هدفها الوحيد من هذا الاجراء ، هو ضمان احتكار القرصنة للحكومة التي تتسم بروح من البخل يصم جميع تصرفاتها .

فان نظام الاحتكار الذي اعتمدته فى جميع المرافق وحظرها تصدير المنتجات المحلية الى الخارج قد أدى الى خراب التجارة الجزائرية وقضى على الزراعة فى البلد قضاء مبرما .

وصيد المرجان فى شواطيء البلد الشرقية ، وتصدير الصوف والجلود والشمع وحوالي 16000 كيل من القمح الى الخارج تحتكره فرنسا فى مقابل مبلغ 000 30 دولار سنويا . وكذلك يدفع باي وهران للحكومة المركزية مبلغ 15000 دولار سنويا فى مقابل احتكاره حق تصدير المواد المذكورة التي تنتجها ولايته . والتجارة فى الجلود والصوف والشمع تحتكرها الحكومة وتبيع هذا الاحتكار فى مزايدة علانية ويرسو المزاد على من يدفع أكبر مبلغ . وتصدير الجلود الخام وزيت الزيتون ممنوع قانونيا ، اللهم الا اذا كانت هذه الأشياء تتجه الى احدى الولايات فى الامبراطورية العثمانية . وكذلك يحتاج الأمر الى اذن خاص من الحكومة لتصدير الحبوب والحيوانات . ونتيجة هذا الحظر الذي يتسم بالغباء هي أن انتاج البلد من الزيت والحبوب ينقص ولا يزيد عن حاجة السكان فى بلد يمكن أن يعتبر بحق أخصب بلدان العالم . وقد وقع نقص فادح فى انتاج الحبوب فى سنة 8891 بحيث أن البلد قد

اضطر الى استيراد أكثر من 000 50 بوشل (7) من القمح لاستهلاك مدينة الجزائر وحدها •

والتعرفة الجمركية على الواردات من الخارج حددت بنسبة 5٪ متى كان المستورد يهوديا أو من الأجانب الذين ينتمون الى بلاد لا تربطهم معاهدات بالجزائر •

وفيما يلي جدول يمثل صادرات المملكة ووارداتها في سنة 1822 ، وهو منقول عن وثيقة رسمية أصلية . والجدول التالي يعطينا فكرة عن تجارة الجزائر •

الواردات في سنة 1822

	بالدولار الاسباني
ـ من بريطانيا ، منتجات الهندوبريطانيا	500ر000
ـ من اسبانيا ـ الحرير والسكر والفلفل والقهوة ومنتجات صناعية انجليزية وألمانية	300ر000
ـ من فرنسا ـ السكر والقهوة والفلفل والصلب والأقمشة وغير ذلك من المنتجات	200ر000
ـ من بلدان المشرق مادة الحرير الخام	100ر000
ـ منوعات الحرير من ايطاليا وفرنسا ، مجوهرات والاحجار الكريمة والماس	100ر000
المجموع	12ر00ر000

7 ـ مكيال للحبوب يساوي 8 جالونات ، او نحو 32 ليتر ونصف ليتر •

الصادرات في سنة 1822

	بالدولار الاسباني
ـ من موانيء المملكة في اتجاه مرسيليا وليفورن وجنوه 20 000 قنطار من الصوف بسعر 8 دولارات للقنطار	160٫000
ـ 10000 قنطار من الجلود الخام بسعر 8 دولارات للقنطار	80٫000
ـ 600 قنطار من الشمع بسعر 30 دولار للقنطار	18٫000
ـ ريش النعام ومنتجات أخرى قليلة القيمة	15٫00
المجموع	273000

وكذلك نرى أن الميزان التجاري الجزائري يشكو كل سنة من عجز مقداره 937000 دولار ، وهو مبلغ ضخم تدفعه للخارج دولة ليس لها موارد نشيطة تذكر . وتبعا لذلك ، فاذا كانت التجارة الداخلية في الجزائر لا تنتج ما يكفي للتعويض عن هذا العجز في التجارة مع الخارج ، فان من الواضح أن الأمر سينتهي باستنزاف موارد الدولة وبافلاسها . ولكن قيمة التجارة الداخلية مشكوك فيها ، وذلك لأن السلطة التي تعتمد على دخلها من عمليات النهب والسلب ، أهملت كلية العلاقات التجارية داخل افريقية . والجزائر أقل بلاد البربر حظا في هذه التجارة الداخلية .

توجد قافلة صغيرة واحدة تقوم بالتجارة بين وهران « وتمبكتو » عبر تافيلالت ، وهذه هي الطريق الوحيدة للاتصال مع هذه المدينة المحاطة بالأسرار . وكذلك توجد علاقات مستقرة بين الجزائر وبسكرة ووادي ميزاب الذي يقع على طرف الصحراء الجزائرية . وقد استقيت معلومات من سكان هذه المناطق مباشرة وأخبروني بأن اتصالاتهم بداخل افريقية لا تتجاوز غدامس التي هي مستودع تونس في الجنوب . وعن طريق

هذه القبائل تتصل الجزائر بالبلدان الافريقية الداخلية ، مثل تمبكتو والسودان ، مثلما تتجاوز طرابلس مع الداخل عن طريق سكونة ومرزق. ومن هذه البلاد تتلقى التبروريش النعام والتبر والجمال . في مقابل المصنوعات الأروبية والحبوب .

ومن طرابلس تتلقى الجزائر سنويا عددا من العبيد الذين تدفع ثمنهم بمنتجات البلد .

ولكنه بالنظر الى تدهور التجارة مع داخل القارة الافريقية ، وبالنظر الى منافسة تونس التي فهمت مصالحها بطريقة أفضل، وكانت دائما تعمل على تزويد نفسها بالبضائع الأجنبية ، وبالنظر الى منافسة طرابلس والمغرب ومصر للجزائر ، فانه من الممكن الاستنتاج بأن القسم الأكبر من العجز الذي لاحظناه في ميزان الجزائر التجاري يغطي بواسطته الأموال التي تؤخذ من المدينة ــ تلك الأموال التي لن تلبث أن تنفذ ، اذا لم تقم الحكومة بموازنة الميزان التجاري . والعامل الذي جعل هذه الحالة تستمر ، هو زيادة نفقات الحكومة على دخلها بمبلغ نصف مليون دولار سنويا تأخذه مباشرة من كنوز الخزانة .

لقد نمت نزعة في الجزائر خلال ثلاثة قرون الى السطو ونهب التجارة المحلية بدون حساب ، فكان من نتائج ذلك تجمع كنوز من الذهب والفضة وثروة عظيمة لدى الدولة في هذه المدينة . وكما سبق أن لاحظنا فان الجزائر تعتبر من أغنى بلدان العالم بالمال والمجوهرات . وهذا الرخاء الذي دام طويلا كان له أثر آخر ، وهو تجميل المحيط والضواحي التي تتمتع بجمال طبيعي نادر ، وزينت بالمنازل والفيلات التي يعتقد أن عددها يزيد عن الألف .

وبعض هذه المنازل آثار رائعة للفن المعماري المغربي ، ولكن كثيرا من هذه المنازل أهملت وتركت في حالة يرثى لها من أصحابها الذين

هجروها لاعتقادهم أنها مأهولة بالأرواح . وهو سبب يبرر فى نظر الجزائري الذي يؤمن بالخرافات هجرة منزله على الرغم مما يتسم به من البخل .

والجزائريون ليس لهم ذوق فى العناية بحدائق منازلهم ، ومنظر الحديقة من الخارج رائع ، ولكن مفعول سحرها يتوقف بمجرد الدخول اليها .

والنتيجة المفيدة للقناصل الأجانب الذين يقيمون فى الجزائر من هذه الوضعية ، هي سهولة عثور هؤلاء على منازل جميلة ، فى المدينة نفسها وفى الريف ، بسعر زهيـــد ، وذلك فى الوقت الذي يزودون فيه بخضروات وفاكهة من أرفع الأنواع .

ومدينة الجزائر ، كما سبق أن لاحظنا ، ليس لها ضواحي (8) وأما المناطق المجاورة لها امباشرة بحوالي نصف ميل ، فهو عبارة عن مقابر مندثرة ومنازل مخربة تبعث انقباضا فى النفس ، فان هذه المقابر لا يحيط بها أي سياج ، وبالتالي ، فهي مرتع للحيوانات ، وابن آوى الذي يتجول بحرية فى أرجائها باحثا عن ما يشبع نهمه فى جثث الأشخاص الحديثي الدفن . وأنا لم ألاحظ أي اشمئزاز فى الأهالي لزيارة هذه الحيوانات لمقر موتاهم الأخير . والعرب يحبون بناء قبور فخمة لتخليد ذكرى أقاربهم ، ولكنهم بعد ذلك يتركون هذه البنايات لنزوة الأحداث ، ولن تلبث أن تصبح خرائب ونهبا لكل غاد ورائح .

والقناصل الأجانب الذين يقيمون فى الجزائر لا يتصلون بالسلطات التركية أو بالأهالي الا بوصفهم قناصل . ومجتمع القناصل والوكلاء انما يتكون منهم وحدهم . ونظرا لأن قناصل الدول الأجنبية عادة رجال

---

8 ــ الواقع انه كان يوجد خارج باب عزون مستودع للقوافل التي تأتي من الداخل ، وهذا المكان لم يلبث ان اتسع العمران فيه واصبح بمثابة ضاحية .

أذكياء ومن ذوي المكانة والشرف ، ويعرفون أدق أسرار حكوماتهم . فان الاجتماعات التي تقع بينهم وبين عائلاتهم تجري فى جو من اللطف والتعاطف وهي من أجمل ما شاهدته فى حياتي . وطريقة معيشة القناصل تتسم بالأناقة والبذخ ، ولكنها خالية من الشكليات والمظاهر التي تضايق الآخرين . واذا شاء القدر ودعتني لشغل منصب غير الذي أشغله حاليا فى الجزائر . فسأحزن مدى الحياة لفقد ما أجده من لطف الكرم وسحر العشرة الطبيعية .

ان سهول متيجة التي يتصل طرفها بالمدينة : هي ، على الأرجح أجمل امتداد للسهول على وجه الكرة الأرضية ، سواء نظرنا اليها من زاوية اعتدال المناخ ، أو لجمال موقعها . وهذه السهول تمتد على مائة ألف ميل مربع ، وتحتوي على عدد لا يحصى من الينابيع التي تنزل من الجبال المجاورة وتسقيها بمياهها . انها تستطيع أن توفر الغذاء لعدد من السكان أكبر مما تستطيع أن تعوله أية بقعة مماثلة على وجه الأرض .

ولو قدر لهذا البلد العاثر الحظ أن يستعيد مصيره فى المستقبل ويعود الى التمتع بفوائد الحضارة ، فستكون مدينة الجزائر ، بفضل موارد سهول متيجة وخيراتها ، واحدة من أغنى المدن التي تقع على شواطيء البحر الأبيض المتوسط ، وهذه السهول الآن ، بفضل الاستبداد الصامت والضغط البربري الذي تمارسه حكومة الأتراك ، قد أصبحت صحراء قاحلة موحشة .

الفصـــــل الرابـــع

مختلف الامم ، أو القبائل التي تسكن المملكة ، اصلهم المرجح ، سلوكهم، شخصيتهم ، دينهم ، لغتهم ، الاتراك .

الأتراك شعب أصيل متميز عن غيره من الشـعوب ، ووجـودهم فى أفريقية بصفتهم غزاة محتلين ، ولكنهم مع مرور الـزمن ، اختلطـوا بالسكان الأهالي ، ولولا روافد المجندين الجدد من تركيـا الـذين يصلون الى البلد باستمرار ، لاندمج الأتراك فى السكان الجزائريين . والأتراك يحافظون بدقة على الشريعة الاسلامية ولكنهم يتحدثون اللغة التركية التي هي اللغة المستعملة فى الادارة الحكومية .

واسم السكان القديم «المور» (moors) اسم عام ، فيما يبدو لي ، لجميع سكان المغرب الأقصى وبلاد البربر ، ولكنه نظرا لأن كل ما يتعلق بتاريخ هذه البلاد غير محدد فى الأذهان ، فانني التزمت بأن لا أطلق هذا الاسم الا على السكان الجزائريين الذين أصفهم هنا .

فالمور الذين يشكلون أغلبية سكان المدن فى الجزائر اذا ، هم عبـارة عن خليط من السكان الافريقيين الأصليين والعـرب والمهاجرين من الأندلس ، وهم يتغيرون ويتطورون باختلاطهم بالأتراك وبالأفـريقيين الذين يسكنون فى الداخل ، بالمصاهرة والزواج ، وهذا العنصر الأخير يفقد خصائصه البدائية باقامته فى المدن بعض الوقت حيث تتغير عاداته ، وبالاختلاط بالعائلات الجزائرية .

ولغة «المور» هي لهجة محرفة عن العـربية الفصيحـة وهم يدينون بالاسلام ، وعلى الرغم من أنهم ينتسون الى عدة أجناس ، فهم يشكلون شعبا له شخصية قومية متميزة وهم فى هذا السياق يشبهـون الشعب البريطاني شبها قويا وكذلك شعب الولايات المتحدة .

واذا اعتبرنا ما يتمتع به هذا الشعب من الروح الخلاقة والشخصية المنوعة الجوانب ، يبدو لي أنه خليق بأن يبلغ ، متى واتته ظروف ملائمة درجة عالية من الحضارة .

والعرب يقطنون فى السهول ويسكنون فى الخيم ، وهم دائما يغيرون محل اقامتهم تبعا للفصول ولتوفر الكلأ لحيواناتهم .

وأخلاق العرب من النوع السائد فى مناطق البدو الرحل ، وهم بدون شك ، يتمتعون بفضائل أجدادهم الآسيـويين كمـا يحملون رذائلهم أيضا .

والسؤال عن مدى اختلاط العرب بسكان سهول موريطانيا الرومانية التي فتحوها واستولوا عليها ، سيظل دائما موضوعا للحدس والنقاش ، وهم يتحدثون اللغة العربية ويعتنقون الاسلام ، وملامحهم وأخلاقهـم وسلوكهم وعاداتهم هي نفس ملامح العـرب الآسيويين ، وسلوكهم وعاداتهم ، هو سلوك وعادات أولئـك العـرب الذين وصفهم عدد من الرحالة الأوروبيين المشهورين ، ومن ثم ، فانه من نافلة القول ، محاولة وصف العرب الآسيويين فى هذا الكتاب .

والعرب تابعون للحكومة الجزائرية ، ولكنه فيما عدا دفعهم الضرائب لهذه الحكومة ، هم فى حالة شبه مستقلين ويخضعون لسلطان شيوخهم ولقوانينهم الخاصة .

ومتى وجد العرب أن استبداد الباي وطغيانه لا يطاق ، يجلون الى منطقة ادارية أخرى أو الى الصحراء ، حيث لا تصل اليهم يد السلطة .

وبهذ هالطريقة خلت من سكانها كلية تقريبا ، سهول عنابة ، بولاية قسنطينة ، بسبب نزوح القبائل العربية عنها نتيجة لما تعرضوا له من الاستبداد الذي لم يكونوا يطيقونه ، وفى الحالة الأخيرة ، التجأ العرب الى مملكة تونس .

والمساعدون فى سلاح الخيالة من الجيش التركي فى قسنطينة ، هم من العرب .

والبسكريون يقطنون المناطق الجنوبية التي تقع على أطراف الصحراء ، وراء المنطقة التي تسمى «الشط» من المملكة . ان لهم سحنة سمراء ، وهم شعب جدي ، ويختلف كثيرا فى مظهره وفى سلوكه عن غيره من القبائل العربية والافريقية ، وذلك على الرغم من أنهم يتحدثون لهجة محرفة من العربية ويرجح أن يكون فرعا للجنس العربي ، ولكن سلوكهم تغير بسبب استقرارهم فى المدن واختلاطهم بالأفارقة .

وهذا الافتراض يعززه ما نعرفه من أن المنطقة التي يقيمون فيها تقع فى طريق الفاتحين العرب الذين غزوا هذا الجزء من أفريقية فى أمواج متعاقبة منذ القرن السابع الميلادي .

والبسكريون يخضعون لسلطان الجزائر ويعتبرون من أهدأ العناصر فى المملكة ، والسلطات تحتفظ بحامية تركية فى أراضي بسكرة تحت سلطة قايد ، وذلك على الرغم من أن البسكريين يتمتعون فى الجزائر بامتياز التبعية لأمين يقطن هنا وتعترف به الحكومة .

والبسكريون قوم مسالمون ومخلصون وكثيرا ما يستخدمون فى المنازل حيث يتمتعون بالثقة ، والبسكريون يحتكرون صناعة الخبز ،

وهم الذين يحملون الخبز فى الجزائر . وهم وحدهم الذين تستخدمهم الحكومة فى انجاز الأشغال العمومية ، والبسكريون أيضا هم الذين يعملون أيضا وسطاء فى التجارة بين مدينة الجزائر وغدامس .

ويبدو أن عاهة فقد البصر منتشرة كثيرا فى الأمة البسكرية ؛ وهي قد تكون راجعة الى مناخ بسكرة الصحراوي . وفى الجزائر عدد كبير من البسكريين العمي الذين يعهد اليهم بمراقبة الشوارع والأبواب الداخلية فى الليل ، والبسكريون لا يدينون بغير الدين الاسلامي .

وبنو ميزاب ، أو الميزابيون يعيشون فى منطقة تقع فى الصحراء ، فى جنوب الجزائر وعلى مسيرة عشرين يوما منها بالقوافل التي تمشي خمسة أيام على الأقل بعد حدود الايالة دون تصادف الماء فى طريقها .

أقول ان المسافة بين الجزائر ووادي ميزاب عشرون يوما ، وهذا قد يبدو غريبا ، وأنا على كل حال ، لم أتمكن من الحصول على معطيات دقيقة لهذه المسافة . فان البعض أكد لي أن هذه المسافة هي أربعون يوما .

والحكومة لا تستطيع أن تتخلص من شعور الخوف وسوء الثقة نحو جميع هذه الشعوب ، هذا اذا استثنينا شعب القبائل .

والنتيجة التي تدل عليها معلوماتي التي أعتقد أنها صحيحة ، هي أن هذه الأمة الصغيرة (بنو ميزاب) تتكون من خمس مناطق ، وهي : «غورديكا» «بيريجان» و «ورجلة» و «انجوسا» و «نديم» .

وهذه الأماكن مرسومة على خريطة أفريقية للميجر رومال Rennel بين درجة 0ر3 ودرجة 0ر33 عرض شمالي ، وهو شيء يتناقض تماما مع المعلومات التي جمعتها ، اللهم الا اذا كانت سرعة القافلة لا تتجاوز

15 ميلا فى اليوم ، ولكنه يبدو لي أن الموضوع ينطوي على أكثر من غلطة واحدة ، حيث أنه لم يقع أي قياس لتحديد موقع هذه المنطقة .

أبلغني طالب ينتمي الى وادي ميزاب ويقيم فى الجزائر أن كل قبيلة هناك يحكمها مجلس يتكون من اثني عشر عضوا من الأعيان (مجلس العزاب) الذين ينتخبهم الشعب ، وقال لي أن عدد سكان المنطقة يبلغ فى اعتقاده 250ر000 نسمة ، وهو تقدير يبدو لي مبالغا فيه ، وقال لي أيضا أنه لم يبلغ علمه أن احدى هذه القبائل دخلت فى حرب مع الأجانب ولو أن النزاعات بينها كثيرة ، وحسب ما قاله فان هذه البلاد لا تكاد تعرف هطول الأمطار الا فى النادر ، وهم يشربون من مياه الينابيع ، ويزرعون قليلا من الشعير ، ولكن التمر هو أهم انتاج البلد .

وحوالي هذه البلاد ، ترتفع جبال عالية يوجد فيها معدن الذهب . وسكانها يعرفون بالتمبكتيين ، ولا يرتبطون بصلات تجارية مع اي بلد فى داخل أفريقية ، فيما عدا غدامس وتافيلالت .

والميزابيون قوم هادئون نشيطون فى التجارة ومشهورون بالأمانة والنزاهة فى الأعمال ، وبلدهم يتمتع باستقلال تام عن حكومة الجزائر ، والامتيازات التي يتمتعون بها وتجارتهم تضمنها معاهدة مكتوبة وقعتها حكومة الايالة ، وهم فى الشؤون المدنية لا يعترفون بسلطة الا للأمين ، المزابي الذي يقيم فى الجزائر ، وأنا أعتقد أنهم يتمتعون بامتيازات كثيرة ، فالى جانب كونهم الوكلاء المعترف بهم والوسطاء فى التجارة مع داخل أفريقية ، فهم يتمتعون أيضا باحتكار الحمامات العمومية والقصابات والطواحن .

والميزابيون بيض اللون ولكن ملامحهم ومنظرهم العام تشبه ملامح العرب ومنظرهم . انهم يدينون بالاسلام ولكنهم يخرجون عنه فى مسائل يصعب علي شرحها .

ان الميزابيين يرفضون أداء الصلاة فى المساجد العمومية ولهم مسجد خاص بهم يقع خارج المدينة فى مبنى طاحونة ، وهناك يعقدون اجتماعاتهم ويؤدون الصلاة .

وقد علمت أن الذي يمنعهم من الصلاة فى المساجد العمومية هو أنهم يعتبرونها أماكن غير طاهرة ، بسبب شبكة المجاري التي تجري فيها القاذورات تحتها .

والميزابيون يتحدثون نفس اللغة التي يتحدثها الشعب المسمى « القبائل » ، ولكن لغتهم أنقى وأكثر أناقة ، وهذا بدون شك ، يرجع الى عاداتهم الهادئة والى ممارستهم حرفة التجارة .

ومن مجموع هذه الحقائق ومن وضعهم الجغرافى الخاص يمكن أن نستنتج أن الشعب الميزابي شعب أصيل لم يعتد أحد قط على أراضيه بالسطو والغزو .

ولكن ، ترى هل يمكن اعتبار الميزابيين أحفاد الجيطول ، أم مجرد فرع من القبائل نزحوا الى هذه المنطقة واستقروا فيها ؟ هذه مسألة محاطة بالشك .

والميزابيون يستوردون الى الجزائر العبيد والتبر وريش النعام والجمال والتمر (1) ، وذلك فى مقابل البضائع المصنوعة التي يصدرونها، ولكنني أعتقد أن هذه التجارة تجري فى نطاق محدود .

لقد أبلغني « الطالب » الميزابي الذي تحدثت معه أنه يعرف شعب الطوارق جيدا ، وأنهم متوحشون ، ويعيشون فى الصحراء ، ويتحدثون نفس اللغة التي يتحدث بها بنو ميزاب .

---

1 – لدى وصول قوافل الميزابيين الى الجزائر ، كثيرا ما اشترى منهم تمرا من ارفع الانواع يتكون من عناقد تغلف فى جلد معزة جاف ويتراوح وزنها بين ستة وثمانية أرطال ، وذلك بسعر اقل من دولار واحد . هامش المؤلف .

ولما أطلعته على الرسوم التي سجلها القبطان ليون فى رحلته لهؤلاء القوم ، تعرف عليهم فى الحال ، وبعدما تفرس فى هذه الرسوم مليا . قال لي أنها تمثل بدقة هذا الشعب .

والشعب الذي يستحق أكبر العناية من الدارسين لهذا القسم الشمالي من أفريقية ، هو شعب القبائل ، الذي كان عبر التاريخ يحافظ على استقلاله عن حكومة الجزائر . وهذا الشعب من بقايا النوميديين الذين لم يخضعوا قط للغزاة والفاتحين لأفريقية منذ عهد الفينيقيين الى يومنا هذا .

وتسمية « القبائل » مشتقة من الكلمة العربية « قبيلة » ، (جمع : قبائل) . وهذه التسمية تنطبق على وضع القبائل السياسي ، فهم جميعا يعيشون فى الجبال ، فى الأطلس الكبير وفى مختلف السلاسل التي تتفرع عنه والتي تحمل أسماء عربية مثل بني سنوس ، وبني زروال و (بني) زواوة وبني عباس . وكلمة « بني » فى العربية تعني : ينحدرون من أصل كذا .

وسكان كل منطقة من هذه المناطق الجبلية يشكلون دولة أو جمهورية ، مستقلة عن غيرها من المناطق .

وهذا الشعب يسمى أيا «البربر» ، ومن هذه الكلمة اشتقت كلمة « بارباري » الانجليزية التي تطلقها على هذه المنطقة من العالم ، ولكن هذه التسمية ليست سوى مصطلحا تاريخيا قديما .

والقبائل شعب أبيض لهم قامة معتدلة ، وعضلات قوية بعيدون عن السمنة ، ومثلهم مثل غيرهم من سكان الجبال ، هم قوم نشيطون يتسمون بالحيوية والأدب فى المعاملة وذو مزاج رائق ، والكثيرون منهم بيض البشرة ولهم شعر أشقر ويشبهون الفلاحين من سكان شمال أوروبا ، أكثر مما يشبهون سكان بقية مناطق أفريقية .

وقد ذكر الدكتور شاو قبيلة من هذه القبائل تسكن جبال أوراس التي تمتد فى جنوب قسنطينة ، حيث تقع لمبيز القديمة ، وبشرة سكـان هذه المنطقة على ما وصفنا .

وبعد الدكتور شاو ، قام بروس (Bruce) بزيارة هذه المنطقة وأكد ما ذكره شاو عنها وعن سكانها .

وهذه الحقائق ، مع ما لوحظ من عدم اتفاق صفاتهم الأدبية مع صفات الأفريقيين تجعلني أميل الى الاعتقاد بأنهم من بقايا الوندال (2) الذين هربوا أمام الجنرال بيلاسيريوس (3) والتجأوا الى الجبال المنيعـة . وهناك ضمنوا استمرار جنس الوندال .

ولكن عدم وجود أي أثر للغة التيوتونية فى لغتهم يقضي على هذا الافتراض ، وبالتالي ، يجب البحث عن أصلهم فى جنس آخر ، وذلك مع الاعتقاد بأن اختلاط دمهم بدم الوندال أمر مرجح .

والقبائل يسكنون الجبال دائما ويفضلون قممها ، حيث يقطنون فى قرى يسمونها « دشره » تتكون من أكواخ مبنية بالطين والوتل . واذا نزلوا الى السهل ، فلكي يواجهوا عدوا أو يقوموا بمغامرة .

وحكومتهم عبارة عن مزيج من الديمقراطية والاريستوقراطية لا تتمتع بما ينبغي من السلطة لكي تفرض قانونها على السكان الذين يميلـون الى العرب والشعب .

---

2 – (Vandales) شعب جرماني قام مع غيره من شعوب البرابرة بغزو الجول واسبانيا ثم زحف بقيادة جيسيري (Geisérie) (428 – 477 م) على افريقية الشمالية حيث ظل يعيث فسادا وتخريبا حتى طرده البيزنطيون فى سنة 534 م .

3 – قائد بيزنطي (494–565م) تحت جوستينيان ، وهو العامل الاول لدحر الوندال فى ايطاليا وصقلية وافريقية الشمالية ، وبذلك أعاد هذه الـولايات الى حكم الرومان .

ومنذ أقدم العصور والعادة جرت بأن يختاروا رؤوسهم بين أعيان البلد ، ولكن نفوذ هؤلاء يكون دائما محدودا . وقد قيل لي أن قوة العائلة والعائلات التي تتحالف معها . هي الأساس الذي يقوم عليه أمن الأشخاص واحترام الملكية .

ومع ذلك ، فان القبائل شعب نشيط وذكي . وهم يجنون من زراعة أرضهم وتربية مواشيهم كل ما يحتاجون اليه لمعيشتهم .

والقبائل ينسجون عدة أنواع من الأقمشة الصوفيـة لاستعمالهـم الخاص ، والفضل يرجع الى عملهم فى كل ما يستهلكه البلد من زيت الزيتون ، وهم يستغلون مناجم الحديد التي توجد فى جبالهم ويقومون بصهر ما يستخرجونه من الحديد الخام ، ليصنعوا منه عددا كبيرا من الأواني البسيطة والآلات الزراعية ، بل ان القبـائل يعرفـون صناعة الصلب الذي يستخدمونه لصنع عدة أنواع من الأسلحـة وسكاكيـن المائدة .

والقبائل يحسنون أيضا صنع بارود المدافع . ونظـرا لأن القبائـل لا يكادون يستهلكون شيئا من المنتجات الصناعية الأجنبية ، لا بد وأن تحتوي جبالهم على ثروات طائلة من المال العين .

والقبائل يشكلون الأغلبية الساحقة بين سكان الجزائر ، وسوف لا يمضي وقت طويل حتى تخضع العناصر الأخرى من السكان لقانونهم، متى أمكنهم تحقيق الوحدة بينهم .

ولكن القبائل ينقسمون الى عدد كبير من الجمهوريات التي تنهشها حروب مستمرة .

والحكومة التركية تعمل على اذكاء نيران هذه الحروب وتستغـل ميل القبائل الى الشقاق لتزيدهم انقساما وتفريقا حتى تضمن لنفسها السيطرة عليهم .

ولكن القبائل يحملون فى قلوبهم شعورا قويا الى الاستقلال لا يمكن قهره بحال من الأحوال . وتاريخ الجزائر لا يشير الى أن الحكومة المركزية قد تمكنت من اخضاع قبيلة واحدة اخضاعا تاما بقوة السلاح .

فان القبيلة لتقاوم مقاومة لا هوادة فيها ، ومتى أصبحت المقاومة مستحيلة تماما ، انسحبت من المعركة لتدخل فى حضن قبيلة أخرى .

والأتراك يعرفون روح الاستقلال والتصميم فيهم بحيث أنها تكتفي فى حالة الحرب معهم بالاحراق والتخريب فى أراضيهم وبذلك يضطر القبائل الى عقد الصلح معهم ، وأكبر القبائل وأشدها بأسا تقطن فى جبال قسنطينة .

وبنو عباس الذين يقطنون الجبال التي تمتد بين الجزائر وقسنطينة ، يستطيعون ، وحدهم ، تحدي جميع القوات العسكرية التي تملكها حكومة الجزائر ، والوقوف فى وجهها ، لو كانوا يعرفون كيف يستغلون الوسائل التي تحت تصرفهم .

والأتراك فى حرب دائمة مع القسم الذي يشرف على البحر من ولاية قسنطينة الذي يقطنه القبائل . انهم سادة المنطقة التي تمتد حول خليج عنابة ، ومن شدة عداوتهم للترك يعتبرون كل أجنبي يقع فى أيديهم تركيا ، ولا يكتفون بتجريده من ممتلكاته بل يقتلونه أيضا .

وبعد عقد اتفاقيات الصلح بين هذه القبائل والحكومة التركية ، أصبح كثير من أبنائها يقصدون الى الجزائر وضواحيها للبحث عن العمل ، وهم يشتغلون رعاة ومزارعين وخدما فى المنازل ، وفى الحالة الأخيرة يبدون كثيرا من الذكاء والنشاط والأمانة .

والحكومة التركية التي يغار رجالها من ذكاء القبائل وشجاعتهم ، تعارض فى استخدام هؤلاء فى أي عمل منزلي من أي نوع كان ، بقدر ما تمنع توظيفهم فى جميع المؤسسات العمومية فى مدينة الجزائر .

بل ان القناصل الأجانب أنفسهم لم يتخلصوا من الفكرة السيئة التي تسعى الحكومة التركية الى ترسيخها فى النفوس حول القبائل الا منذ مدة لا تزيد عن عشرين سنة ، وهم الآن يستخدمون القبائل فى منازلهم ، والأجور التي تدفع اليهم هي فى العادة دولارين ونصف دولار فى الشهر .

والقبائلي يتعلق بمسقط رأسه الى حد بعيد بحيث أن القناصل يجدون صعوبة فى الاحتفاظ بواحد منهم أكثر من ستة أشهر ، دون أن يراودهم الحنين لرؤية جبالهم مخاطرين بذلك بفقد مورد رزقهم .

وهذا الشعور بحب الوطن يستحوذ على نفوس القبائل كلية ، بحيث أنه حدث لي ذات مرة أنني فقدت جميع خدمي الذين تخلوا عني فجأة ، بحجة أن بلدهم تخوض غمار الحرب ، وهو يدعوهم لحمل السلاح .

والقبائل حين يجدون أنفسهم فى الجزائر يضطرون الى الخضوع لأحكام الاسلام ، خوفا من غضب السلطة ، ولكنني أعرف أنهم بمجرد ما يعودون الى بلادهم يتحررون من جميع القيود الدينية ، بل انه لا توجد لديهم أية أحكام أخرى تحل محلها .

وفى الجزائر توجد مؤسسة يتلقى فيها القبائل التعليم مجانا .

والقبائل يتحدثون لغة كل شيء يدل على أنها لغة قديمة أصيله ، ويقول الدكتور شاو انها فى جبال الأطلس المغربية تسمى لغة « الشلح »، وفى بقية بلاد البربر «الشاوية» ، ولكن هذا الرحالة لم يتمكن من اعطاء أية فكرة عن أصل هذه اللغة واستقاقها ، وأنا لا أعرف ما اذا كانت

هذه التسمية لا تزال معمولا بها فى الوقت الحاضر أم لا . وأنا حينما أتحدث فى الصفحات التالية عن هذه اللغة سأتحدث عنها باسم الشاوية ، ولكنه اذا لم يعتبر ذلك جرأة فى التجديد مني ، أميل الى تسميتها باللغة الليبية ، حيث أن هذه التسمية ، فيما يبدو لي ، أدق وأفضل .

ان جميع العناصر التي تقطن أفريقية (الشمالية) ، يمكن اعادتها الى الأصل الذي تنحدر منه ، وذلك فيما عدا القبائل ، فهم يختلفون كثيرا فى المظهر الشخصي وفى السلوك والشخصية عن جميع شعوب هذا البلد ممن يدعون الانتماء الى العنصر العربي ، وهم يتحدثون لهجة خاصة بحيث يجب البحث عن أصلهم فى الشعب الذي يسكن هذه البلاد قبل الفتح العربي .

والتاريخ يحدثنا أن هذا الجزء من أفريقية لم يخضع كله للقرطجنيين (الفنيقيين) ، فان هذه الأمة التي تحترف التجارة لم تكن تهتم الا باقامة قواعد تجارية أو اقرار مستعمرات على شواطىء البحر ، بحيث تسيطر على افريقية بنفوذها التجاري وحده .

وهذه الحقيقة تثبتها بوضوح الحر بالبونيقية الثانية ، حينما قامت روما بعقد معاهدات موجهة ضد قرطجنة مع الأمراء الوطنيين الذين كانوا السبب الرئيسي فى ضمان انتصار « سيبيون » ضد هانيبال .

وامبراطورية الفنيقيين فى أفريقية تشبه ، الى حد بعيد ، الامبراطورية البريطانية فى الهند ، فكلا الجنسين كان همه الأول التجارة وكسب المال .

ولكن التجربة أثبتت أن مثل هذه الحكومة لا تستطيع قوانينها ومؤسساتها ولغتها على الأمم التي تخضع لسلطانها أو تقع فى منطقة نفوذها .

وأما روما ، فقد انتهجت سياسة أخرى مناقضة لهـذه السياسة ـ سياسة وضعت بالضبط ، للتغلب على صعوبات من هذا النوع . فان مؤسساتها ولغتها كانت دائما تساير فتوحاتها ، ومع ذلك ، فان لغة الرومان لم تكن فى اليونان وفى آسيا ، بل وحتى فى قلورية Calabria الا لغة الاتصال بين الامبراطورية الرومانية وبين هذه الممالك .

ولما انتقل مركز الحكومة الى القسطنطينية ، حلت اللغـة اليونانيـة تدريجيا محل اللغة اللاتينية ، وانتهى الأمر بأن أصبحت هذه اللغـة نسيا منسيا ، وكذلك انمحى كل أثر للاتينية فى أفريقية الشمالية عقب الفتح العربي .

ونفس التطورات تصادفنا فى تاريخ انجلترا ، فقد عجز النورماند بكل ما أوتوا من البراعة والقوة عن فرض اللغة الفرنسية على هـذا البلد .

وبمجرد سقوط حكومة النورمانديين ، رجع الانجليز الى لغتهـم القومية واختفت لغة الفاتحين أمامها ، وكذلك توجد اللغة السلتية (4) فى عصرنا هذا فى عدد من الولايات الأروبية الشمالية ، التي انحسر عنها حكم الأجانب وسيطرتهم .

واذا كانت سياسة الرومان التي تتسـم بسـداد الـرأي وبالتعمق والمواظبة لم تتمكن بعد سيطرة دامت عدة قرون من فـرض اللغـة اللاتينية على القبائل الأفريقية ، فان من الممكن الاعتقاد بأن حظ قرطجنة

4 ـ السلت ، جماعة من الشعوب تتحدث لغة هندية اروبية . اكتملت خصائصها فى غضون الالف الثانية قبل الميلاد . وقد كان مقرهم الاول فى جنوب المانيا الغربي ، ومن هناك طردوا الى الجول واسبانيا والجزر البريطانية ووادي باو ، وقد اخضعهم الرومان الفترة بين القرنين 1 ـ 2 ق.م. واللغة السلتية لا تزال آثارها موجودة فى بروتانيا وايرلندا ووبلز .

لم يكن أحسن من حظ الرومان ، وبالتالي ، فان اللغة الشاوية كانت موجودة في أفريقية قبل وصول الفنيقيين اليها .

ولو كانت هذه اللغة من أصل فينيقي ، لكانت تنتمي الى فئة اللغات التي تعرف بالسامية ، ولكانت بطبيعة الحال ، قريبة الشبه بالعربية والعبرية .

انني لا أستطيع اصدار حكم في هذه القضية ، ولكنني أعتمد على رأي الدكتور شاو الذي يتفق مع أقوال العرب واليهود من سكان البلد .

واذا كانت الشاوية لا تنحدر من الفنيقية ، فان من المحتم أن تنتمي الى أصل قديم من أصول اللغات المهمة المعروفة ، وبالتالي ، فان مولد الشعب الذي يستعمل هذه اللغة لا بد وأن يكون من أقدم شعوب العالم .

ان رأي هيرودوت (5) بشأن أصل سكان أفريقية الشمالية طبيعي وبسيط في نفس الوقت ، ولا يحتاج الانسان لكي يخضع له لا الى السذاجة المفرطة ، ولا الى الخيال الجامح .

وعلى العكس من ذلك ، فان من الصعب قبول ما ذكره صالوست (6) اذا أمعنا النظر فيه ، من أن سكان هذا الجزء من أفريقية ينحدرون من جنود جيش هرقل الذي شتت شمله في اسبانيا .

---

5 – Herodote مؤرخ يوناني ولد في حوالي 484 وتوفي في سنة 420 ق . م . وقد
قام بعدة رحلات وروى في تواريخه جميع الحوادث الخرافية والحقيقية التي توضح
التباين بين العالم البربر (مصر وميداس والفرس) والحضارة الاغريقية .

6 – Salluste مؤرخ لاتيني عاش في الفترة بين 86 – 35 ق . م . ، فبعد مغامرات
وفضائح في روما ادت الى طرده من مجلس الشيوخ ، عين حاكما على نوميديا حيث
عمل خصوصا لابتزاز الاموال وجمع ثروة كبيرة ، وعقب وفاة القيصر تخلى عن
السياسة وخصص وقته للكتابة . ومن أهم كتبه التي وصلت الينا كتابه عن حرب
يوغورطة ، ومؤامرة كتيلينة .

والأعمدة المزعومة التي ذكـر بروكوب (7) أنها تحمل كتابه باللغة الفنيقية تقول بأن سكان البلد الأول ينتمون الى أصل من الكنعانيين الذين طردهم جالوت من بلدهم ، تبدو خيالية ، ورواية بروكوب غير جديرة بالثقة ، مثل رواية بلوطارخ (8) فى كتابه عن مشاهير الرومان بأن سيرتوريوس (9) قد اكتشف هيـكلا عظيمـا للجبـار انتيـوس يبلغ طوله ستين ذراعا .

انه لمن الصحيح أن أروبا ، ربما تعرضت فى عصر بعيد لغزو برابرة جاءوا من آسيا ، ومن أوروبا اتجهت هذه الحشود الى أسبانيا ثم الى أفريقية الشمالية ، وهذه الغزوات تسميها القصص التاريخية بغـزوات هرقل ، ولكن هذا الفرض لا يوجد ما يدعمه .

سأعرض فى ملحق خاص فى نهاية الكتاب قائمة تحتوي على ألفاظ باللغة الشاوية والقبائلية جمعتها بقدر ما تسمح به امكانياتي ، مستعينا بالألفاظ التي جمعها الدكتور شاو وغيره من الكتاب .

انني أشعر بعدم كفاية معلوماتي للخوض فى موضوع مهم مثل هذا ، ولكنه لما كان غرضي هو مجرد الفات نظر الذين هم فى وضع يسمح لهم بالتعمق فى البحث ، فأنا أعتقد أن الملاحظات التي أقدمها ليست فى غير موضعها .

7 – Procope مؤرخ بيزنطي ولد فى قيصرية فى فلسطين وتوفى فى حوالي سنة 562 م . كان كاتبا ومؤرخا لجوستينيان ، وله كتاب الحرب والقصص .

8 – Plutarque كاتب اغريقي ولد حوالي 50 وتوفي فى سنة 125 م ، قام باسفار فى مصر وايطاليا واقام عدة مرات فى روما قبل ان يعود الى اليونان ، وقد وضع عددا كبيرا من الرسائل والكتب ، وقد وصلتنا مجموعة من اعماله عن طريق الترجمة .

9 – قائد روماني (123 – 72 ق.م. وقد قام بثورة وحكم اسبانيا التي استقل بها عن الامبراطورية ، وانتهى الامر باغتياله بمؤامرة من مساعده بربينا Parpenna

10 – حذفنا هذه القائمة الصغيرة من الفاظ القبائلية حيث أنها لا ترتبط بموضوع الكتاب .

ان لغة الشاوية (11) هي لغة جميع القبائل التي تسكن جبال الأطلس ومختلف سلاسله التي تمتد فى الجزائر وتونس ، وهي أيضا لغة سكان الصحراء التي تمتد من المغرب الأقصى حتى واحة سيوه ، وذلك باستثناء المناطق التي فتحها العرب ودخلوا اليها . وهذه اللغة يتحدثها النـاس باختلاف يسير . بحيث يتفاهم بها سكان جميع المناطق الواسعة التـي يسكنها الشاوية ، مما يدل على أصالة هذه اللغة .

وعلى الرغم من أن القبائل يتمتعون بذكاء ولهم سلوك اجتماعي يتسم بالرقة واللين ، فهم لا يملكون استعدادا طبيعيا مثل العـرب لممارسـة التجارة . والاستقلال هو الأمر الوحيد الذي يشغل أذهانهم وهو غاية وجودهم ومتى نالوا الاستقلال يعيشون بكل فرح وسرور مع الفقر فى مناخ شديد القسوة .

تلك على الأقل ، هي حالتهم السياسية فى الوقت الحاضر . ونتيجة لمختلف الأسباب ، ربما تخلصوا من فائض السكان وهاجرت جماعات منهم لتستقر فى مستعمرات فى مناطق لم تكن مأهولة . ولكن مواقعهم المنيعة فى الجبال لم تكن لتغري الأجانب للاقامة معهم . وبهذه الطريقة احتفظت لغتهم بنقاوتها عبر الأجيال .

وشعب بهذا التكوين وليس له دين خاص به ، كان لابد وأن يشعر بالحاجة لاعتناق دين جيرانه ، ولا سيما وأن قبوله هذا الدين لا يكلفـه شيئا . والاسلام الذي لا يتطلب من معتنقه سوى معرفة بسيطة ، هو أفضل الأديان التي تلائم هذا الشعب الذي لا يزال على حالته الأولى . والقبائل يعتبرون الآن مسلمين بالاسم .

---

11 — جمع شاوي ، اي راعي الغنم . اهم جماعات الشاوية التي يسميها الحسن بن محمد الوزان ، Saaua هي شاوية تامسنا بالمغرب الاقصى الـذين يحتلـون المناطق الشمالية الشرقية لاسفل نهر ام دبيع ، وشاوية أوراس الذين يحتلون الكتلة الجنوبية للجبال التي تمتد فى جنوب قسنطينة ، بين باتنة وبسكرة ، وقد ذكر ابن خلدون ان عناصر من قبائل الهلاليين قد استقرت فى مناطق أوراس وامتزجت الى حد ما بالبربر من الشاوية .

ويؤخذ مما ذكــره الرحالون الموثوق بهم ، ومن بينهم هورنمان Hornemau وليون Lyon عن التوارق. أن هذا الشعب أبيض اللون ، كثـير العـدد ، شجـاع ميـال الى الحـرب ، وأن سلـوكهـم وعاداتهم المستقلة ، تختلف اختلافا كبيرا عن روح الضعة التي تسود فى بلاد فزان . وكذلك يسميهم هورنمان « الشعب العظيم »

وأما القبطان ليون ، فقد ذكر أنه لم يرقط جنسا من الرجال أجمـل من التوارق . وهم يحتلون ذلك البلد الوسيع الذي يمتد بين فزان ، وتيبستي والسودان ، وتمبكتو والمغرب الأقصى ، والحدود الجنوبيـة لبلاد البربر .

ولكن أكبر جزء من هذه البلاد عبارة عن صحراء شاسعة . وقد لاحظ هورنمان عندما تحدث عن واحة سيوه أن هذه الواحة تتحدث لغـة التوارق ، وقد عرض قائمة من الكلمات ليستدل بها على هذا الرأي . ونحن لا نستبعد وجود علاقة ما بين « سيوه » و « شاوية » . وكذلك نلاحظ أن احدى القرى الواقعة فى هذه المنطقة تحمل اسم « أغرمي » ، وهو اسم ربما اشتق من كلمة « اغروم » ، أي الخبز ــ بمعنى أن الخبز كثير فى البلد ، وبالتالي ، فهو كثير الخصب .

وقد لاحظ ليون أنهم يتحدثون لغة البربر الذين يسكنون جبال المغرب الأقصى وبلاد البربر التي يسمونها « ارضنا » ، ولكنه لا يقدم لنا أي نموذج لالفاظ لغتهم .

وقال انهم يفخرون بقدم لغتهم ويدعون أن نوحا كان يفضل الحديث بها عن أية لغة أخرى ، وأنهم لا يفهمون اللغة العربية اطلاقا ، وأنهـم لا يعرفون شيئا عن الاسلام ، وراء بعض العبادات ، ولكنهم مع ذلـك يتمسكون بهذا الدين كثيرا .

وكلا الرحالتين يذكر أنه توجد بين التوارق عدد من القبائل الوثنية .

ومن هذه الحقائق يتضح لنا بما لا يدع مجالا للشك أن التوارق شعب اصيل لم تتعرض أراضيه قط للغزو ، وأنه يحتفظ بلغة قديمة لها صلة وثيقة بلغة القبائل والشاوية . وهذا يفضي بنا الى نتيجة ، وهي أن هذه اللغة من اقدم لغات العالم ، وقد عاشت وتغلبت على غزو الفينيقيين والرومان والوندال والعرب .

ويمكننا أن نلاحظ عابرين أن الصعوبات التي كان يواجهها الغزاة في شرق ليبيا قد ساعدت هذه اللغات البدائية على الاحتفاظ بنقاوتها . ومصر التي تقدمها لنا أقدم التواريخ بأنها مملكة كثيرة السكان قوية الدولة ، وتحيط بها الصحراء من كل جانب لابد وأنها كانت تشكل عائقا لا يمكن التغلب عليه للبرابر الغزاة الآتين من آسيا . وهذه الحشود انما استقبلت أمواجها المتعاقبة أوروبا ، حيث كان يطرد بعضهم البعض الآخر بصورة وحشية أدت الى تدمير معالم الحضارة والمؤسسات والقضاء على اللغات ، والى هذا العامل يعود التنوع الكبير في اللغات في أوروبا التي هي قارة صغيرة .

وغزو جيش قمبيز (12) ليبيا بعد ما أخضع مصر ، هو الغزو الوحيد الذي نعرفه من هذا النوع ، ولكننا نعرف أيضا أن جيشه قد هلك كله في الصحراء . والمسيرة من الاسكندرية في مصر حتى واحة سيوة ، شيء أشبه ما يكون بالمعجزات .

على أن الطريق التي سلكها الرحالة هورنمان تثبت أن هذا أمر ممكن في الوقت الحاضر .

---

12 – قمبيز ، ملك الفرس ، وهو ابن سيريوس الثاني (الكبير) . كان يملك الفرس في غضون الفترة بين 528 – 521 ق.م. غزا مصر واحتلها واسس فيها الاسرة السابعة عشرة .

وكذلك يبدو أن الأمة الليبية قد بقيت على الحالة التي كانت عليها في العصور الغابرة التي لا تعيها ذاكرة التاريخ ، وأن الاستعمار الفنيقي والروماني بعده لم يكن له سوى تأثير أدبي .

وبعد هذه الأحقاب ، يقدم لنا التاريخ لمحات خاطفة عن هذه الشعوب من الرحل التي تسمى « النوميد » وعن موريتانيا ، الخ .

انها شعوب تقاوم دائما ، وتخضع دائما ، ولكن أحدا لم يتمكن من السيطرة عليها قط . هذه حالتها اليوم أيضا .

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفصـــل الخامــس

ان قراصنة البحر وقطاع طريق مثل الجزائريين الذين يدفعهم غرور البربرية والجهل الى احتقار الفنون والعلوم وما طرا على المجتمع المتحضر من التقدم ، لا يستحقون التفاتا من التاريخ لولا أن قدرا غريبا يخـل بالشرف ويهين الحضارة ، شاء ان يندمج هذا البلد فى نظام اروبا السياسي. فان هؤلاء القراصنة الذين تداعبهم وتشجعهم اكبر دولتين بحريتين فى العالم فى عجرفة واحتقار للقوانين الدولية قد جعلتا منهم اداة للقضاء على تجارة الدول الصغيرة ولضمان احتكار التجارة الدولية لهما .

ان فولتير يتحــدث عن قصف أسطول لويس الرابع عشر (للجزائر) كما لو كانت هذه العملية واحدة من المعارك الكبرى التي جرت فى عصر هذا الملك الذي ركبه الزهو والغرور .

ولكن قصف الأسطولين الهولندي والانجليزي فى سنة 1816 للجزائر لا يقل شهــرة عن الحادث الأول ، ولو هاتين العمليتين لم تكونا سوى مظاهرة وابرازا للقــوة ضد عدو محتقر ، ولم يكن لهما ســـوى قيمة الانذار للعبرة بأنه اذا احترم مصالح بريطانيا وفرنسا ، يمكنه أن يعبث بمصالح بقية دول العالم وينهب ويسلب بدون عقاب .

ففي كلتا الحالتين ــ وهذا شيء مؤكد ــ حاق الهوان بالقراصنــة وركعوا على ركابهم ، ولم يكن على المنتصر ، الا أن يبدي ارادته لكي يتخلص العالم من هذا الوباء . ولكن المنتصرين فضلوا على ذلك المحافظة على نفوذهم لدى مجالس الايالة ليتخذوا منهم أداة للأضرار بمصالح الدول الأخرى .

ومنذ ذلك الوقت دخلت الدولتان الكبيرتان فى نزاع . وكان لكل منهما حظ فى النجاح يختلف باختلاف الظروف .

من الصحيح أن حملة اسبانيا البائسة (1) وعجز البرتغال واهمالها فى حرب دامت عدة أعوام ضد هذه الدولة ، قد اسبغت عليها طابعا من الهيبة والوقار الذي لم يكن يقوم على أساس .

انني لا أجد تحت تصرفي الوثائق الضرورية لدرس تاريخ الجزائر القديم ، ولو وجدت مثل هذه الوثائق ، فماذا أتعلمه منها ، عدا المعارك الدامية التي هي من القسوة بحيث لا تثير الاهتمام فى الدول الأروبية الكبرى التي تعفو وتتغاضى عن ادعاءات هؤلاء البرابرة التي تخدش شرف الحضارة . ومن ثم ، فاني لا أتحسر لعدم امتلاكي هذه الوثائق .

ونيتي الآن تنحصر فى أن أقدم عرضا سريعا دقيقا لتاريخ حروبهم وعلاقاتهم مع الدول الأجنبية منذ سنة 1810 ، وهي الفترة التي كان يبدو فيها أن كبرياءهم وقوتهم فى ازدياد مستمر ، بينما كانوا على عتبة الانهيار .

عقب عقد الصلح الذي جعل من الولايات المتحدة دولة مستقلة فى سنة 1783 م ، اعتقلت السفن الحربية الجزائرية سفينتين أمريكيتين فى عرض المحيط الأطلسي . وبذلك أصبحت التجارة الأمريكية فى البحر الأبيض المتوسط أمرا مستحيلا .

ولكن البرتغال كانت فى تلك الآونة فى حرب مع الايالة ، وطبقا للسياسة المتبعة فى مثل هذه الحالات ، فقد احتفظت البرتغال ببارجة لحراسة مضيق جبل طارق لمنع السفن الجزائرية من الخروج من البحر الأبيض المتوسط ، وبذلك تحمى التجارة الأمريكية فى المحيط الأطلسي .

---

1 — فى سنة 1775 .

وقد ظلت التجارة البحرية الأمريكية تواجه التهديد حتى سنة 1793م ، حينما قامت الحكومة البريطانية فجأة بعقد صلح بين الجزائر والبرتغال .

وعقب ذلك مباشرة ، انتشرت السفن الجزائرية التي زالت العوائق أمامها الآن فى المحيط الأطلسي . وفى ضربات متتالية ، تمكنت فى غضون تلك السنة من اعتقال احدى عشرة سفينة تجارية أمريكية وأخذتها مع بحارتها الى الجزائر .

وهذا الحادث نجم عنه زيادة فى عدد الأسرى الأمريكيين فى الجزائر ، بحيث بلغ عددهم مائة أسير ، وقامت حملة كبيرة من الرأي العام فى صالحهم .

وفى هذه الفترة كانت الولايات المتحدة قد خرجت من المشاكل الناجمة عن حرب لاستقلال ، بفضل دستورها الذي كان يبدو أنه يبشر بمستقبل زاهر . ولكن البلد وقع تحت عبء دين قومي ، ثقيل وهو لا يملك قوة بحرية . وكذلك بدت هذه الحرب الجزائرية كما لو كانت كارثة وطنية .

وهكذا ظهر أن التفاوض مع الجزائر لتحرير الأسرى الأمريكيين المحتجزين عبيدا هنا فى الجزائر ، ولمنع أعمال أخرى للقرصنة ، هو الوسيلة الوحيدة أمام حكومتهم وقد اتخذت اجراءات طبقا لذلك .

ولهذه الغاية ، كلف الكلونيل هامفري ، الوزير الأمريكي فى لشبونة من قبل رئيس الولايات المتحدة بالدخول فى مفاوضات مع الجزائر .

وتبعا لذلك ، كلف جوزيف دونالدصون بالذهاب الى الايالة لعقد معاهدة صلح ، تعهدت الولايات المتحدة بموجبها بان تدفع للجزائر مبلغ 725000 دولار فى مقابل فدية الأسرى الأمريكيين وعلى سبيل الهدايا والمنح الخ . ، كما جرت العادة .

وكذلك وعد داي الجزائر من جانبه بأن يساعد الولايات المتحدة على الوصول الى عقد معاهدات صلح مع كل من ايالة طرابلس وايالة تونس .

كانت الحالة المالية والثقة فى الدولة متضعضعة فى الولايات المتحدة فى هذه الفترة بحيث أن الحكومة واجهت صعوبة كبيرة فى جمع المبالغ الضرورية للوفاء بالتزاماتها فى نطاق المعاهدة . وكان التأخير فى الدفع مثارا لمخاوف الايالة ، الأمر الذي دفعها الى تقديم مطالب جديدة .

ونظرا لأنه لا يدخل فى نطاق سلطتي مراجعة السجلات والوثائق التي تتصل بهذا الموضوع ، فاني أقتصر على ذكر الحقائق ذات الطابع العام والتي تفي بالعرض الذي حددته لنفسي .

ومهما يكن من أمر ، فان جويل بارلو الذي عين مفوضا مؤقتا من قبل الولايات المتحدة ، قد وضع حدا فى سنة 1796 لهذه القضية الشائكة بأن دفع المبلغ الذي نصت عليه المعاهدة التي عقدها دونالوصون فى السنة السابقة ، كما قدم تضحيات جديدة ، بحيث يصل المبلغ ، اذا أضفنا اليه الخسائر التي تكبدتها الولايات المتحدة لجمعه ، الى حوالي مليون دولار .

وبموجب هذه المعاهدة ، تعهدت الولايات المتحدة بأن تدفع ضريبة سنوية للجزائر مقدارها 12000 سيكوين (2) . واذا اعتبرنا الطريقة التحكمية التي تقدر بها الجزائر قيمة هذه الاشياء والتي تجد الولايات المتحدة نفسها مضطرة للموافقة عليها ، فان قيمة الضريبة تكاد تكون ضعف القيمة التي تحددها المعاهدة . وفيما يتعلق بالهدايا ، فان تقدير قيمتها يخضع لقاعدة عامة .

2 — Sequin عمله من الذهب ذات قيمة غير ثابتة كانت تستعمل فى الجزائر وفى الدوبلات الايطالية وفى تركيا ، ويبدو من ترجمة شالر لقيمتها انها كانت فى ذلك الحين تساوي فى الجزائر دولارين (بالدولار الاسباني) للقطعة .

وكذلك اضطرت الولايات المتحدة ظروف قاهرة لأن تدفع ضرائب للجزائر ، وعقب ذلك ، حينما اتسعت التجارة الأمريكية وازدهرت . زادت مطالب الجزائر وتنوعت ، فى الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تبدي استعدادا للاستجابة اليها لكي تتجنب انقطـاع العلاقات الذي سيؤدي الى وقوع خسائر فادحة فى تجارتها وفقدانها لسمعتها السياسية .

تلك كانت طبيعة العلاقات بين الجزائر والولايات المتحدة حينما قامت الايالة ، بدون أي استفزاز ، باعلان الحرب عليها .

والمعروف أن علاقات فرنسا بالايالة ، اذا لم تكن دائما ودية ، فقد كانت أكثر استجابة لمصالحها ، من علاقات الجزائر بأية دولة أخرى . فان فرنسا كانت أول دولة أروبية تعقد محالفة مع الباب العالي ، كما كانت أول دولة توقف القرصنة الجزائرية عند حدها ، بمعاقبة اعتداءاتهـم . وبذلك كله ، تركت فى نفوس البربر آثارا عميقـة وملائمة للسياسـة الفرنسية . وقد كان الرأي السائد عند الجزائريين هو أنه يجب عليهـم أن يمتنعوا فى جميع الأحوال عن اثارة أعمال العدوان مع فرنسا .

وقبل الثورة الفرنسية ، كانت فرنسا قد حصلت على احتكار صيـد المرجان فى ولاية قسنطينة ، فى مقابل مبلغ زهيد ، كما كانت تحتفظ بحامية فى القالة ، غير بعيد من عنابة . وكانت توجد شركة تحمل اسم « شركة افريقية » قد منحت ترخيصها لاستغلال هذه المادة ، وكانت تستغلها بالنشاط والحماس الذي يميز الأمة الفرنسية الذكية .

وكذلك كانت تجارة مرسيليا مع جميع البلدان الواقعة على شواطيء البحر الابيض الأبيض تجارة واسعة النطاق .

وبعدما أعلنت الجزائر الحرب على الدويلات الايطالية ، أصبح العلم الفرنسي فى البحر الأبيض لا يجد منافسا له الا علم انجلترا وأعلام الدول الشمالية .

لقد كانت السياسة الفرنسية نحو الجزائر تقوم على مقتضى الظروف : متبصرة ، مقنعة ، ملمحة ، معرضة ، مثابرة . وكان قناصلها ، عادة ، يتمتعون بدرجة عالية من الكفاءة ، ويعرفون جيدا مصالح بلدهم . وبفضل الهدايا التي يقدمونها فى المناسبات والرشـوة التي يدفعونها لشراء الحظوة عند أعضاء الحكومة الجزائرية وذوي النفوذ ، توصلوا الى غايتهم . والمال لم يكن يهمهم ، بل ان كرامة فرنسا نفسها ، لا تهمهم بقدر ما يهمهم تحقيق هدفهم الوحيد ، وهو الفوائد التجارية .

والجزائريون الذين يعرفون جيدا أسرار سياسة فرنسا ، سمحـوا لأنفسهم ، تبعا لذلك ، أكثر من مرة بالتعرض للسفن التي تحمل العلم الفرنسي ، وهم على يقين من أن المفاوضات التي تتلو تلك الأعمال ، ستكون نتيجتها ، حتما فى صالحهم .

ومع ذلك ، فان قناصل فرنسا لابد وأن يكونوا قد أوضحو للجزائريين أكثر من مرة وبصورة مفيدة ، أنه قد يكون التجرؤ على دولة قوية والتحرش بمصالحها أمرا خطيرا .

لم تنزل فرنسا قط الى حد أن تدفع ضريبة سنوية الى الجزائر ، ولكن الهدايا التي كانت تقدمها كانت دائما فاخرة وتقدمها فى الوقت الملائم . بل انه لمن المرجح أن يكون مجموع ما تدفعه فرنسا للجزائر ، أكثر مما تدفعه أية دولة أخرى . وقد كانت فرنسا دائما ، على استعداد لتقديم أية خدمة تدل على الخنوع ، وذلك حتى ولو كانت تنطوي عـلى خرق للقانون الدولي .

ولكن الثورة وضعت حدا لهذه الحالة . ولما قامت الجيوش الفرنسية بغزو مصر ، حمل الباب العالي الحكومة الجزائرية على اعلان الحرب على فرنسا . ولكن هذه الحرب لم تكن الا حربا اسمية كان الجزائريون يخوضونها وهم يعتقدون أنها ضد مصلحتهم .

ولما تولى نابوليون الحكم ، جدد معاهدة التحالف بين الجزائر وفرنسا .

وعقب ذلك ، التجأ الى استعمال النفوذ والتآمر ، والى استخدام ما بقي من الحظوة السابقة لفرنسا والى التخويف بقوتها ، فاضطر الايالة الى أن تطلق سراح العبيد الذين كانوا محتجزين فى الجزائر ممن ينتمون الى مختلف الدويلات الايطالية التي ضمها نابوليون الاول الى الامبراطورية الفرنسية ، والتي حصل على اعتراف بكونها تشكل جزء لا يتجزأ من الأراضي الفرنسية .

ولكنه ، مع مرور السنين ، وبظهور تفوق الأسطول البريطاني ، أخذ النفوذ الفرنسي فى الزوال تدريجيا . وكذلك حصلت بريطانيا على نفس الامتياز الذي فقدته فرنسا لصيد المرجان . وفى الوقت الذي أكتب فيه هذه الملاحظات تغلب نفوذ خصم فرنسا المتفوق عليها تغلبا يكاد يكون كليا .

وأما اسبانيا ، فانها ، بعد الصلح المهين الذي عقدته مع الايالة فى سنة 1785، وبعد الحملة البائسة التي قادها الكونت «أوريلي» (O'Reilly) فى سنة 1774 (3) وعمليات قصف الجزائر التي قام بها الأميرال بارسلو (Barcelo) حتى سنة 1784 ، والتي كانت عديمة الجدوى لقلة المواظبة عليها ، فقدت كل نفوذ فى الجزائر . وعندما امتلأت نفوسهم بالاحتقار لهذه الدولة التي لم تكن قادرة على استعمال ما لديها من وسائل القوة ، راح الجزائريون يكيلون لها الشتائم والاهانات والمعاملة التي أضرت كثيرا بمصالح هذا البلد . ومنذ ذلك الحين . كانت الجزائر تضطر اسبانيا لأتفه الأسباب الى دفع الأموال .

وهولندا تستحق فقرة خاصة لأنها أول دولة متمدنة تقوم بدفع الضريبة الى الجزائر . وكذلك كانت سياسة هذا البلد تجاه الجزائر ،

---

3 _ وقعت هذه الحملة فى سنة 1775 .

لا تقوم الا على الحسابات التجارية الوضيعة ولا يدخل فيها أي اعتبار للكرامة أو للنفوذ .

وأما سياسة الدول الشمالية تجـاه الجزائر ، فقد كانت تنحصر فى المحافظة على السلم بأفضل ما يمكن أن تحصل عليه من الشروط . وقد تأثر الجزائريون كثيرا بحسن نيات هذه الدول وبوفائهم بالتزاماتهم فى نطاق المعاهدات التي عقدت معهم ، وذلك على الرغم من أن الجزائريين يعاملونهم بالطريقة التي يرون أنها تخدم مصالحهم أكثر من غيرها (أو قل بالطريقة التي ترضي جشعهم) حيث أنه يحدث من جهتهم أن يتجاهلوا المعاهدات التي عقدوها معهم كلية .

وأما سياسة بريطانيا تجاه الجزائر ، فقد كانت تستهدف نفس الأهداف التي تسعى لتحقيقها فرنسا ، ولو أنها تلجأ الى وسائل غير الوسائل التي يستعملها خصمها . فمتى كان السلم يسود فى أروبا ، لا تفكر بريطانيا قط فى التملق لزيادة كبرياء الجزائريين وغيرهم . بل انها فى المناسبات العادية لتبدي كثيرا من البخل فى الهدايا التي تقدمها . والرجال الذين تختارهم لتمثيلها فى الجزائر كثيرا ما يكونون من طبقة عادية ولا يتمتعون الا بمعرفة محدودة . والوكلاء البريطانيون فى الجزائر يخضعون لسلطة قائد الأسطول البريطاني فى البحر الأبيض المتوسط ، أو لحاكم ميورقه ، أو جبل طارق ، أو مالطة .

ولربما كان عدم حصولهم على التعليمات الضرورية هو السبب الذي يجعل هؤلاء المعتمدين يقعون فى أخطاء ، لأنه حدث أكثر من مرة أن أستدعتهم حكومتهم بناء على شكوى من سلطات الايالة .

واذا كانت بريطانيا تنتهج سياسة تجاه الجزائر لا تتسم بنفس المثابرة والمواظبة التي تتسم بها السياسة الفرنسية ، وتستهدف نفس الاهداف التي تسعى لتحقيقها غريمتها ، فهي مع ذلك ، تطالب دائما ــ وليس

بدون جدوى ـ بنفس الاعتبار والمكانة التي تتمتع بها فرنسا . ولكن بريطانيا تتنازل فى أوقات الحرب لتتنافس مع غريمتها فى تقديم الترضيات والتزلف الى هؤلاء القراصنة ، وهو شيء يتناقض مع شخصيتها .

انني أميل الى الاعتقاد ، باعتبار الى السياسة الخاطئة التي تنتهجها بريطانيا تجاه الجزائر ، بأنها تنظر الى الجزائر تحت تأثير الانطباعات القديمة ، حينما كانت هولندا أكبر دولة بحرية منافسة لها ، وأنها لم تقدر الأهمية الحقيقية التي لهذه الدولة البربرية حق قدرها ، لأنني لا أرى بريطانيا تتآمر فى الجزائر ، عموما ، ضد أية دولة أخرى غير فرنسا .

وقبل سنة 1816 ، كانت بريطانيا تتدخل فى الجزائر لصالح أصدقائها ، وهذا التدخل اذ اكانت له فائدة التعجيل بالمفاوضات ، فهو قلما نجمت عنه شروط أفضل من الشروط التي يستطيعون الحصول عليها بدون تدخلها . ونحن لا نستطيع أن نفسر بطريقة أخرى الترضيات الغريبة التي تقدمها بريطانيا الى الجزائر التي لا تستطيع أن تحدث ضررا بمصالحها أو تقدم اليها خدمة جوهرية .

وليس من شك فى أنه لم تكن توجد ضرورة لقصف الجزائر بالمدافع ـ تلك العملية التي كلفت كثيرا من المال والأرواح ـ لو لم ينتش الجزائريون ، بسبب ما تلقوه من التملق والتزلف ، والترضيات التي جاءت فى غير أوانها ، ويتعلقوا بأذيال الأمل فى أنهم يستطيعون مقاومة الدول الكبرى ، وبالتالي ، انجلترا وفرنسا .

تلك هي الوضعية السياسية لمختلف الدول المعروفة والتي تحتفظ بتمثيل ديبلوماسي فى قصر الداي بالجزائر فى سنة 1810 ، حينما كانت البرتغال تناضل من أجل وجودها القومي ، بعد غزو الفرنسيين لهذه المملكة ، فى الوقت الذي يحتل فيه حلفاؤها جزءا هاما من أراضيها ،

وتجارتها تتعرض للقرصنة الجزائرية (وقد تمكن الجزائريون من أسر بارجة برتغالية دون أن يستعملوا السلاح ، وبطريقة مخزية للأسطول البرتغالي) .

وازاء هذه الأحداث ، صممت بريطانيا على استعمال نفوذها هنا فى الجزائر فى صالح حليفتها العاثرة الحظ ، وتحريرها ، على الأقل مؤقتا ، من مضايقات أعدائها لها .

وفى شهر مايو من نفس السنة ، سافر سكرتير المفوضية البريطانية فى ليشبونة من تلك العاصمة قاصدا الجزائر ، حيث أجرى مفاوضات مع السلطات الجزائرية لعقد هدنة ، أو بعبارة أدق لوضع المواد الأولى لمعاهدة الصلح بين البلدين. وتقضي هذه النصوص بأن تدفع البرتغال الى الجزائر مبلغ 690ر000 دولار ، مضافا اليه مبلغ 337ر000 دولار فدية للأسرى البرتغاليين المحتجزين فى الجزائر والذين يبلغ عددهم 615 أسيرا .

وكذلك تعهدت بريطانيا بأن تستمر على استخدام نفوذها فى الجزائر للحصول على عقد معاهدة نهائية للصلح .

وفى غضون السنة التالية ، دفعت البرتغال الفدية وأطلق سراح الأسرى البرتغاليين المحتجزين فى الجزائر .

وفى سنة 1812 ، عقدت بين البلدين معاهدة صلح نهائية بواسطة السيد أ . كورت A. Court الوزير البريطاني المفوض لدى دول المغرب ، دفعت البرتغال بموجبها الى الجزائر مبلغا اضافيا قدره نصف مليون دولار ، كما تعهدت بأن تدفع ضريبة سنوية قدرها 24ر000 دولار ، بالاضافة الى الهدايا القنصلية التقليدية وهدايا فترة كل سنتين .

وعقب عقد هذه المعاهدة ، عين قنصل انجلترا فى الجزائر قنصلا للبرتغال أيضا ، وهو لا يزال يقوم بهذه المهمة لدى كتابة هذه السطور، ويتقاضى من أجلها المرتب والمنح العادية .

وقد اشتهر سير وليام أ . كورت منذ ذلك الوقت ، بوصفه ممثلا لملكه ، فى مناسبتين هامتين . وأنا لا أشك فى أن التاريخ لن يهمله حينما يتحدث عن انحسار النفوذ الانجليزي عن القارة الأوروبية .

وفى نفس السنة (1810) حينما قضت معارك الحرب العنيفة على تجارة الدول المحايدة فى المحيط الأطلسي ، عجزت الدول التي تدفع الضرائب للجزائر عن ارسال العتاد الحربي والبحري الذي تنص عليه المعاهدات التي تربط كلا منها بالايالة ، وعند هذه النقطة ، كانت الجزائر فى حالة يأس وأوشكت على وقف أعمال قرصنتها ، ولكن هذا كان هو الوقت الذي اختارته انجلترا ، بدافع من السخاء لا يمكن تصوره ، لكي ترسل الى الجزائر ثلاث سفن كبيرة ، تحت حراسة بارجة حربية ، مشحونة بالصواري والكابلات والحبال والبارود للمدافع والرصاص ، وغير ذلك من مواد الحرب ، وقد وصلت هذه القافلة البحرية الى الجزائر فى 16 مايو 1810 م .

كان الجزائريون يعتبرون هذه الشحنات هبة بدون مقابل ، ولكن انجلترا طالبت بعد ذلك بدفع هذه البضائع . وقد ألح اللورد اكسموث (Exmoth) على هذا الطلب والمرجح أنه أجيب عقب قصف مدينة الجزائر فى سنة 1816 .

وفى سنة 1811 ، فاجأت سفينة للقرصنة الصقلية تدعى «روندينيلا» احدى السفن الشاطئية الجزائرية وأرسلت بها الى أعماق البحر ، وفى يوم 22 من نفس الشهر ، وصلت سفينة للقرصنة أسبانية بقيادة قبطان يسمى بأرسلو Barcelo الى مدينة عنابة لتتزود بالمواد الغذائية ، وقد اتهمت السلطات الجزائرية هذا القبطان بأنه هو الذي أغرق سفينة

الشواطئ الجزائرية . فطالب نائب القنصل الاسباني بنزع دفة السفينة وأشرعتها . ريثما يتم التحقيق في القضية والحصول على ترضيات كاملة .

وقد حاول القنصل عبثا اثبات براءته من التهمة التي وجهت اليه . فان الحكومة اصرت على اعتقاله .

ونظرا لأن القنصل لم يكن يثق في العدالة الجزائرية . فقد قرر السفر في الليلة التالية . تاركا اوراقه في حوزة القنصل الأسباني .

ولما علم الداي بهذه القضية . أمر بأن يحضر نائب القنصل الأسباني أمامه مثقلا بالسلاسل . وبذلك وضع هذا الرجل الذي يبلغ الخامسة والستين من العمر في قيود الحديد . ونقل الى الجزائر حيث استخدم في الأعمال الشاقة في المحاجر وعومل معاملة غير انسانية .

وفي نفس الوقت ألقي القبض على ربابنة سفينتين اسبانيتين كانتا في مياه الجزائر . وعلى ملاحي السفينتين . وكان مصيرهم نفس مصير نائب القنصل . كما احتجزت شحنات السفينتين التي تبلغ قيمتها 20 ألف دولار .

وفيما بعد . قدمت أدلة قاطعة تثبت براءة الاسبانيين مما عزي اليهم ، ولكن السلطة لم ترد سماع شيء منها .

وعقب ذلك . طالب الداي المملكة الاسبانية بدفع مبلغ كبير من المال . ثمنا لتجديد علاقات السلام بين البلدين .

وفي هذه الحالة التي تدعو الى القنوط ، التجأت الحكومة الاسبانية الى وساطة الحليف والصديق ، بريطانيا العظمى .

وقد كان من نتائج هذه التطورات أن أرسلت سفينة نقل المسافرين البريطانية ، «ذي اندوميتد» The indempted الى الجزائر تحمل 70,000 دولار جمعت بعناء فى الأنقاض والخرائب التي تركتها الحرب فى أسبانيا ، وقد كلف ربان السفينة ، الكومندان آدم باجراء مفاوضات نجح فيها بأن أعلن للداي أن أسبانيا لا تستطيع ، وهي فى وضعيتها البائسة الحالية ، أن تقدم اليه مبلغا أكبر .

وفى نفس الوقت ، ولتعزيز هذه المفاوضات ، رقي نائب القنصل الى منصب القنصل العام ، وسلمت الهدية التي تقدم فى مثل هذه المناسبة الى الداي ، بواسطة الحكومة البريطانية .

وعقب هذه الأحداث بوقت قصير ، استولت بريطانيا على جزيرة صقلية ، ورأت أن تحمي الملاحة الشاطئية وسكان شواطىء الجزيرة من غارات القرصنة الجزائرية ، بحجة أن الموانىء الايطالية التي تحتلها فرنسا ، تتمتع بنفس الحماية .

وكذلك استخدمت بريطانيا نفوذها لدى الجزائر لهذه الغاية ، وحصلت على هدنة لصقلية ، كما حصلت على تحرير الصقليين الذين كانوا أسرى محتجزين فى الجزائر .

انني لم أتمكن قط من معرفة ما اذا كانت بريطانيا قد اشترت هذه الهدنة أم أنها كانت مجانا .

وفى شهر أبريل 1812 ، تلقى الداي رسالة من الأمير الوصي على عرش انجلترا ، وحولها الى الكولونيل لير قنصل الولايات المتحدة العام فى بلاد المغرب اذ ذاك ، بحجة رغبته فى الحصول على ترجمة دقيقةلها باللغة الفرنكية Lingua Franca ،وفيما يلي نسخةمنهذه الرسالة كما نقلها القنصل الأمريكي فى حينه :

« يصرح الأمير الوصي على العرش باسم والده ، جورج الثالث . بأن المرض الطويل الذي يعاني منه الملك قد حال بينه وبين الرد على رسالة الداي التي نقلها الى لندن سفيره ، الحاج حسن ، وهو يعرب عن أوثق علاقات الصداقة للداي ، تلك الصداقة التي تقوم على المعاهدات التي تربط بين البلدين ، ويؤكد للداي أنه سيحمي عاصمته بواسطة أسطوله ، ما دامت علاقات الصداقة قائمة بين الأمتين ، وهو يصرح بأن الأسطول البريطاني هو سيد جميع البحار ويلقي الرعب فى الدول البحرية ، وأن كل من يحاول الوقوف فى وجهه سينتهي الأمر باخضاعه .

يرجو من الداي ألا يسمح لأعداء بريطانيا العظمى بالمساس بعلاقات التفاهم والانسجام القائمة بين الأمتين ، وألا يصغى الى أقوالهم الخداعة .

وسفيره سيبغله مدى حسن استقباله ومعاملته فى انجلترا .

وقد وجه اليه هدايا ، وهي عبارة عن بعض المنتجات الصناعية للمملكة (البريطانية) .

« حرر فى قصر كارلتون فى الرابع من شهر يناير ، 1812 » .

فهذه الوثيقة الخطيرة الشأن والتي وقع عليها الأمير الوصي على العرش وصدق على توقيعه اللورد ليفربول ، والتي تعبر عن التزام بريطانيا بمحالفة للدفاع عن الجزائر ، بشرط أن تحترم الايالة معاهدات الصداقة القائمة بين البلدين ، تدل بوضوح على مدى تقدير بريطانيا ورعايتها لهؤلاء البربر .

وفى هذه الفترة ، بلغ الجزائريون قمة مجدهم وقوتهم ، فكانت الدول البحرية تسعى للحصول على الحظوة لديهم بدون فتور ولا كلل،

وقد اعتقدوا أنهم باستيلاءهم على بارجة أروبية فى معركة على انفراد ، قد أثبتوا تفوقهم البحري على أسس متينة .

وكذلك انتصر الجزائريون فى حربهم ضد تونس انتصـارا مبينا ، وأسروا فى احدى معارك هذه الحرب بارجة أخرى . بل انهم اجترؤوا على اهانة الباب العالي بأسرهم عددا من السفن اليونانية التي تحمل علم السلطان .

كان الجزائريون عند هذه المرحلة يتبجحون بأنهم أعظم قوة بحرية بعد بريطانيا العظمى .

وفى هذه الظروف الملائمة ، قرر الداي اعلان الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد كانت هذه السياسة تنطوي على العوامل التي أدت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، الى أعظم الكوارث التي واجهتها الجزائر حتى ذلك الحين ، والتي لن تنتهي آثارها ، على الأرجح ، الا بفقد هذا البلد استقلاله والقضاء على قرصنته .

لقد اتخذت السلطات الجزائرية هذا الاجراء بناء على نصيحة بعض اليهود الذين كانوا يتمتعون بحظوة كبيرة لدى الداي فى تلك الآونة ، والذين كانوا على رأس شركة تجارية خطيرة الشأن .

فقد أخبر هؤلاء اليهود الداي بمدى اتساع نطاق التجارة الأمريكية وكيف أن الأمريكيين يتحملون بدون امتعاض أعمال القرصنة التي تقوم بها سفن الدول المتحاربة ضدهم ، واستنتجوا من ذلك ، بطبيعة الحال ، أن الجزائر تستطيع أن تقوم بنفس الأعمـال ، بحيث سينتهـي الأمـر بخضوع الولايات المتحدة ، وبحصول الايالة على مبلغ كبير من المال ، فى مقابل تجديد معاهدة السلام معها .

ونحن اذا نظرنا الى الأمر على أساس الحسابات الواقعية التي تقوم عليها الشؤون البشرية ، فسنجد أنه من غير الممكن اتهام هؤلاء اليهود بارتكاب خطأ كبير فى تقديرهم ، وهم لم يكن فى امكانهم أن يعرفوا أنهم فى الوقت الذي يسدون فيه نصائحهم للداي ، كانت الولايات المتحدة قد أعلنت الحرب على بريطانيا العظمى . وهذا الحدث من شأنه أن يدفع انجلترا الى اخراج سفنها الحربية من البحر الأبيض ، وأن مصير الحرب سيتوقف على حوادث لا تستطيع الجزائر أن تدعي أية سيطرة عليها .

واللحظة التى اختارها الداي لاعلان الحرب على الولايات المتحدة ، قد أسبغت على هذا الاجراء طابعا من العدوان الواضح والمتعمد .

ففي 17 نونيو 1812 ، وصلت سفينة أمريكية تسمى «اللغاني» الى ميناء الجزائر تحمل على متنها مقابل الضرائب السنوية المستحقة للجزائر من الذخيرة والعتاد البحري ، وقد استقبلت السفينة بمظاهر تدل على الرضا ، وبدأت عمليات تفريغ شحنتها ، وبعث الداي بمن يحمل اليه جميع فواتر المشحونات ، ولما اطلع عليها أبدى كثيرا من السخط والغضب ، لأنه لم يجد كميات البارود والكابلات التي طلبها ، كاملة .

وقد زاد غضب الداي حينما عرف أن السفينة نفسها قد حملت كميات من البارود لسلطان المغرب الأقصى فى جبل طارق ، كما حملت على متنها بضائع أخرى لشركات وأفراد ، وقد تظاهر بأنه يعتبر هذا السلوك من الولايات المتحدة مهينا لشخصه .

وعقب ذلك ، أمر قنصل الولايات المتحدة بأن يدفع المبلغ المستحق للايالة على بلده بالمال العين ، وبأن يرحل هو عن الجزائر فى الخامس والعشرين من نفس الشهر ، برفقة عائلته وجميع المواطنين الأمريكيين الذين يعيشون فى الجزائر .

وأما القنصل الذي كان يدافع على ما كان يعتقد أنه مصلحة بلده ، فقد احتج بكل قوته على هذا الاجراء التعسفي ، ولكن بدون جدوى ، وقد اضطر الى الرحيل فى اليوم المحدد .

وفى منتصف شهر سبتمبر التالي ، أسر القراصنة الجزائريون سفينة صغيرة ذات ثلاث صواري ، تابعة للولايات المتحدة ومعها بحارتها ، وهذه الغنيمة الضئيلة القيمة هي كل ما حصلت عليه الجزائر نتيجة لاعلان الحرب بكثير من العجرفة والكبرياء ، مع الأمل فى الحصول على غنائم كبيرة .

وفى السنة التالية ، قامت الحكومة الأمريكية بمسعى لتحرير أسرى السفينة فى مقابل دفع الفدية ، ولكن الداي رفض الدخول فى أية مفاوضات لهذه الغاية ، مصرحا بأنه يعتبر هؤلاء الأسرى أكبر قيمة من أية فدية .

ذكرنا أن الامبراطور نابليون قد حمل دول المغرب على احترام الأشخاص وممتلكات سكان الجزر وشواطىء المناطق (الايطالية) التي ضمها الى الامبراطورية الفرنسية . ولكنه بعد أفول نجمه ، عاد هؤلاء البربر الى ممارسة عمليات القرصنة ضد الشواطىء الايطالية التي بقيت بدون دفاع .

وكذلك تعرضت هولندا التي انفصلت عن الامبراطورية الفرنسية ، وانضمت الى الحلف الذي شكل من أجل اعادة النظام والشرعية فى أروبا ، لغارات الجزائريين وهجماتهم .

والسويد التي انضمت الى نفس الحلف ، وجدت نفسها فى وضعية مماثلة لوضعية هولندا ، وذلك لأن الجزائريين تذرعوا بحجة التأخر فى دفع الضريبة السنوية ، وأعطوا أوامر بالاستيلاء على السفن

السويدية ، وفى شهر يوليو 1814 ، استولوا على سبع سفن تابعة لهذا البلد وتحمل علمه واقتادوها الى ميناء الجزائر .

كانت شحنات أربع من هذه السفن تتكون من الأقمشة ، والملح ، والقهوة ، والسكر الخ ، قدرت قيمتها بنصف مليون دولار ، وقد استولت عليها السلطات الجزائرية .

ولكنه فى نفس الوقت ، وصلت السفينة السويدية التي تحمل الضريبة السنوية وتحرسها بارجة حربية ، وقد تمكن السويديون من تجديد معاهدة السلام مع الايالة كما أعيد اليهم جزء من الأسلاب التي أخذت والتي أمكن التعرف عليها ، باعتبارها ملكا للسويد ، وأما البضائع الأخرى التي تقدر قيمتها بنصف مليون دولار ، كما ذكرنا ، فقد وزعت نهبا بين القراصنة .

وفى نفس الجولة للقراصنة ، أسر الجزائريون سفينتين أرسيتا فى ميناء جبل طارق ، ومن هناك ، أخذهما تحت حمايته ضابط من البحرية البريطانية ، وأرفق بهما سفينة حربية ، حتى وصلتا الى ميناء الجزائر فى شهر أغسطس من نفس السنة ، ولكن احدى السفينتين كانت تحت حماية العلم البريطاني ، ولذلك أطلق سراحها فى الحال ، وأما الأخرى ، فقد كانت تابعة لأسبانيا ، وأعلن أنها غنيمة شرعية .

ربما كانت سنة 1814 ، أعظم السنوات قيمة فى تاريخ الحضارة ، فان هذه السنة قد شهدت نهاية حرب طويلة دامت عدة سنوات ،وانجرت اليها جميع الدول الأروبية ، كما شهدت انحلال أعظم تكتل للدول فى تاريخ الانسان (امبراطورية نابوليون) ، وحكومة الولايات المتحدة المسالمة قد جرفها هي الأخرى تيار الحرب ضد بريطانيا التي عقدت معها معاهدة صلح فى 24 ديسمبر من نفس السنة .

وبذلك انطفأت آخر شرارة للحرب التي نشرت الخراب والدمار في الممالك المسيحية .

لم تبق سوى الجزائر وقراصنها الملعونين . لتعكر صفو السلام والهدوء الذي عاد الى الانسانية .

وفي نهاية هذه السنة (1814) . عقد مؤتمر في فينا ضم جميع الدول المتحضرة في القارة الاوربية . وهناك ارسيت قواعد واسعة ومتينة للعدالة والانصاف والاستقلال ورخاء جميع الامم

وفي نطاق هذا المؤتمر تألفت لجان (في الاصل : مجالس) لمناقشة جميع المسائل المهمة ودرسها . وقد استمرت جلسات مؤتمر فينا حتى السنة التالية حين قطعها حادث آخر خطير الشأن .

هل حقق هذا المؤتمر أعظم الآمال الكثيرة التي علقت عليه ؟

ذلك سؤال لا يعنيني البحث عن جواب له في هذا الكتاب .

ولكنه نظرا لأن مؤتمر فينا قد عالج مسائل ذات طابع عام مثل مسألة تحريم الرق والتجارة في العبيد الافريقيين (وهي مسائل كانت تساند حلها دولة بحرية كبيرة لاعتبارات انسانية ودينية وانسانية) فقد كان من الطبيعي ان ينتظر الناس من هذا المؤتمر ان يبحث ادعاءات هؤلاء البربر المناقضة للسلوك الاجتماعي والذين كانوا حينئذ يحتجزون اكثر من ألفين من الأوروبيين في قيد العبودية هنا . ويتخذ اجراء بتحريم القرصنة ، التي هي لطخة مشينة للحضارة ، الغاء كليا .

كانت بريطانيا قد ألقت بكل ثقل نفوذها بحق في هذا المؤتمر وأيدت فكرة الغاء الرق الأسود . ولكن فرنسا وأسبانيا والبرتغال كانت تعارض قرارا بهذا الشأن بدافع من مصالحها الخاصة . ولكن بريطانيا لم تعارض سوى معارضة مائعة فكرة الغاء استقلال كل من ايطاليا

وبولندا والبندقية وجنوة ، بل وحتى تقسيم حليفتها . دولة ساكسون القديمة ، لارضاء شهوة حلفائها وشرهم .

ولكن بريطانيا كانت تصغى بأذن صماء لكل اقتراح قدم أمام المؤتمر يستهدف تحريم قرصنة بلاد البربر ، ولما سئل رئيس وزراء بريطانيا فى البرلمان بعد ذلك ، بشأن هذه القضية ، ادعى أن معاهدات بريطانيا مع بلدان المغرب هي التي تبرر هذا الموقف ، ولكن المؤرخ الذي عالج مؤتمر فينا ، لم يتردد فى أن يصف موقف الوزير البريطاني فيه ، بأنه قد أوحت به الأنانية ويقوم على ضغط المصالح (4) .

على أن حدثا أخذ يتطور وسيكون من شأنه أن يدحض آراء هذه الدولة فى صالح القرصنة البربرية ، ويجعل المزيد من التأييد لها فى المستقبل عملا لا طائل وراءه .

وبمجرد التصديق على معاهدة «خانت» Ghent قرر الكونجرس الأمريكي الذي كان مجتمعا انه لم يعد يحتمل دفع الضريبة للجزائر ، وأعلن الحرب على الايالة ، واتخذ الاجراءات الضرورية لارسال قوات بحرية الى البحر الأبيض المتوسط لكي ترغم الجزائر على عقد الصلح ، أو تقوم بحماية السفن التجارية الأمريكية ضد القرصنة .

وفى هذه المناسبة وقع اختيار رئيس الولايات المتحدة على شخصي وعلى القبطان بينبريدج (Bainbridge) والقبطان ديكاتور (Decature) قائدي الأسطول وكلفنا وكلفنا بمهمة عقد صلح مع الجزائر .

أبحرت من ميناء نيويورك مع الضابط الأخير فى شهر مايو سنة 1815، وكانت فرقة الأسطول التي وضعت تحت قيادة الأميرال ديكاتور تتكون

---

4 ـ انظر الملحق ج .

من ثلاث بوارج حربية وسـلوب (مركب شراعي واحد الصارية) وسفينة حربية ذات صاريتين وثلاث سكونات .

دخلنا الى البحر الأبيض فى بداية شهر يونيو ، وفى يوم 16 من نفس الشهر ، التقينا ببارجة جزائرية فى عرض البحر ، مقابل رأس جات وأسرناها (5)

وبعد ذلك بيومين أسرنا سفينة حربية جزائرية ذات صاريتين . وفى 2 من الشهر ، وصلنا الى عرض البحر المقابل للجزائر .

وطبقا للتعليمات التي نحملها ، اقترحنا على الايالة الشروط التي تستطيع عـلى أساسها تجديد معاهدة السلام مع الولايات المتحـــدة الأمريكية .

لقد أخذ الجزائريون على غرة بهذه الأحداث ، ونظرا لأن أسطولهم كان يتجول فى عرض البحر فى تلك الأثناء ، فقد قبلوا ، تقريبا ، جميع الشروط التي أمليناها عليهم ، وبدون مناقشة . وقد تم توقيع المعاهدة الجديدة يوم 30 يونيو .

وفى مساء نفس اليوم ، نزلت الى البر فى الجزائر بوصفي قنصل الولايات المتحدة ، وهو اللقب الذي خلعه علي رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، فى حالة توقيع معاهدة السلام .

لقد تعاقبت الأحداث بصورة سريعة أجد صعوبة فى تصديقها . وكون الجزائر ترضخ وتخضع أمام أول تهديد تواجهه ، فهذا شيء يبدو لي غير قابل للتفسير . ولكن نظرة خاطفة اقنعتني بأن قوتهم لم تكن سوى

5 – راجع مقدمة المترجم اعلاه .

شبح مضحك . ولذلك أسفت لأن تعليماتنا لا تسمح لنا بأن ننزل بهم عقابا رادعا (6) .

وعقب استقراري رسميا فى منصب القنصل العام ، وجهت على متن سفينة ذات صاريتين تسمى « ايبيرفيسي » Epervier نسخة من المعاهدة الجديدة لكي تعرض للتصديق عليها من الحكومة .

وبانتهاء مهمتنا ، انحلت لجنتنا ، واتجه الكمودور ديكاتور على رأس الأسطول للقيام بزيارة لتونس وطرابلس ، وأرغم حكومتي الايالتين على أن تدفع كل منهما اليه مبالغ مقابل عدد من السفن الأمريكية التي احتجزها الأسطول البريطاني ووضعها فى مينائها ، مناقضا بذلك لما تنص عليه المعاهدات التي تربط البلدين بالولايات المتحدة .

وهذا الدرس أحدث أثرا بالغا فى دول البربر لم يكن له مثيل منذ ظهور قرصنتهم الى الوجود .

وفى هذه الفترة ، عاد الامبراطور نابليون للظهور على المسرح الأوروبي من جديد ، ليواجه جيوش الدول الأوروبية المتحالفة فى معركة واترلو (7) واضطر الى التنازل على العرش للمرة الثانية .

وعقب هذه الأحداث ، عقد ملوك الدول المنتصرة اجتماعا فى باريس ليتباحثوا فى مصير الجنس البشري . وهناك بلغتهم أخبار العقاب الذي أنزله الأسطول الأمريكي بالبلدين المذكورين .

ان هذه الأحداث لا يمكن أن تهم فى الأوقات العادية سوى البلدان التي يعنيها الأمر . ولكنها فى هذه الظروف ، أبرزت عجز الجزائريين

---

6 ـ راجع الملحق د .

7 ـ مكان يقع فى جنوب بلجيكا ، غير بعيد من جبل سانت جان ، وهناك هزم نابليون للمرة الأخيرة فى 18 يونيو 1815 .

وضعفهم الى درجة أصبحت الدول تنظر معها بعين الدهشة والاستغراب الى موقف بريطانيا التي ظلت ترفض تحريم القرصنة ، فى الوقت الذي تصر فيه على الغاء الرق والتجارة فى السود .

ولكنه بعد ذلك ، غيرت الحكومة الانجليزية موقفها تجـاه دول البربر ، كما سنرى ذلك فيما بعد .

وفى منتصف يوليو من نفس السنة ، ظهر أمام الجزائر أسطـــول هولندي بقيادة عميد للبحر ، يتكون من أربع بوارج وسلوب وسفينة حربية ذات صاريتين . وبواسطة القنصل البريطاني عرض على الداي تجديد معاهدة السلام التي تربط بين البلدين ، طبقا لنفس الشروط التي تقوم عليها المعاهدة القديمة .

ولكن الداي رفض هذه الاقتراحات ، حيث أنه أراد أن تقوم هولندا بدفع مؤخر الضرائب والهدايا الخ . ، وهو يمثل مبلغا ضخما . وعقب ذلك انقطعت المفاوضات بين الطرفين .

وفى غضون الفترة الباقية حتى نهاية السنة تعاقبت السفن الحربية البريطانية على ميناء الجزائر . وكان يبدو أن هـــذه الزيارات المتوالية تنذر بحركة غير معتادة .

وفى هذه الأثناء ، انذرت فى عدة مناسبات (وأنا لا أستطيع أن أشك فى دقة هذه الأخبار) أن السلطات الجزائرية تعتبر المظاهرة العدائية التي قام بها الأسطول الأمريكي فى البحر الأبيض ، مجرد مسيرة للزهو والتبجح وأنه لن يكون لها أثر جدي ، وأنها متى أبدت ما ينبغي مـــن الحزم والتصميم ، ستضطر الأمريكيين الى دفع الضريبة السنوية ، فى مقابل ضمان عدم تهجم القراصنة على سفنهم التجارية .

يجب الاعتراف بأن تدهور حالة الولايات المتحـدة المالية وتزعزع الثقة فيها فى أروبا ، عوامل يمكن أن تعزز هذا الرأي .

وفى شهر أبريل ، سنة 1816 ، وصل قائد الأسطول البريطاني فى البحر الأبيض المتوسط ، اللورد اكسموث ، على رأس قـوة بحرية تتكون من خمس وعشرين قطعة ، من بينها ست قطع حربية فى ترتيب نظامي . وبهذه القوة المهددة ، قدم الأميرال البريطاني شروطا للسلم بين الجزائر ومملكتي سردانيا ونابلي ، قبلتها السلطات الجزائرية بعد مناقشات خفيفة .

وبموجب هذه الشروط ، يلتزم ملك سردانيا بدفع مبلغ 500 دولار فدية لكل واحد من رعاياه المحتجزين عبيدا فى الجزائر ، وأن يعيد الى الجزائر ، وبدون فدية جميع الجزائريين المحتجزين فى مملكته ، وأن يقدم هدية قنصلية حدها الأقصى 5000 جنيه ستيرلينج ، وفى مقابل ذلـك ينتظر الملك أن تعامله الجزائر على قدم المساواة مع انجلترا نفسها .

وأما ملك نابلي ، فقد التزم بمقتضى الشروط التي عرضتها بريطانيا بأن يقدم مبلغ 1000 دولار فدية لكل واحد من رعاياه الذين يوجدون فى قيود الحديد فى الجزائر ، وزيادة على ذلك ، يعد بأن يقدم الهدية القنصلية التقليدية مرة فى كل سنتين ، وذلك بالاضـافة الى ضريبـة سنوية مماثلة للضريبة التي تدفعها البرتغال ، ويجب تحرير الأسرى بمجرد دفع فديتهم ، على أن يقسموا الى ثلاث فرق ، بحيـث تنتهـي عمليـة تحريرهم فى نهاية مدة سنتين .

والقسم الأول يحرر فى الحال وبناء على ضمان انجلترا دفع فديتهم .

وهذه المعاهدات تضمن الدولة الوسيط (بريطانيا) تطبيق الطرفين لها .

والحدث الذي يجب تسجيله فى هذا السياق ، هو أن الأسرى الذين ينتمون الى جزيرة مالطة والى جبل طارق والذين يبلـغ عـددهم 33 أسيرا ، قد أطلق سراحهم باعتبارهم من الرعايا البريطانيين .

والمعاهدة التي عقدت مع ملك سردانيا ، كانت ، بدون شك أكثر سخاء مما يمكنه أن يتوقعه ، وبالتالي ، فقد كان من حق بريطانيا أن تطالبه بالاعتراف بالجميل ، بل ان هذا المسعى من بريطانيا يستحق اعتراف العالم أجمع ، لولا ما عرف من أن هذه المكافأة كانت الثمن للتضحية باستقلال مملكة جنوة الذي طالما صرحت بريطانيا بأنها مصممة على المحافظة عليه .

لقد جلت القوات الفرنسية عن المدينة (جنوة) فى 26 أبريل بعـد استسلامها ، وأعلن القائد العام البريطاني فى بلاغ رسمي أن بريطانيـا العظمى تلتـــزم باعادة مؤسسات جنـــوه القديمة واستقلال هـذه الجمهورية (8) .

ولكن ما تقدم لا ينطبق على حالة معاهدة نابلي التي عقدت فى نفس الوقت ، فان المعاهدة الأخيرة لا تمثل حتى مجرد خـدمة ، لأن ممـا لا مجال للشك فيه ، أن مملكة نابلي كان يمكنها الحصول على معاهدة السلام مع الجزائر بنفسها ، عـلى أساس المبلغ الضخم الذي تدفعه فدية لرعاياها (أكثر كثيرا من مليون دولار) ، وذلك دون أن تحتاج الى وساطة بريطانيا التي تضطر الى الاعتراف لها بالفضل .

ومهما تكن الزاوية التي ننظر منها الى هذه المفاوضات ، والى سلوك بريطانيا فيها ، فنحن لا نجد أنها تنطوي على شيء من النبـل الذي

---

8 – كان الاسطول البريطاني بقيادة اللورد وليام بنتنيك ، قد ضرب حصارا على جنوه فى سنة 1814 ، وقد انتهى الحصار بتسليم الحاكم الفرنسي وجلاء الجيش الفرنسي عن المدينة . وفى 6 ابريل من نفس السنة ، أصدر القائد العام للقوات البريطانية بيانا يتعهد فيه باسم الامة البريطانية بان يعيد الى الجمهورية مؤسساتها واستقلالها، وهذا العهد كرته بريطانيا بشيء من الميوعة فى مؤتمر فينا .

ذلك لأن مثل هذا تفخر به بريطانيا ، والذي كثيرا ما كان من حقها ، ذلك لأن مثل هذا السلوك من شأنه أن يبرر ادعاءات البربر المهينة ، ويضمن لهم نوعا من المكافأة والتشجيع لقرصنتهم التي تعمل ضد العالم المتحضر .

وعقب رحيل الأسطول البريطاني مباشرة ، صرح الداي الذي لاشك فى أنه كان قد وقع تحت تأثير أعداء الولايات المتحدة ، وبحجة تلكؤنا فى اعادة احدى السفينتين ذات الصاريتين اللتين أسرهما ديكاتور قبل توقيع المعاهدة ، صرح بأن الولايات المتحدة قد خرقت هذه المعاهدة . ومع ذلك ، فان الداي كان يعرف جيد أن تلك السفينة التي كانت وجهت الى قرطاجنة (اسبانيا) قد احتجزتها الحكومة الأسبانية بحجة أنها أسرت فى مياهها الاقليمية .

واثر هذا التصريح ، التجأت الى متن احدى قطع الأسطول الأمريكي الذي كان يرسو فىميناء الجزائر فى ذلك الوقت ، وهناك عقدت اتفاقا شفاهيا مع الحكومة الجزائرية ، يقضي بأن تحال المسائل موضوع النزاع برسالة مختومة يحررها الداي نفسه الى رئيس الولايات المتحدة، وبأن تبقى المعاهدة نافذة المفعول حتى يصل رد الرئيس الأمريكي .

وبموجب هذه الاتفاقية نزلت الى البر وعدت الى القنصلية لاستئناف عملي .

وفى شهر مايو التالي ، عاد قائد الأسطول البريطاني من تونس مصطحبا معه جميع قواته البحرية ، وهو اجراء قد اتخذه ، بدون شك ، نتيجة لتعليمات جديدة تلقاها .

وأما محتوى المقترحات التي قدمها الى حكومة هذا البلد ، فانه لم يكن من الممكن معرفته ، ولكنه يبدو أنها تتضمن شروطا تتناقض مع الشروط التي وردت فى الاتفاق الذي تم منذ شهر .

ومثل هذا السلوك المتناقض والذي ينقصه الوقار كان من الممكن أن يدهش ويحير حكومة أكثر استنارة من حكومة الجزائر .

على أنه لابد من الاعتراف بأن الداي قد أبدى كثيرا من الحـزم والحكمة والتبصر فى هذه المناسبة . فهو لـم يكتف بعرض المطـالب البريطانية على الديوان الذي دعي للانعقاد فى تلك المناسبة . بل وأيضا على الجنود فى ثكناتهم . وقد اتفق الجميع على منحه التأييد والمساندة فى الموقف الذي يتخذه .

وعقب ذلك ، رد الداي على مطالب الأميرال اكسموث قائلا انه بالنظر الى أن ايالة الجزائر ولاية من ولايات الأمبراطورية العثمانية ، فهو لا يستطيع الموافقة على اقتراحاته قبل أن يجري مشاورات مع الباب العالي . وهذه المشاورات ستستغرق مدة ستة أشهر .

وعندئذ هدد اللورد اكسموث بتدمير مدينة الجزائر اذا صمم الداي على هذا الموقف فى رفض شروطه ، وأعطاه مدة ثلاث ساعات للمشاورة والرد النهائي . وحينئذ وجه الداي لوما الى الأميرال البريطاني على سلوكه الغريب والمتناقض والذي يزيل كل ثقة فى التزاماته ، ورفـض مطالبه بصفة نهائية ، ثم طلب اليه أن يسحب أسطوله من مرمى المدافع الجزائريـة .

ولما تلقى اللورد اكسموث هذا الرد انسحب وقدم انذارا بأنـه سيقصف المدينة . ولكنه لما اقترب مع بعض ضباطه من سفينة جزائرية شتم ووجهت اليه ، اهانة خطيرة ، وهو فى طريقه الى البحرية .

وفى نفس الوقت ، اعتقل القنصل البريطاني ووضع تحت الحراسة فى منزله . وكذلك نقلت زوجته وأطفاله من منزلهم فى الريف واقتيدوا فى المدينة بصورة مهينة للغاية .

أنجلترا .

ومنذ هذه اللحظات اعتبر الداي أن الحرب قد بدأت مع أنجلترا .
وقد كان من بين الاجراءات الاحتياطية التي اتخذها عقب تلقي انذار الأميرال ــ ذلك الانذار الذي كان من الواضح لدينا أنه سينفذه سريعا ــ أنه أمر والي عنابة ووهران بأن يعتقلا جميــع الرعايا البريطانيين والأشخاص الخاضعين للحماية البريطانية ويضمنوا حياتهم . وهـــذه الأوامر نفذت بكل ما ينبغي من الدقة والشدة فى عنابة ، حيث كـــان يوجد عدد كبير من الايطاليين والكورسكيين الذين يعملون فى صيد المرجان تحت حماية بريطانيا ، وفى نطاق الامتيازات التي منحت لهذا البلد . وفى هذه العملية قتل عدد من الأشخاص الذين حاولوا مقاومة رجال السلطة أو هربوا للنجاة من هذا الاجراء . كانت الايالة تتمتع بحق القبض على أشخاصهم ، ولكنهم قاوموا الأوامر واضطرت الى استعمال القوة معهم . ان هذا شيء طبيعي ، وكان من المحتم أن يقع لهم فى أي بلد آخر ما وقع لهم فى الجزائر فى مثل هذه الظروف .

والشيء الذي يمكن توجيه اللوم من أجله الى الأميرال البريطاني ، هو أنه بعد ما غادر تونس بنية القيام بمهمة دقيقة وخطيرة فى نفــس الوقت ، لم يفكر فى توجيه بعض وحدات أسطوله لحماية صيــادي المرجان ، أو على الأقل ، أن يبلغهم مدى الخطر المحدق بهم نتيجــة لعملياتــه .

وفى هذه الأثناء ، توصل الطرفان الى تسوية النزاع بينهما مؤقتــا وبدون أعمال عنف ، حيث أن الأميرال البريطاني قد وافق فى نهايــة الأمر على منح الداي مهلة للتشاور مع الباب العالي بشأن المسائل التي بقيت معلقة .

وقد وافق الداي على الاعتراف بمملكة هانوفر الجديدة وعلى أن يسمح لها بأن تتمتع بالامتيازات التي تنــص عليها المعاهدة الجزائرية

البريطانية ، باعتبار تلك المملكة تابعة للامبراطورية البريطانية ، على أن يتلقى الهدايا التقليدية الثمينة .

وفى نفس الوقت ، وضع الأميرال اكسموث البارجـة البريطانيـة « ذي تاجوس » تحت تصرف الداي لكي تتولى نقل سفيره وهداياه الى القسطنطينيـة .

بل ان اللورد اكسموث قد بادل الداي سيفه وتلقى منه هدية ، وهي عبارة عن جواد وعدد من الحيوانات . وكذلك كان يبدو أن كل شعور بالعداوة بين الطرفين قد اختفى وزال .

وبالنسبة لمتفرج غير مكترث ، كان المنظر غريبا حقا ، أن يرى ، بعد حوادث التهديد المتبادل بالعدوان مباشرة ، علم الأمبراطورية العثمانية على بارجة حربية بريطانية ، وذلك تكريما لسفير جزائري يمتطي على متنها (لتنقله الى القسطنطينية) .

ولما وصلت أخبار مفاوضات اللورد اكسموث فى الجزائر الى أروبا ، أثارت موجة من الامتعاض والاحتجاج ، وجلبت على الحكومة البريطانية تهمة بأنها لا تعمل الا من أجل مصالحها ولا تهتم بالأضرار التي تلحق بالآخرين فى سياستها مع الجزائر .

ومع ذلك ، فان بريطانيا لم تحقق أهدافها عن طريق هذه المفاوضات . ونظرا لأن الشرف الوطني قد خدش هنا ، فقد كان من الضروري اعداد حملة أكثر فعالية ، وذلك نتيجة طبيعية لفشل الحملة الأولى .

وتبعا لذلك أمرت الحكومة البريطانية فى الحال بتجهيز أسطول من ميناء « بورتسموث » ، وأبحر فى اتجاه البحر الأبيض فى شهر يوليو . ولما وصل الى جبل طارق ، عزز بعدد من الزوارق الحربية وبست بوارج

حربية تابعة للأسطول الهولندي ، بقيادة نائب الأميرال ، البارون « فاندركابيلان » .

وقد أقلع الأسطول المشترك من جبل طارق فى 14 أغسطس تحت قيادة الأميرال البريطاني نفسه ، اللورد اكسموث ، ووصل الى الجزائر فى صباح يوم 17 من نفس الشهر .

كانت الصحف الفرنسية قد نشرت الأخبار التي تتعلق بهذه الحملة ، وبذلك فشلت فى مهمتها السفينة الحربية التي سبقت وكلفت بترحيل القنصل البريطاني وأسرته وابعادهم عن خطر الحرب الذي سيتعرضون له حتما ، فى حالة وقوع معركة . ومع ذلك ، فان سيدات منزل القنصل أسعفهن الحظ وأفلتن من رقابة الجزائريين بلبأسهن زي بحارة بريطانيين، وقد التجأن الى السفينة ، وقد كان فى رفقتهن طفل صغير السن .

ولما ذاع خبر فرارهن ، اعتقل القنصل وضباط وبحارة زورقين تابعين لسفينة حربية ، فوضع القنصل تحت الحراسة فى منزله ، بينما نقل البحريون الى السجن .

ولما وصل الأميرال اكسموث الى الجزائر ، بعث بانذار حكومته وطالب برد فى ظرف مدة محددة .

وبهذه المناسبة تصرف الداي تصرفا يتسم بقلة التصميم والحزم ، ولا يليق بشخصيته . فان الباشا لم يكتف بأن يعيد رسول الأميرال البريطاني بدون جواب على انذاره ، بل انه سمح فى نفس الوقت أيضا للأسطول المشترك بأن يختار المواقع الملائمة لقصف المدينة ، دون أن تخطر فى باله مقاومته (9) .

---

9 ـ راجع الملحق هـ .

كانت الجرأة والجهل والغرور فى جهة ، والنظام والشجاعة والخبرة فى شئون ادارة الحرب فى جهة أخرى ، ومن ثم ، لم يكن من الممكن الشك فى نتيجة المعركة .

وبعد معركة دامية دامت تسع ساعات خضعت الجزائر وراحت تستجدي الرحمة أمام عدوها المنتصر . واثر ذلك صرح اللورد اكسموث بأنه لم يعلن الحرب لتدمير المدينة وطلب فى مقابل الصلح ، اطلاق سراح جميع العبيد المسيحيين ، واعادة مبلغ 350,000 دولار ، كان ملـك نابلـي وسردانية قد دفعاه فدية لرعاياهم الذين أطلق سراحهم فى شهر أبريل الماضي ، كما طالب بتنازل الايالة فى المستقبل عن حقها فى استرقـاق رعايا الدول المسيحية .

سارعت السلطات الجزائرية الى قبول هذه الشروط فعاد السلم الى نصابه بين الأيالة وأنجلترا .

والجدير بالذكر أن البارون فاندر كابيلان قائد القـوات البحرية الهولندية فى البحر الأبيض المتوسط ، قد قام بدور نشيط وملحوظ فى هذه المعركة . وبتنسيق مع الأميرال اكسموث ، اضطر الأيالة الى عقد معاهدة سلام مع هولندا ، بنفس الشروط التي عقدت على أساسها المعاهدة الجزائرية البريطانية .

وعقب معركة الجزائر مباشرة ، اتجه القائد البحري الهولندي الى طرابلس ، وعقد مع حكومة هذه الايالة أيضا معاهدة سلام ، وافقت هولندا بموجبها بأن تدفع لطرابلس مبلغ 5000 دولار سنويا على سبيل الضريبـة .

وفى انجلترا اعتبرت نتيجة معركة الجزائر نصرا باهرا يخول بريطانيا الحق لاعتراف جميع الدول بفضلها . وبهذه المناسبة وزعت ألقاب ونياشين.

ومعاشات بدون حساب وبطريقة غير معهودة فى المملكة ، وكل ذلك فى احتفالات ومهرجانات قومية ، وكذلك علقت آمال كثيرة على المؤتمر الأروبي الذي سيعقد فى «اكس لاشابيل» (Aix la Chappelle) نتيجة لنجاح حملة الجزائر .

وفيما يتعلق بالبراعة وروح المثابرة والصبر والشجاعة التي أبداها الأسطول المشترك فى معركة الجزائر ، فانه لا يمكن أن يختلف رأي شخصين فيهما وفى أن هذه المعركة وحدها لتكفي لضمان مجد القوات ، له لم تكن قد اكتسبته فى مواقع أخرى .

ومع ذلك يمكننا أن نتساءل عما اذا كانت المطالب التي اشتمل عليها انذار الأميرال البريطاني ، تكفي لتبرير تعريض جيش شجاع لخطر مواجهة الجزائريين الذين يتحصنون بأسوار من الحجر غير قابلة للتدمير ولبطارياتهم التي تتكون من ثلاثة صفوف من المدافع . ولو سدد الجزائريون نيران مدافعهم التي هي مخيفة حقا ، بأحكام فى بداية المعركة الى بوارج عدوهم التي يستطيعون اصابتها بسهولة ، لكان من المرجح أن تنزل بها خسائر كبيرة وتشلها بحيث تمنعها من احتلال مواقع للهجوم . ولكنهم تركوا الأسطول المشترك يقترب من الميناء ويرسو دون اية مقاومة ، مما جعل مدافعهم الرئيسية غير ذات مفعول . ولو حدث ذلك لأصيبت انجلترا باهانة لا مثيل لها بأن يدحر أسطولها على يد الجزائريين.

انه لمن الواضح أن تخريب وكر القرصنة لم يكن ضمن خطط الحكومة البريطانية ، وذلك لأنه ، اذا كان نوع القوة التي اشتملت عليها هذه الحملة ، ليس من شأنه أن يسمح باحتلال البلد ، فان من الواضح أن الجزائر قد اخضعت تماما . وأنا أملك الدلائل التي تسمح لي بالقول بأنه لو استأنف قصف المدينة فى اليوم التالي لجلى عنها الأتراك ولأصبح من الممكن للأسطول البريطاني الهولندي احتلالها .

وهذا الانتقام من القرصنة كان ينطوي على الأسباب القاضية على قوة الجزائريين ، بسبب تحرير العبيد المسيحيين والتزامهم بالامتناع عن الاسترقاق فى المستقبل ، ومن هنا ، فقد كانت العملية ذات فائدة كبيرة للعالم المتحضر . ذلك شيء لاشك فيه . ولكنه من الثابت أن هذه الحملة لم يكن من نتائجها حمل الجزائريين على تغيير سياستهم ، لأنهم لا يزالون يمارسون القرصنة ، ولا ينتظرون الا الوقت الملائم لمواصلة أعمالهم المخربة ، وكأن شيئا لم يحدث .

وعقب توقيع الصلح مباشرة ، وجهت الحكومة الجزائرية اهتمامها كله لاصلاح الأضرار الناجمة عن الحرب ، وكذلك بعثت أحد وزرائها الى القسطنطينية ، كما عملت على ازالة انقاض التحصينات التي لحقت بها الأضرار ، ولم تكد تمضي سنة حتى أصبحت هائلة ومخيفة كما كانت من قبـــل .

وفي نفس الوقت ، تلقى رئيس الولايات المتحدة الرسالة التي وجهها اليه الداي ، وكلفني ، بالاشتراك مع اسحاق شونسي (I. Chauncey) القائد الاعلى للقوات البحرية الأمريكية فى البحر المتوسط بمهمة الدخول فى مفاوضات مع الحكومة الجزائرية من أجل تجديد معاهدة السلام معهـــا .

وبعد الأحداث التي وقعت مؤخرا ، لم يكن من الممكن أن نواجه أية عقبـــة .

وكذلك تم التوقيع على معاهدة أملينا نحن شروطها على الجزائر ، فى 23 ديسمبر التالي .

وفى شهر سبتمبر ، 1817 ، وقعت ثورة من الثورات الكثيرة التي تقع فى هذه البلاد وكلفت الداي عمر باشا حياته ، ووضعت على عرش الجزائر رجلا يسمى علي خوجة .

وكما سبق أن ذكرنا ، فان المباديء التي يقوم عليها النظام السياسي فى البلاد ومؤسساته ، لا تمنح الحق لشغل منصب رئيس الدولة الا لتركـي .

والجيش التركي فى الجزائر يشتمل على أجانب ينتمون الى مختلف الأجناس ويأتون الى هنا للانخراط فى الانكشارية . وهذه « المليشيا » هي التي تقوم بنفسها باختيار ضباطها . وأعضاؤها يجندون فى الشرق . وينتمون الى أحط طبقات السكان .

ولدى وصولهم الى الجزائر ينخرط هؤلاء المجندين فى سلك الجيش . وأما الترقيات بينهم فهي تعود الى الكفاءة ، أو الى مجرد الصدفة . وحياة مغامر مغمور لا تثير اهتمام أحد فى العادة ، ولكنه عندما يرتفع فوق الجهال والمغمورين بفضل عبقريته ، وتحيط به هالة من المجد على مسرح الأحداث ، عند ذلك يصبح أهلا للاهتمام وللعناية بكل ما يتصل به وتسلط الأضواء على شخصيته وأعماله .

الى هذه الطبقة ينتمي الداي عمر باشا الذي ولد فى جزيرة « ميتلين » (ليسبوس القديمة) . وعندما جلس على عرش الجزائر فى سنه 1814 ، كان يبلغ 43 من العمر . وقد قيل انه ينحدر من أصل اغريقي اعتنق الاسلام . فأما قامته ، فتبلغ خمسة أقدام عشرة أو احدى عشرة بوصة . وهو قوي البنية نشيط الحركة جميل المظهر ولونه يميل الى السمرة ، ولحيته كثيفة الشعر سوداء لامعة وقد وخطها الشيب ، وملامحه منتظمة وعيناه سوداوان معبرتان ولكنه لم يكن ينظر الى أحد فى وجهه مباشرة ولا يرتفع بصره الى الشخص الذي يتحدث معه الا بصورة خاطفة . ومظهره العام يتسم بالوقـار . ومتى كان مزاجه رائقا يكون مجلسه ممتعا ويسحرك بأخلاقه . ولكنه حينما يأخذه الغضب يصبح وجهـه أدكن ، ومنظره حزينا ولا يجرأ أحد عن الاقتراب منه . على أن تصرفاته

دائما تدل على النبل ، وفى بعض الأحيان يصدر عنه ما يدل على المودة والصداقة . وقد اشتهر بضبط النفس بحيث لم يعرف عنه أية فقد توازنه فى مناسبة من المناسبات . وفى بعض الأحيان يتردد قليلا فى الحديث ، ويبدو أن كبرياه لم يكن يغطي فى عينيه جهله .

كان الداي عمر يتمتع بعقل راجح وادراك سريع ، وكان نبيل الشخصية .

وعندما فكر فى توجيه رسالة الى رئيس الولايات المتحدة سألني عما اذا كانت اللغة التركية مفهومة فى بلدنا . فأجبته قائلا انه من المرجح ألا تكون كذلك ، ولكنه يوجد فى الولايات المتحدة أشخاص يفهمون اللغة العربية .

وأجاب الداي قائلا انه لا يرى من الملائم أن يكتب بلغة أخرى غير لغته (التركية) ، ولكنه مع ذلك سيأمر بوضع ترجمة عربية لرسالته، تسهيلا للتفاهم مع حكومة الولايات المتحدة .

لجرأته وشجاعته النادرة . وأما فى حياته الخاصة فقد عرف عنه أنه ميال للاعتدال والأخلاق الفاضلة والأمتثال لتعاليم الدين الاسلامي الذي يدين بـه .

كان الداي عمر متزوجا بزوجة واحدة ولد له منها ثلاثة أطفال وقد كان يقضي أوقات فراغه فى منزله وبين أفراد أسرته حيث يجد كل سعادتـه .

وبعدما ينتهي عمله اليومي يشاهد الداي عادة وهو يتجه الى منزله الخاص بدون حراسة ، ولا يرافقه سوى خادم واحد يحمل مصباحا أمامه . وبعدما ارتقى العرش ، ذكرت له عدة خصال تدل على الصداقة

والعرفان ، وأنا لم أسمع أحدا قط يتهمه بالحياد عن طريـق العـدل والصواب •

جاء الداي عمر الى الجزائر وهو يبلغ من العمر الثالثة والثلاثين برفقة أخيه الذي يبدو أنه كان رجلا يتحلى بصفات ممتازة ، حيث أنه لم يلبث ان أحتل منصب الخليفة ، أو المسئول عن الشئون المالية فى الولاية الشرقية ، ونظرا لأن عمر كان يرافقه دائما فى تنقلاته ، فقـد اكتسب معرفة دقيقة بشئون البلد الداخلية •

وكذلك كانت الحرب مع تونس والثورات والاضطرابات التي شهدتها الجزائر فرصة للداي لكي يبدي فيها شجاعته النادرة وذكاءه الوقاد .

ولما أصبح أخوه مشبوها فيه ، قتل بأمر من أحمد باشا ، وقد نجا عمر من نفس المصير بالتجائه الى احدى الثكنات حيث تولى الجنـود حمايته ، وقد كانوا معجبين به أشد الاعجاب •

وعقب هذه الأحداث بوقت قصير ، هلك الداي أحمد ، وتولى العرش مكانه الداي علي الذي حكم البلد بضعة أشهر ، ثم تخلى عن مقاليد السلطة للداي الحاج علي ، الذي كان يلقب بالنمر ، بسبب ما اشتهر عنه من القسوة . وكذلك اشتهر الحاج علي باعلانه الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية •

والداي عمر مدين للحاج علي الذي عينه فى منصب الأغـا ، أو القائد الأعلى للجيش، الذي بدت فيه مواهبه ، خصوصا فى تنظيم ادارته ، كما أبلى بلاء حسنا فى ثورة باي وهران ـــ تلك الثورة التي كانت تهدد مدينة الجزائر نفسها • والبعض يلومون الداي عمر علي ارتكابه بعض الأعمال التي تدل على القسوة والتي كانت بدون فائدة . وهذا الاتهام قد يكون صحيحا ، ولكنني أعزو هذه الأعمال الى الجـو

الأخلاقي العام والى الميل الى القسوة والعنف الذي يسود بين هذه الشعوب . ولكنه يجب أن نذكر أن التاريخ الحديث يقدم لنا أمثلة صارخة للقسوة والعنف بقدر ما يقدمه من أمثلة للعدالة والاعتدال فى البلدان المتحضرة .

على أنه توجد بعض الظروف التي تتصل بارتقاء الداي عمر العرش والتي لا تستحق مثل هذا الاعتذار . انها أعمال تبعث القشعريرة فى الانسان وتجمد الدم فى عروقه .

وعقب وصول أخبار هذا الحادث الى الأغا عمر ، اتجه الى مدينة الجزائر ، فقدم اليه التاج بالاجماع ، وقد كان من الممكن أن يتلقاه دون أن يرتكب جريمة .

ولكنه ، لأسباب مجهولة ، رفض التاج ، وألح على ضرورة انتخاب الخزنجي ، أي رئيس الوزراء ، لهذا المنصب .

والشيء الذي نعرفه اليوم عن هـذا الشخص ، قليل ولا يكـاد يتجاوز أنه رجل معتدل ومتقدم جدا فى السن . وقد رفض الخزنجي بكل حزم المنصب المحفوف بالأخطار الذي عرض عليه ، ولكنه قيل له ان عليه أن يختار بين التاج والموت .

وبعد ذلك بأربعة عشر يوما قتل هذا الشيخ بدون أي سبب مفهوم ، واعتلى الداي العرش .

كان الداي الحاج علي ، على الرغم من ضعف بنيته وتقدمه فى السن، يحتفظ فى قصره بحريم كبير . وقد ظلت نساؤه يتمتعن بالاحترام خلال الفترة القصيرة التي تولى فيها الحكم خلفه . ولكنه لما ارتقى العرش الداي عمر قتلن جميعا بناء على أمر منه .

انه لمن الصعب العثور على عذر مسوغ لمثل هذه الوحشية . كان هوس الداي الحاج علي وغروره قد دفع بالجزائريين الى الدخول فى حرب مع الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا . وكذلك أهان علم الامبراطورية العثمانية نفسه ، فى الوقت الذي بلغت فيه العلاقات بين الجزائر وفرنسا واسبانيا درجة عالية من التوتر . وكذلك كان الدور الذي ينتظر عمر باشا لدى اعتلائه العرش صعبا ودقيقا للغاية .

وما بقي لي أن أقوله عن هذه الشخصية يتصل ، خصوصا ، بالظروف السياسية التي أحاطت بعهده ، والتي أشرنا اليها فى الصفحات السابقة . لقد توالت الأحداث بسرعة وأبرزت ذكاءه وعبقريته وسلطت الأضواء على المزايا التي تتمتع بها .

ولكن ما كانت الجزائر تلقاه من الاحترام والتقدير من الدول البحرية جعله ينتشي بالغرور ويتعلق بكثير من الأوهام بشأن قوته الحقيقية ، وكان يعتقد أنه يجب على جميع الدول أن تشتري صداقته بأكبر التضحيات . على أن هذه الغشاوة من الغرور لم تلبث أن زالت على عينيه عقب استيلاء الكمودور ديكاتور على اثنتين من سفنه الحربية ، وبوصول هذا الضابط على رأس أسطوله الى ميناء الجزائر ، فى الوقت الذي كانت فيه جميع السفن الحربية الجزائرية تجول فى عرض البحر للقرصنة .

كان عمر باشا عاقلا بالكفاية لكي يفهم الخطر الذي يحيط به من كل جانب . وكذلك رضخ وقبل شروط المنتصرين . واذا كان قد اتخذ بعد ذلك مواقف غامضة وأبدى ميلا الى العودة الى الحرب ، فيجب أن يعزى ذلك ، لا الى سوء نية الداي ، بل الى الاتجاه العام للسياسة التي احتملها الجزائريون طويلا ، والتي طالما وجدت فيها الجزائر فوائد جمة ، والى سوء تمثيل سياسة الولايات المتحدة وخطا المعلومات التي تتعلق بمواردها .

اضطرت بريطانيا ، نتيجة للمفاوضات الأولى التي جرت بين الدول الأروبية لاقرار السلام ، فى باريس ، فى سنة 1815 ، اضطرت الى تغيير سياستها تجاه دول البربر ، فوجهت الحملة القوية التي تحدثنا عنها ، بقيادة الأميرال اكسموث الى الجزائر . ومع ذلك ، فان سلوك بريطانيا الذي يمكن الثناء عليه اذا نظرنا اليه من وجهة نظر المبادىء العامة ، يتناقض تماما مع حقوق الأمم ويخلو من كل أثر لحسن النية . واذا تذكرنا علاقات الصداقة المتينة التي كانت تربط بين الجزائر وبريطانيا ، فيجب أن نعرف أن الجزائر لم توجه أية اهانة لبريطانيا كما أنها لم ترتكب أي عمل يمكن أن يتخذ ذريعة للعدوان .

لقد حاولت بريطانيا تسويغ الحرب التي أعلنتها على الجزائر فى سنة 1816 بمقتل عدد من الأروبيين فى عنابة . ولكننا اذا نظرنا الى القضية نظرة صريحة ومخلصة ، فسنجد أن الحكومة الجزائرية ليست مذنبة فيها ، وأنها لم تزد فى هذه الحالة المحزنة عن أنها استعملت الحق الذي تتمتع به كل حكومة فى العالم . فان حادثا مماثلا وقع فى انجلترا نفسها فى السنة السابقة ، وعلى التحديد فى مدينة دارتمور Dartmoor حيث يقع معتقل أسرى الحرب .

انهم يطالبون الجزائر بأن تتخلى عن المبادىء التي تقوم عليها كل سمعتها السياسية وأهميتها الدولية برضى العالم أجمع خلال قرون عديدة متوالية . ان هذا الطلب يضع الداي عمر فى موقف حرج للغاية ويعرضه لمسؤوليات خطيرة .

وأنا قد استعرضت فى السطور السابقة تاريخ هذه المفاوضات ونتيجة الحرب التي تلتها ، واعتقال القنصل الانجليزي فى داره تحت الحراسة ، وقلت انه اجراء تسوغه مثل هذه الظروف ، باعتباره اجراءا احتياطيا ، ونحن لا نحتاج لتسويغه الى البحث عن أمثلة له فى تقاليد الباب العالي .

ولكن هذا القنصل حمل فيما بعد مثقلا بالسلاسل ، وهذا العمل يستحق ما يتهم به الداي من الانتقام الوضيع والقاسي ، ولكنه من الممكن الدفاع عن عمر باشا بالقول بأن الشعب الجزائري كان يغلي بالغيظ ضد الانجليز .

لقد كان يتردد على منزلي أثناء المعارك عدد من الأتراك الذين كان من المرجح أنهم لا يريدون الدخول فيها ، ولكنهم كانوا يقذفون الحمم بلعن القنصل الانجليزي وتهديده .

وانما أمر الداي بوضع السلاسل والقيود فى يدي القنصل الانجليزي ، بعد انتهاء المعركة ، وبعدما خرجت الجماهير الغفيرة تبحث عنه للفتك به . فعند ذلك فقط اعتقل القنصل ونقل الى السجن . وليس من شك فى أن هذا الاجراء هو الذي انقذه من موت محقق . وأنا كنت دائما أعتقد واثقا أن الداي انما اتخذ هذا الاجراء على أمل أن يتمكن من انقاذ حياة القنصل البريطاني .

وفى غضون معركة 27 أغسطس ، كانت تصرفات عمر باشا تصرفات رجل شجاع وعاقل .

والغلطة الوحيدة التي ارتكبها هي أنه لم يأمر باطلاق نيران مدفعيته قبل أن تتخذ قطع أسطول العدو المهاجم المواقع الملائمة لها للقصف . ولكن هذه الغلطة كانت نتيجة لقرار تنقصه الحصافة بأن لا يكون البادىء باطلاق النار . وكذلك ارتكب غلطة لا تغتفر ، برفضه الرد على رسول المهاجمين .

كان الداي عمر يشاهد فى كل مكان محفوفا بالخطر . بل ان الباشا كان يستعمل بنفسه عدة مرات قطع المدفعية المواجهة للبحر،واستمريقاتل حتى اتضح أنه من غير المفيد الاستمرار فى المقاومة مدة طويلة . وقد كان قبوله لشروط الأميرال الانجليزي نتيجة لتضرع عدد من أصدقائه وكبار ضباطه .

وقد أبلغني الفارس وأكارلو (Aukarloo) قنصل السويد الذي هو رسول الداي عمر الى بارجة الأميرال الانجليزي أنه شهد بنفسه المنظر الذي أبدى فيه الداي امتعاضه وتقززه من تسلم الشروط التي اقترحها المهاجمون للصلح . وكان من رأي الداي الذي أعرب عنه مرارا أنــه يجب ترك المدينة والجلاء عنها ونصب الخيام في الداخل . وفي المفاوضات التالية ظل الداي يحتفظ بهدوئه الذي كان دائما من مميزات شخصيته ، وكان يطلب الى المفوض أن يبلغه بدون تكلف وتلعثم ما هي ادعاءات حكومتــه .

لقد ثبت أن الرجل الذي يقف موقفا جديرا بخطورة الظروف التي وضعته الأقدار فيها ، فهو رجل لا يعدم مقدرة وكفاءة . ونتائج معركة 27 أغسطس الأخير قد أتاحت الفرصة للداي ليبدي ما تتمتع به شخصيته من الحزم والبراعة في ادارة الشؤون العامة .

لقد قيل عن حق ان الجزائريين مشاغبون ويوجد كثير منهم من قطاع الطريق ويميلون الى الخرافات ، وأسطولهم قد دمر وتحصيناتهم أصبحت خرائب ، بل ان وجودهم السياسي نفسه ، قد تعرض للخطر . فهم كانوا يرددون منذ وقت طويل أن رئيسهم ليس بسعيد الحظ (وهو رأي متى انتشر قلما يعيش الداي بعده وقتا طويلا) في تلك الظروف . وقد ارتفعت الأصوات جهزة بضرورة التضحية بالداي على مذبح قنوطهم .

كان الداي عمر يعرف الأخطار التي تترقبه ، ومع ذلك ، فقد قصد الى ثكنات الجيش ليخطب مأام الجنود لرفع روحهم المعنوية ، قائــلا ان المصائب التي حلت بالبلد كبيرة ، ولكن ما حدث ليس مما لا يمكــن اصلاحه ، وأن البلد لايزال يملك موارد كثيرة ، وانهــم اذا تذرعوا بالصبر والشجاعة ، فان قوة الجزائر قد تصبح مبعثا للرعب أكثر من ذي قبل . ولكن الشقاق والعنف سيجعل البلد يخسر كل شيء . ويختتم

قائلا ، انهم اذا كانوا يجدون فى شخصه عقبة فى طريق الحظ والسعادة . فما عليهم الا أن يتخذوا منه كبش الفدا .

وهذه الخطب ، مضافا اليها توزيع المال فى وقت ملائم ونفـوذ أصدقائه ، كانت عوامل مهدئة لروح الثورة التي تعتلج فى النفوس . ولولا هذا النشاط ، لانتهى الأمر بانفجار عنيف .

وفى هذه الأثناء استقدم الداي من أقصى أطراف المملكة العمـال ومواد البناء ووضعهم على قدم وساق . وبفضل ما أبداه من الصبر والمثابرة ، حيث كان يشرف على العمال بنفسه ، تمكن من اعادة بناء الجزائر وتحصيناتها فى نهاية نفس السنة ، وجعل حصونها أمتن وأقوى مما كانت عليه فى أي وقت مضى . وفى نفس الوقت تعاقد مع عدد كبير من الغواصين من نابلي وقاموا بتنظيف الميناء من العراقل والرواسب التي نجمت عن العمليات الحربية . وكذلك اشترى أربع سفن حربية وجهزها وشرع فى بناء مركب حربي فى أحواض بناء السفن .

لقد اتخذ الداي جميع الاجراءات الضرورية لكي يعيد الى الجزائر ما كانت تتمتع به من القوة والسمعة بين الدول البحرية .

وفى شهر أكتوبر التالي للمعركة ، وصل الكمودور شونسي الى عرض بحر الجزائر على رأس أسطول يتكون من السفن الحربية التالية : « واشنطون » ، « جاوة » ، « الولايات المتحدة » ، « كونستليشين » ، « ايرى » ، « بارك كوك » .

كان من الممكن لأسطول يتكون من ست بوارج ، أن يهدم تحصينات الجزائر نهائيا ويدمر المدينة عن آخرها ، وهي فى حالة الضعف التي كانت عليها . وهذا الأسطول بعث فى نفوس الجزائريين فزعا وهلعا كبيرا . ولما اتجهت لاستقبال الأسطول ، لم يخف الكثير منهم مخاوفهم من أن

يهاجم المدينة ، وذلك على الرغم من أنني كنت أؤكد لهم أن الأسطول الأمريكي انما يقوم بزيارة لهدف سلمي ، وأن الأمريكيين لـن يقوموا بعمل حربي ضدهم دون أن يبلغوني قرارهم مسبقا .

ولدى عودتي من الأسطول استقبلني الداي عمر، وهذا شرف غير عادي يدل على شدة قلقه .

قلت للداي كم أنا متألم من عدم ثقة الجزائريين فى شرفنا القومي ، وأبلغته مؤكدا أنه اذا قدر للخلافات القائمة بين الدولتين أن تتفـاقم وتنتهي بالحرب ، فاننا لن نتصرف الا عـلى أساس مبادىء الشرف الدقيقة .

كان يبدو أن عمر باشا قد أحس بوخز هذا اللوم وادعى أنه لم يكن يعرف ما اذا كانت السفن التي وصلت تابعة للأسطول الأمريكي ، وقال لي انني شهدت شخصيا كيف كان فى بعض الأحيـان ضحية لبعض المظاهر . وذلك لأن الجزائريين يتظاهرون بالاعتقاد بأنهم فوجئـوا بالأسطول البريطاني الهولندي الذي كان يحمل علم الصلح وغدر بهم

وفى اليوم التالي ، قام الكمودور تشونسي مع كبار ضباط الأسطول بزيارة مجاملة للداي ، أبدى لها ارتياحه .

وبناء على رأي الكمودور ، صعدت الى بارجة الأميرال (واشنطون) لكي نتباحث وننسق آراءنا تجـاه البرقيات التي ننتظر وصولها . ولما وصلنا الى جبـل طارق ، تلقينا عن طريق السفينة « ذي سبارك » الأمريكية أوراق اعتمادنا بوصفنا مفوضين لتجديد معاهدة السلام مع الجزائر .

وقد تلقينا مرفقه بتعليماتنا أيضا رسالة من رئيس الولايات المتحدة ، ردا على الرسالة التي بعث بها اليه الداي فى 24 أبريل الأخير ، كما ذكرت سابقا .

ونظرا لأن المفوضين الأمريكيين يعرفان جيدا حالة الجزائر وشخصيتها وسياستها ، فقد صمما على أن يوجها الى الداي انذارا مرفقا برسالة رئيس الولايات المتحدة (10) .

وتنفيذا لهذا التصميم ، توجها بالبارجة « واشنطون » والسفينة « سبارك » فى اتجاه الجزائر حيث وصلا فى 8 ديسمبر . وأما بقية قطع الأسطول ، فقد اتجهت الى ميناء ماهون (Mahon) (11) .

ونظرا لأن ظروف الطقس تجعل من الخطر الرسو فى خليج الجزائر ، فقد نزلت وحدي الى البر وتعهدت بأن أسير المفاوضات وأنهي كل شيء حسبما وقع الاتفاق عليه .

وفى يوم 17 من الشهر ، بدأت المفاوضات بيني وبين الداي عمر باشا ، الذي سلمت اليه رسالة رئيس الولايات المتحدة ومذكرة المفاوضين .

ولقد التزم الداي عمر من جانبه فى هذه المفاوضات بكثير من المجاملة واللياقة ، ولكنه بذل مجهودا رائعا لكي يتجنب الوصول الى نتيجة ، أو بعبارة أدق الى تجديد المعاهدة الجزائرية الأمريكية ، وأنا أعتقد استنادا على دلائل قوية على أنه كان مصمما على عدم الوصول الى هذه النتيجة .

---

10 – راجع الملحق و .

11 – ميناء جزر البليار ، يبلغ عدد سكانه فى الوقت الحاضر 16000 نسمة .

وقد شكى الداي من الوقت الذي استغرقه رئيس الولايات المتحدة للرد على رسالته ، وحسب الشهور التي مضت على أصابعه وطالب بمنحه مهلة مماثلة للتفكير .

وبعد ذلك ، اتجه الي الداي وناشدني شخصيا ، متخذا مني شاهدا على الكوارث التي حلت به مؤخرا والتي وضعته تحت رحمتنا ، وقال انه يعرف أنني رجل نبيل وأنه يجب ألا أستغل حظوظه العاثرة .

ونظرا لعدم رغبتي فى الدخول فى مناقشة مسائل دقيقة مثل التيأثارها ، فقد أجبته بأنني ، مهما تكن رغبتي فى أن أكون عند حسن ظنه بي ، فأنا سأتصرف مع زميلي على أساس تعليمات رئيس الولايات المتحدة ، التي لا أستطيع أن أحيد عنها دون أن يكون فى ذلك عصيان للأوامر ، وأضفت أن هذه التعليمات حررت ، كما يدل على ذلك التاريخ الذي تحمله فى وقت لم تكن فيه الكوارث التي حلت بالجزائر معروفة فى الولايات المتحدة .

ولما رأى الداي عمر تصلبي ، أو بعبارة أدق ، عدم امكان تجنب الخضوع لشروطنا ، ظهرت على وجهه آثار الاسترخاء واعتدال المزاج ، وقال لي ، ان الكوارث حرمته من وسائل المقاومة ، وأنه يوافق على تجديد المعاهدة بالشروط التي اقترحها ، أو غيرها من الشروط التي يحلو لي أن أمليها ، وذلك بشرط أن أقدم اليه شهادة مكتوبة بيدي ومختومة بختمي ، تثبت أنني أرغمت ارادته .

وأجبته قائلا : ان الشروط التي اقترحتها بأمر رئيس الولايات المتحدة ، شروط معقولة ، وهي الشروط التي تقترح فى جميع الظروف، وأنني سوف لا أتردد فى منحه الشهادة التي يطلبها (12) .

12 – راجع الملحق و .

وهكذا عقدت معاهدة السلام ووقعت فى يوم 23 ديسمبر .

كان رعايا الداي عمر من الجهال الذين يتعلقون بالخرافات و يتهمونه منذ وقت بعيد بأن الحظ غير مسعف له ، والوباء الذي اجتاح البلاد ، ولا سيما مدينة الجزائر ، فى صيف سنة 1817 ، أكد هذا الاتهام بسوء حظ الباشا .

وكذلك استغل علي خوجه الذي كان حصيفا ويعتبر من علماء الدين هذه الظروف ، ونجح فى تدبير مؤامرة بين الانكشارية لخلعه .

وسواء أكانت المؤامرة محكمة التدبير ، أم أن الداي قد غفل ولم يتخذ الاحتياطات المعتادة ، فان المتآمرين فاجئوه فى فراشه يوم 8 سبتمبر ، وأعلنوا اليه أن أجله قد حان . وبعد مساومات غير مجدية للحصول على تنازله على العرش ، قتلوه خنقا فى عين المكان .

كان الداي عمر ذا صفات أخلاقية رفيعة ، ولكنه كان ضيق أفق التفكير فى الشؤون الدينية والسياسية معا . فان أي اعتداء على حدود الشرع يتعرض صاحبه للعقاب الشديد فى عهده .

ولو قرر الداي عمر التخلي عن العادات القديمة ونقل مقر اقامته الى القصبة ، حيث يكون فى مأمن من المؤامرات المفاجئة ، لكان الآن ، على الأرجح بصورة تشبه اليقين ، على قيد الحياة ولا يزال على عرش الجزائر .

والآن أختتم هذا الاستطراد بتسجيل ملاحظات عن بعض ملامح عمر باشا ، بلغت الى علمي ، وهي تدل على شفقته وعلى صفات أخرى فى شخصيته .

ففي أواخر سنة 1815 ، دبرت مؤامرة كان على رأسها عبد الله ، وزير البحرية ، وهذ ا الرجل كان من قطاع الطريق فى منطقة تقع فى

جوار أزمير ، ولما وصل الى الجزائر لم يلبث أن ترقى وأصبح حاجبا ثم صديقا مسموع الرأى ، ثم وزيرا للداي الغاشم ، الحاج علي الذي انتهى به الأمر أن اغتاله بيديه ، ومكافأة له على هذه الجريمة رقاه عمر باشا ، عقب اعتلائه العرش ، الى منصب وزير البحرية ، وعبد الله هذا لم يكن يتمتع بأية فضيلة ، وقد كان يجمع الى جانب البخل والقسوة وحب الانتقام وجهل وحشي ، طموحا لا حد له .

انه لمن حسن الحظ أن المؤامرة التي دبرت لاغتيال الباشا ووضع السلطة فى يد هذا الخبيث قد اكتشفت فى الوقت الملائم ، وأن وزير البحرية قد اعتقل فى 12 ديسمبر .

وبدلا من أن يقتل كما جرت العادة هنا فى مثل هذه الحالة ، عفا عنه الداي عمر ووضعه فى سفينة لتنقله هو وعائلته وثروته الى الشرق ، وذلك على حساب الحكومة ، وقد ترك الوزير لأخيه ضياعه وأراضيه ليتمتع بها (وهي أملاك واسعة) .

والشخص الذي حل محل عبد الله على رأس البحرية كان « تشو » أو الجلاد ، وهو لا تميزه أية سمة تستحق الذكر ، وقد كانت الغلظة والغضاضة والجهل ، هي مميزات شخصيته ، والجدير بالذكر أن الشعب كان قد اتهمه بالتواطىء مع العدو أثناء معركة 27 أغسطس وطالبت الجماهير بقطع رأسه بأصوات مرتفعة ، وكذلك وضعه الداي عمر فى السجن . والواقع أن الشؤون الجزائرية لم تكن قط تتطلب ضحية كما كانت فى تلك الظروف ، ومع ذلك ، فقد رفض الباشا قتله ، وفى أول مناسبة مواتية ، وضعه فى سفينة مع أسرته وأرسله الى لبنان .

ولما ارتقى عمر باشا العرش ، بعث بمن يحضر أمه وأخاه الذين وصلا الى الجزائر فى صيف سنة 1816 ، ولكنه يبدو أن الداي كان يعتبر

نفسه فى حالة ميئوس منها ، لأن أخاه عاد الى جزيرته الأصلية بعد المعركة مباشرة . وقبل أن تقلع السفينة التي تقله ، (مع أم الداي وابنه) استدعى الداي قبطان السفينة السويدية مع قنصل السويد وقدم للأول هدية رائعة ، وأوصاه بأن يعتني بأمه وولده ، أعز شيء لديه فى أيام وحدته ، وبهذه المناسبة لم يستطع الداي حبس دموعه التي سالت غزيرة ، كما أخبرني قنصل السويد .

من الممكن أن نفسر المثالين الأوليين لشفقة الداي باعتبارات تتصل بالسياسة ، ولكن المثال الأخير لا يقبل اساءة التأويل .

ونحن لا نستطيع أن نفهم شخصية عمر باشا وتقديرها حق قدرها ، الا اذا عرفنا شخصية الداي العادي فى الجزائر . لقد حل محل العنف والوحشية والجهل ، بارتقاء عمر باشا العرش ، مظهر النبل والوقار والعدل والرحمة ، وانه لمن حسن الطالع أن هذا المثال الرائع لا يزال يحتذيه خلفاؤه من بعده .

كان على خوجه رجلا ذكيا طيبا وذا مواهب ، ولكنه كان معروفا بالوقاحة وسرعة الغضب ، وقد خرق التقاليد المتبعة فى الجزائر منذ قرون واستحوذ على فتاتين احداهما يهودية انجليزية ، والأخرى من مملكة سردانية وضمهما غصبا الى حريمه ، وكذلك وجه أسطوله فى عمليات القرصنة ، فى وقت كان فيه الوباء يحصد مائة وخمسين شخصا فى اليوم فى مدينة الجزائر ، وقد أسر هذا الأسطول سفينة تابعة لمملكة سردانيا مثقلة ببضائع كبيرة القيمة ، وكان ذلك لسبب تافه ، كما أسروا عدة سفن فرنسية وأسبانية أطلق الداي سراحها بعد ذلك .

وهؤلاء القراصنة كانوا أثناء جولتهم فى عرض البحر يصعدون الى ظهر كل سفينة وينشرون عدوى الطاعون بين بحارتها ، ولم يكونوا

يحترمون سوى السفن الامريكية التي كان الأسطول الأمريكي فى ذلك الوقت يتجول فى مناطقها ، فقد رأوا من غير الملائم زيارتها .

كان على خوجه رجلا كثير العمل واسع الاطلاع ، ولربما كان أكبر عالم متطلع فى الجزائر فى ذلك الوقت . وأما لقب الخوجه فقد كان الأتراك هم الذين أطلقوه عليه ، ولكنه لم يمارس قط مهنة الكاتب .

والغريب أنه بعدما ارتقى العرش بأعمال دموية قاسية كان دائما يدعى العلم والتقوى .

وفى مناسبات الأعياد والحفلات الرسمية التي يستقبل فيها قناصل الدول الأجنبية ، كان هؤلاء يمرون فى طريقهم اليه على عشرات الجثث، ولكنهم عندما يصلون الى قاعة الاستقبال ، يجدونه يرتدي أفخم الأزياء ، محاطا بالحرس ، وبين يديه كتاب ، وعندئذ يتظاهر بأن القنصل قد قطع عليه التأمل والقراءة فيلقي بالكتاب جانبا فى عجلة .

كان علي خوجة مقتنعا بأنه قادر على اعادة المجد الى الجزائر مع قوتها البحرية ، وكأنما أراد أن يثبت للعالم عدم جدوى معركة 27 أغسطس واحتقاره للدول البحرية التي شنتها ، فقد حمل أحد الرعايا الانجليز ، وهو شقيق الفتاة اليهودية التي ذكرناها ، على اعتناق الاسلام، وعينه مترجما له .

والاعتقاد السائد فى مدينة الجزائر هو أنه لم يحل بينه وبين ضم ابنة قنصل انجلترا وشقيقة قنصل هولندا الى حريمه سوى الموت . وأسرار حريمه وقصره ، نشرت بعد موته من وباء الطاعون .

لم يلبث الانكشارية أن أدركوا أنهم وضعوا على العرش فى مكان أمير نبيل الشخصية شديد الحرص على مصالح وطنه ، رجلا مستبدا طاغية ، أنانيا ، ذا نزوات وسفاكا للدماء ، وكذلك دبرت عدة مؤامرات

في الثكنات لخلعه ، ولكن هذه المؤامرات اكتشفت في الوقت الملائم .

وكان من نتائج ذلك أن نقل علي خوجة مقر اقامته مع الخزينة العمومية (13) الى قصر الداي القديم في القصبة ، وهناك نظم فرقة من حرس قصره تتكون من الجزائريين وظل يحذر من الأتراك .

ويبدو أن هذا الداي قد وضع خطة تقضي بالغاء الانكشارية كلية ويجعل العرش وراثيا في عقبه .

وكذلك اضطهد الأتراك بدون فتور ولا توان ، وبكل ما يمكن من الوحشية ، وقد قدر عدد الأتراك الذين قتلهم بنحو ألف وخمسمائة رجل .

لقد كان عهد علي خوجه الذي هلك في الطاعون في سنة 1818 ، عهد مذلة وسوء حظ للايالة .

ولما تولى حسين داي العرش خلفا له ، اختار ، هو الآخر القصبة مقرا له ، حيث توفرت شروط الأمن له .

ولما بلغتني أخبار نشر القراصنة الطاعون في السفن في عرض البحر ، قصدت الى الداي وقلت له انه نظرا لأن الجزائر ليست في حالة حرب مع أية دولة فينبغي له أن يأمر قواده البحريين بعدم زيارة أية سفينة تجارية أمريكية في عرض البحر ، ما دام الوباء موجودا في البلد . وقلت له

---

13 — ذكر عدد من الاشخاص في هذه المناسبة بانهم يقدرون قيمة محتويات الخزينة التي نقلت على ظهر البغال الى القصبة ، وقالوا انها تصل الى مبلغ ضخم ، وهو 50 مليون دولار . وانا لا ادعي علما دقيقا في هذا الموضوع ، ولكن مما لا شك فيه أن الخزينة تحتوي على مبلغ ضخم . المؤلف . وتعليق المترجم على هذا القول هو انه (كان الدولار الاسباني في الاربعينات من القرن الماضي ، يساوي 3ر4 فرنك للدولار الواحد . واذا كانت قيمة تبادل العملتين لم تتغير كثيرا في غضون العشرين سنة التالية بعد تسجيل شالر لهذا الرقم ، فان قيمة كنز القصبة الذي نهبته القوات الفرنسية عند احتلالها المدينة ، تزيد عن 200 مليون فرنك . وهذا ، بالطبع تقدير تقريبي نلجأ الى ايراده لعدم وجود اي تقدير آخر فيما نعرف .

أيضا أن النتائج التي تترتب على فرض الحجر الصحي على السفن التي يزورها القراصنة ، باهظة التكاليف وأنه لا يمكن تحمل ذلك بصبر ، وبعبارة أخرى ، فان مثل هذه الزيارات سوف لا تتم بدون عقاب .

وقد رد علي الباشا بأنه سوف يعمل كل ما في وسعه لارضاء رغبات الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكنه دافع عن حقه فى أن يزور ضباطه جميع السفن التي تقابلهم فى عرض البحر لكي يتأكدوا مما اذا كانت تابعة لبلد صديق أو لبلد عدو ، واختتم بأن اقترح أن يتم الاتفـاق على اشارة معينة تجعل من الممكن التعرف على سفن الولايات المتحدة ، دون أن يحتاج الأمر الى الصعود على ظهرها .

وفى شهر أبريل ، وصل الأسطول الأمريكي الذي يقوده الكمودور ستيوارت Stewart الى الجزائر وأرسى فى مينائها ، ولما تقدم اليه بنفس الطلب الذي قدمته أنا ، قبله خلف علي خوجة بدون أية مناقشة وقام بتنفيذ تلك الشروط بكل اخلاص .

وفى شهر يونيو التالي ، وصلت الى الجزائر البارجة « ذي سبارتن » والسفينة الحربية « ذي سبراي » فى مهمة عن الحكومة الانجليزية .

وقد كانت نتيجة هذه الزيارة اطلاق سراح الفتاتين اللتين تحدثنـا عنهما سابقا ، مع دفع الداي تعويضا لكل واحدة منهما ، قدره 5000 دولار ، بالاضافه الى دفع تعويض قـدره 30,000 دولار للسـفينة التابعة لمملكة سردانية التي أسرت واحتجزت حمولتها . وعلاوة علـى كل ذلك ، تعهدت الحكومة الجزائرية بأن لا تبعث قراصنتها فى جولات فى عرض البحر ، ما دامت الجزائر تعاني من وباء الطاعون .

وفى أواخر نفس السنة ، اجتمع ملوك الدول الأروبية الكبير فى مدينة « ايكس لاشابيل » فى مؤتمر جديد ، من أجل تحديد المصالح العامة للعالم المتحضر على أساس متين ، فيما قيـل ، علـى أن نتائج

المداولات التي جرت فى هذا المؤتمر لم تنشر ، ويبـــدو أن مصـــالح الجنس البشري قد بقيت بدون تحديد ، كما كانت من قبل .

ومع ذلك ، فان أسطولا بريطانيا فرنسيا قد وصل الى الجزائر فى سبتمبر 1819 ، وأعلن قائداهما للداي أن مؤتمر « ايكس لاشابيل » قد قرر أنه يجب على دول البربر أن تمتنع عن ممارســة القرصنة فى المستقبل ، واعلان الحرب على أية دولة مسيحية أروبية .

وبعد بضعة أيام من التفكير والتروي ، رفض الداي هذا الانذار ، محتجا بالحقوق التي تعترف بها للجزائر معاهدات دولية رسمية أقرها العالم كله خلال قرونا متوالية .

والمسألة ، هي ما اذا كان مؤتمر « ايكس لاشابيل » كان جادا حقيقة فى هذه المناسبة ، أم أنه وقع ضحية للمغالطة والتضليل بالتقارير التي قدمتها الأطراف التي كلفت بتنفيذ قراراته التي تتعلق بدول البربر .

كان الجزائريون الذين قلما يهملون مصالحهم ، قد بعثوا فى أوائل سنة 1819 ، الى لندن بسفارة على متن سفينة حربية وضعت تحت تصرفهم لنقلها ، وكانت مثقلة بالهدايا التي من بينها الجياد والسبـاع والنعام الخ . وقد استقبل وزيرهم الذي أرســل على رأس هــذه السفارة فى كارلتون هاوس بالاحترام والمراسم المعتادة .

والهدف من هذه السفارة غير العادية ــ بقدر ما أمكنني معرفته ــ هو الرغبة فى معرفة ما اذا كان فى امكانهم ، أم لا ، وبدون أن يجروا على أنفسهم غضب بريطانيا ، الاستمرار فى خرق المعاهدات التي تربطهم بالدول الصغيرة ، حسبما تمليه أهواؤهم ، ونهب تجارة الدول التي ليس لها تمثيل معتمد فى الجزائر ، فان هذه المسائل لم يقرر اللورد ايكسموث شيئا بشأنها .

وقد علمت من مصدر لا يتطرق اليه الشك أن الوزير الجزائري ، قد عرض على الوزير البريطاني ، باثورست (Bathurst) المسألةالتالية :

نظرا لأن حكومتنا قد ارتبطت بعدم اخضاع أي مسيح لقيد العبودية، فهل تستطيع سفننا الحربية ، دون أن تضر بمصالح بريطانيا ، قبل الأسرى الذي لا تسمح المعاهدات باسترقاقهم ؟

ويبدو أن الوزير الجزائري قد اغتر بما أبداه الـوصي على العرش البريطاني وحاشيته من روح المجاملة ، قد توهم أن هذا الطلب قد وافقت عليه الحكومة البريطانية ، وذلك لأنه ، لدى عودته قد حمل حكـومة الايالة على الاعتقاد بأنها تستطيع ، كالمعتاد فى السابق ، أن تعتمد على صداقة بريطانيا وحمايتها .

ونتيجة لهذه الأخبار التي أثارت موجة من السرور العارم فى الجزائر، شرعت السلطات الجزائرية فى تجهيز سفن القرصنة ، ولكن هذه الآمال العريضة لم تلبث أن تبخرت بعد ذلك بأسبوعين ، عقب وصـول الأسطول البريطاني الفرنسي المشترك بانذار مؤتمر « ايكس لاشابيل» .

وفى غضون هذه الفترة من تاريخ الجزائر الذي عالجناه فى هـذا الكتاب ، كانت فرنسا قد تنازلت على السيادة على البحـار لغريمتها بريطانيا ، وأصبحت علاقاتها بالايالة لا تتجاوز نطاق الدفاع .

وفى أواخر سنة 1815 ، وجهت الحكومة الملكية التي عادت الى حكم البلاد وكيلا (قنصلا) ليمثلها فى الجزائر ، ومنذ ذلك الوقت ، بدأ عهد من الترضيات الباهظة التكاليف وغير المعقولة تجاه هؤلاء القراصنة . ان هذه الترضيات والتنازل سياسة لا تليق بمقام دولة كبيرة ، وهي قد أثرت فى سمعة فرنسا هنا الى حد يصعب علي معه الدخول فى التفاصيل التي تتقزز منها نفس الانسان .

لم تعترف الجزائر قط ، بحكومة جوزيف نابليون فى أسبانيا ، وذلك نتيجة لممارسة انجلترا نفوذها ، أثناء الثورة التي تلتها جهود الامبراطور نابليون لتنصيب شقيقه على عرش أسبانيا .

وفى هذه الأثناء ، كانت المبالغ الضخمة التي تكلفهـا العلاقـات الجزائرية الأسبانية ، تغطيها قروض من بعض اليهود الجزائريين بسعر مرتفع جدا للفائدة ، بواسطة قنصل أسبانيا .

وفى غضون سنة 1813 — 1814 ، قام باي وهران بثورة على الجزائر وزحف على رأس جيشه شرقا حتى وصل الى مكان لا يبعد عن العاصمة بأكثر من ثلاثة فراسخ .

وبعد انتصارات وهزائم ، تمكن الداي عمر باشا الذي كان يشغل منصب الأغا من قمعها وأسر باي وهران ثم أعدمه .

وفى هذه الأثناء ، هرب يهودي كان مسموع الكلمة عند الباي ، من وهران حاملا معه جزءا من كنوز الباي ، ثم التجأ الى جبل طارق ، بعد ما نزل فى مالقة فى المرحلة الأولى .

وعقب اعتلاء عمر باشا العرش ، فضل الاعتقاد بأن أسبانيا قد أسبغت حمايتها على هذا اليهودي ، ونتيجة لذلك أقام دعوى عـلى الحكومة الاسبانية وطالبها باعادة مبلغ ضخم ، ولكنه غير معروف بالتدقيق ، باعتباره الكنز الذي يفترض أنه هرب به اليهودي .

وقد احتجت أسبانيا بأن هذه الدعوى لا تقوم على أسـاس من الواقع أو العدل ، وانتهى بها الأمـر أن أرسلـت (هي الأخـرى) أسطولا الى الجزائر ، فى سنة 1817 ، وقد صرح قائد هذا الأسطول بأن أسبانيا لا تعترف بادعاءات الداي ، وأنها لا تنوى حتى الدخول فى مباحثات معه بشأنها .

وكذلك ، اكتفى الداي بمطالبة أسبانيا بمبلغ 300ر000 دولار ، وفى نفس الوقت ، بلغت ديون اليهود الجزائريين مبلغا ضخمـا ، نتيجـة خصوصا ، لتراكم الفوائد عليها . وقد تنازل اليهـود على هذا الدين لحكومة الجزائر . واذا أضيفت حصيلة هذا الدين الى المبلغ السابق الذي تطالب به حكومة الجزائر ، كان المجموع حوالي مليون وثلاثمائة ألف دولار .

ومنذ سنة 1815 كانت أسبانيا تبذل جهودا مستمرة من أجل تسوية معقولة ، ولكن بدون جدوى ، ويبدو أن الايالة لا تريد التنازل عن أي قسط من هذه الديون ، وتقتصر على المحافظة على حقوقها كاملة فى هذه القضية . وهي ربما تحتفظ بحقها فى تسديد هذه الديون بالالتجاء الى القوة فى الوقت المناسب .

وبعد الثورة ، أحست الحكومة الاسبانية الدستورية أن العـلاقات الغامضة مع الجزائر شيء يضر بمصالحها ويمس بشرفها فى نفس الوقت ، ولذلك وجهت تعليمات الى قنصلها بأن يطلب الى الداي تصفية هـذه القضية ، واذا رفض ذلك ، فعلى القنصل أن يغادر الجزائر .

وصلت هذه الرسالة الى الجزائر فى شهر يونيـو 1822 وحملهـا أسطول أسباني هولندي مشترك . وكانت هولندا قد ارتبطت بأسبانيا بمعاهدة للدفاع ضد دول البربر ، عقدت فى سنة 1815 .

ولما كان رد الداي عن مطلبه غير مرض ، هرب القنصل والتجأ الى الأسطول ، وبذلك قامت حالة قريبة من حالة الحرب .

كان الجزائريون قد بعثوا فى سبتمبر 1821 بأسطول يتكون من ثمان سفن حربية الى الشرق لمساعدة الأتراك لقمع ثورة اليونان ومـوري

وهذه القوات عززها الأسطول الجزائري بدفعات متوالية من البحارة ، وبعد هزيمة حملة القبطان باشا فى خليج «باتراس» Patras في سنة 1822 ، عادت هذه القطع البحرية الى الجزائر . Morée (14)،

كان الداي يشعر بالفخر للسمعة التي حازت عليها القوات البحرية الجزائرية فى المشرق ، كما كان يحسب حساب السياسة الغامضة التي تنتهجها الدول البحرية الكبيرة ، وكذلك وضع ، فيما يبدو ، خططا تتسم بكثير من الطموح . وقد قرر أن يناقش صلاحية الاتفاقيات التي عقدتها الايالة مع بريطانيا بواسطة اللورد اكسموث فى سنة 1816 ، كما صمم على اعلان الحرب على أسبانيا ، على الرغم من المحالفة التي تربطها بهولندا ، وأخيرا قرر العودة الى الأيام الجميلة التي كانت فيها الجزائر تسترق المسيحيين .

ان الحقائق التي ذكرناها فى هذا الكتاب تدل على مدى الاحترام والتقدير الذي كانت الدول البحرية الأروبية ، ولا سيما بريطانيا ،تعامل به دول البربر ، وخصوصا ، الجزائر . ونحن قد رأينا أيضا كيف أن بريطانيا كانت تتلكأ فى الموافقة على تحريم القرصنة مع ما تمثله من خطر على التجارة والحضارة ، وذلك فى الوقت الذي تنادي فيه باسم المقدسات الدينية والفلسفة بالغاء الرقيق الأسود ، وأخيرا ، اضطرارها الى الموافقة على الغاء القرصنة الجزائرية نتيجة للاجراءات الشديدة التي اتخذتها الولايات المتحدة ، منذ معاهدة « خانت » ، تلك الاجراءات التي جعلت من السخرية الصبر وقتا أطول وتحمل عمليات السلب والنهب فى عرض البحر .

---

14 ــ هو الاسم الذي تحمله البيلوبنيز عقب غزو اللاتينيين لها فى سنة 1205 م .

وفيما يتعلق بقضية تحريم الرق ، فان هذه القضية لا يمكن أن يختلف بشأنها شخصان مستنيران ومحبان للانسانية ، على أنه من المؤكد أن التجارة فى الرقيق ليست الآن أكثر فظاعة مما كانت عليه ، فى الوقت الذي حصلت فيه بريطانيا على امتيازات «اسينتو» المشهورة والتي تستغلها على سبيل الرشوة لكي تدخل فى المفاوضات التي أسفرت على انهاء معاهدة «أوتريخت» ، أو فى غضون الستة عشر عاما التي استغرقتها المناقشات فى البرلمان بشأن هذا الموضوع الخطير الشأن قبل اصدار قرار فيه .

ان الزمن ، هذا المعلم الكبير ، الذي لم يفته قط أن يلقي أضواءا ساطعة على الحوافز التي تكمن وراء تصرف الانسان ، سوف يضع هذه المسألة فى الرواية لتنظر اليها الأجيال المقبلة ، وسيوزع المدح والذم حسب أعمال الانسان ونياته .

وأما فوائد الولايات المتحدة وشرفها ومصالحها ، حين حملت الدول البربرية على احترام علمها فى البحر ، بدلا من أن تشتري رضاها بالضريبة والهدايا التي لا تنتهي ، فهي مسألة لا تحتاج الى الشرح والتعليق .

انني أحب أن أعتقد أن الحزم الذي أبدته الدول الكبيرة فى مؤتمر « ايكس لاشابيل » سيكون من نتائجه تنفيذ قرارات ذلك المؤتمر ضد الدول البربرية ، ومتى آن ذلك الأوان ، فستكون مرابطة قوة بحرية صغيرة فى البحر الأبيض عاملا رادعا كافيا للمحافظة على النظام الذي تطبقه الولايات المتحدة بشأن هذه القضية ، ولكنه قبل ذلك ، لا بد من تجريد أسطول قوي لجعل هذه الدولة تتخلى عن ممارسة القرصنة ، ولو تخلينا عن هذا النظام لكان معنى ذلك انهيار السمعة التي كوناها فى الجزائر وشهرتنا بالحزم ، وبذلك نبرر تنبؤات المنافسين

الغيورين منا ، ونضع تجارتنا فى البحر الأبيض المتوسط تحت حمـاية الضريبة المهينة والتي لا يمكن الثقة فيها ، على كل حال .



الفصـــل الســـادس

المصير المحتمل لهذا البلد الجميل ، اعظم موقع فى افريقية لاستكشاف القارة ولنشر التجارة فى الداخل ، التأثير الذي يحتمل ان يكـون علـى الحضارة نتيجة لاستقرار امه اروبية فى افريقية الشمالية وتحريم التجارة فى الرقيق الاسود .

لقد حاولت فى الفصول السابقة أن أقدم فكرة دقيقة مفصلة عن قوة الجزائر ومواردها وسياستها ، وأنا أعتقد أنني أثبـت أن الجـزائريين لا يملكون حتى الوسائل (الدفاعية) التي تسمح بالتعـايش السلمي مع الدول الأخرى ، وبالأحرى الوسائل التي تمـكنهم من مسـاندة ادعاءاتهم المهينة بأن يبقوا خارج تيار الحضارة بدون عقاب .

والقرون الثلاثة التي مرت على وجودهم السياسي كقراصنة تقوم ، لا على أساس قوة حقيقية ، بل على أساس تأثير أفكار سياسية تتناقض مع الحرية والتقدم الذي عرفه هذا القرن .

وعلى الدولة المتداعية الآن والتي تسمى الامبراطورية العثمانية والتي تعيش على حافة الهاوية أن تزيل آخر الادعاءات التي جعلت من الممكن احتمال القرصنة التي تتناقض مع الوجود الاجتماعي .

وبالنسبة للمواطن الأمريكي الذي يقدر بحق قوة بلـده وسياستـه المستقلة ، فان وجود القراصنة أو القضاء عليهم سيان ، ومع ذلك ،

فان وجودهم الذي يضطر الولايات المتحدة الى الاحتفاظ بقاعدة فى البحر الأبيض المتوسط لحماية شرف البلد ومصالحه ، قد كـان ولا يزال ذا فائدة كبيرة لزيادة قوة أسطوله .

وكمبدأ عام ، قد يكون من المفيد البحث لمعرفة ماذا سيكون مصير هذا البلد الجميل الذي يقع قريبا جدا من مراكز الحضارة ويملك الوسائل التي تسمح باعاشة عدد كبير من السكان ، ومناخا معتدلا ، وتربة لا تقل خصبا عن أخصب الأراضي ، وأخيرا ، عناصر القوة التي لا يمكن أن تتغلب عليها قوة دولة أخرى فى نفس حجمه وامتداده الجغرافى .

ولو كان هذا الجزء من الأرض فى يد شعب متحضر نشيط ، لأمكنه أن يتطلع فى هذا الجيل نفسه الى عهد نادر من الرخاء والمجد والى نشر الحضارة فى هذه القارة الواسعة التي لا يزال سكانها يعيشون فى ظلام دامس من التوحش .

وموقع الجزائر ، هو النقطة الوحيدة التي يمكن وقوع الاختيـار عليها لتحقيق هذا الهدف الخطير الشأن .

ونحن قد أوضحنا فى الصفحات السابقة بما لا مزيد عليه أن الحكومة الجزائرية كما هي موجودة فى الوقت الحاضر ، غير قابلة للتحسين ، وان وحشية الأتراك وجهلهم أمر غير قابل للاصلاح ، وهذه الحكومة غير المعقول ستنهار حتما بمجرد ما تضطر الى التخلي عن القرصنة ، واذا سارت الأمور على منوالها الحالي ، فان وقت هذا الانهيار غير بعيد .

وحينئذ ، سيكون من نتائج التخلف الذي يعاني منه الأهالي وعدم وجود أي أثر للتعليم والتدريب السياسي انقسام هذا الشعب الى قبائل متعددة تحافظ كل واحدة منها على استقلالها . وستنجم عن المنافسة والغيرة بينها حروب وتصبح كل محاولة لتحسين الوضع غير مجدية

بسبب طبيعة السكان المتقلبة ، وحينئذ سيدخل فى عهد من الوحشية ويجعلون من هذا البلد الجميل صحراء قاحلة .

انني لا أستهدف دحض الأسباب السياسية ، اذا كانت توجد أسباب حقيقية ، التي قد تتعارض مع احتلال بلد أروبي لهذا البلد . وذلك على الرغم من أن الحلف المقدس ، قد رأى بمقتضى حكمته ، أن من الملائم انزال أسبانيا الى مستوى امبراطورية المغرب الاقصى ، فى مجال الأهمية السياسية ، انه لمن المرجح أن الحلف المقدس سوف يعارض كل محاولة تقوم بها دولة (أروبية) لغزو بلاد البربر وتمدينها .

وكذلك لا يبدو من الضروري منافشة مسألة المستعمرات مناقشة ولو تمهيدية ، فان عدم جدوى المستعمرات للدول المستعمرة ، اذا أخذ كمبدأ النظام الحديث للاستعمار ، قد أثبتته الأيام للدول الأروبية التي لها امبراطوريات . فان الولايات المتحدة (مثلا) وهي بلاد تربطهـا روابط من اللغة والعادات والقوانين بانجلترا ، (ولو أنها بعيدة عنها) التي تجني منها الآن فوائد اعظم من الفوائد التي كانت تحصل عليهـا أيام كانت تلك البلاد مجرد مستعمرة تابعة . على انه يمـكن القيـام بمحاولات للاستعمار على الطراز القديم ، وبقدر ما يمكن للعقل تصوره وللتجربة اثباته ، يبدو أن من المنطق ان نتوقع لمثل ذلك النظام نجاحا باهرا ، متى تم اختيار الموقع بحـكمة ، ومتى خصصـت الوسـائل الضرورية لضمان الحماية والرخاء للاستعمار فى المراحل الأولى .

لقد أبدت بريطانيا فى تاريخها السياسي طموحا ورغبة فى التوسـع أقلقت أكثر من مرة راحة الأمم وعرضت استقلالها للخطر ، ولكن طبيعة مؤسساتها ووضعها الجغرافى الخاص بين الدول الأروبية قد جعلت منها تبعث القلق أكثر مما تبعث الخوف فى نفوس جميع أولئك الذين تساور نفوسهم الشكوك فى الحق الالاهي وعصمة الملوك .

وبريطانيا هي الدولة الوحيدة التي أقامت في العصور الحديثة مستعمرات على أساس المبادىء الدستورية ، ومن هنا نرى أن مستعمرات بريطانيا تبدي تعلقا بالحريات المدنية ، ومقدرة على حكم نفسها جديرة بأجمل الأيام التي عرفها أجدادها ، وذلك في الوقت الذي نجد فيه مستعمرات البلدان الاخرى لا تتجاوز أوضاع شعوبها أوضاع العبيد تجاه البلد المستعمر .

واذا نظرنا الى الموضوع من هذه الزاوية ، فسيكون من مصلحة بريطانيا أن تستولي على هذه المنطقة من أفريقية لكي تؤسس مستعمرة .

ولكنه يمكن الجواب عن هذا التساؤل بالقول بأن بريطانيا مثقلة الآن بالمستعمرات المنتشرة في مختلف أنحاء المعمورة ، على أن بعد هذه المستعمرات والظروف الخاصة التي تحيط بها ، تجعل من غير الممكن أن تصبح جزءا مندمجا من قوة حقيقية في امبراطوريتها . والمستعمرات البريطانية التي لا تزال باقية في أمريكا الشمالية سوف ينتهي بها الأمر أن تصبح جزءا من الاتحاد الكونفيدرالي (الولايات المتحدة) ، ومستعمراتها في الأرخبيل الأمريكي واليابسة المجاورة له ، لا تعدو كونها ضياعا كبيرة ، سيتقرر مصيرها عما قريب ، بحيث تصبح ، على الأرجح ، في وضع سان دمينيج .

والامبراطورية البريطانية في الهند تقوم على أساس غير متين وليست بذات فائدة كبيرة في المستقبل ، على أن الامبراطورية ستظل وقتا طويلا مصدرا للدخل ومكانا للوظائف الكبيرة للرعايا البريطانيين ، بل وموردا للثروة لقطاعات كبيرة ووسيلة لنشر الفساد والرشوة في الدولة. وكون هذا من مصلحة انجلترا أم لا ، هو أمر لا يعود القرار بشأنه الي ، ولكنه يبدو من الواضح أن الهند لن تضيف شيئا يذكر الى قوة الامبراطورية البريطانية .

انه لا يمكن للانسان أن يقدر الفوائد الهائلة التي ستجنيها بريطانيا والجنس البشري كله من اقامة مستعمرة انجليزية فى نوميديا ، اذا كان لهذه المستعمرة أن تتلقى نوع المؤسسات القائمة فى بريطانيا وتنظيما سياسيا يترك لها حظا من الاستقلال ، واذا كانت بريطانيا لا تفرض عليها واجبات فيما عدا الواجبات التي تفرضها المصالح المشتركة بين البلدين . وهذا النوع من العلاقات بين المستعمر والمستعمرة ، كان هو النمط السائد فى العلاقات بين الدول (الولايات) التي يشملها الاتحاد الكونفيدرالي الأمريكي ، وهو الذي ينبغي أن يقوم بين ايرلندا وبريطانيا ، لو رأت الأخيرة أن تنتج سياسة أفضل تجاه ايرلندا .

وشواطىء أفريقية الغربية تنطوي على فوائد عظيمة للزراعة ، وهذا البلد ، بصفة عامة ، مستعد لتوفير الشروط الضرورية لقيام امبراطورية عظيمة . والواقع أن هذه المنطقة من بلاد البربر يمكنها أن توفر كميات من القمح ، والخمور ، والزيت ، والحرير ، والصوف ، أكثر من أية منطقة أخرى ، وفى هذه الظروف ، ستنتعش التجارة مع داخل أفريقية ، وتعود الى ما كانت عليه من الازدهار فى عهد الرومان حين شهد عدد من مدن هذه المنطقة من موريتانيا رخاء وعظمة لا نكاد نصدقها الآن .

وسوف تسير الفنون ومبادىء الحضارة فى نفس القنوات التي تسلكها التجارة ، لتنتشر فى المراكز الرئيسية فى هذه القارة التعسة . وسوف تلغى تجارة العبيد غير الانسانية ، وقد يؤدي الأمر الى ظهور حالة اجتماعية فى المنطقة ، والى قيام ثورة لا تقل أهمية عن الثورة التي شهدتها أروبا نتيجة لاكتشاف أمريكا واستعمارها .

ومبادىء الاقتصاد السياسي تثبت لنا كيف يكون تقدم المستعمرة سريعا ، متى كانت تتمتع بمناخ معتدل وتربة طيبة .

وكذلك تدل التجاريب على أن الانسان متى استخـدم الوسائـل الملائمة للأهداف التي يسعى الى تحقيقها ، فان النتائج كثيرا ما تتجاوز آماله ، ولو نقل الى هذه المنطقة الفائض فى السكان الذي أصبح عبئا على بريطانيا لا يطاق ، تدريجيا وطبقا لتخطيط منتظم ، ولو استخدمت بريطانيا رؤوس أموالها الهائلة لتنمية الموارد الطبيعية فى هذه البلدان ، فان من المرجح أن تصبح هذه الامبراطورية الجديدة فى غضون قـرن من الزمن ، فى وضع من الرخاء والعظمة لا يقل عن وضـع بريطانيا نفسها .

لقد سبق أن قلت أنه لا يعنيني أن أرد على أية اعتراضات سياسية ان كانت هناك اعتراضات ، ولكنني وقد أوضحت أن الأمر ممكن فى سياق الأحداث البشرية ، فيجب علي أن أثبت أن فكرتي ليست شيئا غير معقول .

ان مما لا جدال فيه أن الجزء الذي يسمى مملكة الجزائر من بلاد البربر ، تنطوي على مزايا طبيعية مغرية ، لو اعتمد مثل هذا المخطط ، فالبلد يتمتع بمناخ صحي معتدل وله تربة خصبة تصلح لانتاج مروحة واسعة من المنتجات ، كما أن له موانىء جيدة ، وهو يقع غير بعيد من أروبا ، بحيث أن شعبا أروبيا يستطيع بسهولة اقامة مستعمرة ويأمل فى تحقيق نجاح سريع ومؤكد .

والبلد ، من جهة أخرى ، يمثل ميزة خاصة ومهمة جدا ، من حيث أن عدد سكانه صغير ، وبالتالي ، فهو سيستفيد كثيرا من هذا التغيير ، لأنهم سيدخلون فى علاقات زواج مع المعمرين ، دون أن يؤدي ذلك الى تغيير فى الدم الأروبي أو الى خجل المعمرين ، وربما ظهر للبعض أن هذه الملاحظة تافهة ، ولكن قوتها وأهميتها لا تخفى على سكان الولايات المتحدة ، حيث يوجد لسوء الحظ عدد كبير من السكان الزنوج الذين لا يمكن الاختلاط بهم بنفس الطريقة .

وفيما يتعلق بوسائل المقاومة التي قد يستعملها الجزائريون فأنا لا أستطيع أن أضيف الا شيئا قليلا الى ما سبق أن ذكرته فى الفصول السابقة .

انه لمن المؤكد ، اذا وجه أسطول بحري للهجوم على صفوف المدافع الثلاثة التي تقوم على قواعد من الحجر الصلد تغطيها ألف قطعة مدفعية من العيار الكبير ، أن سفن هذا الأسطول سوف تدمر ، وذلك حتى لو كان الأسطول أقوى وأعتى من الأسطول الذي كان يقوده اكسموث فى سنة 1816 ، ولكن الجزائريين لن يستطيعوا المقاومة اذا واجهوا غزوا منسقا من البر والبحر ، وذلك حتى لو لم يكن الجيش الغازي كبيرا .

فان هذا الشعب الذي لا يتجاوز عدد أفراده مليون نسمة ، ومعظمهم من الرعاة ، ولا يملكون سلاحا ولا يعرفون معنى للتنظيم ، وهو يعيش فى رقعة من الأرض واسعة جدا ، لا يستطيع ، بحال من الأحوال القيام بأية مقاومة فعالة لغزو جيش منظم .

وحكومة الأتراك التي تمارس القرصنة فى عرض البحر تمارس قرصنة مماثلة فى البر أيضا ضد السكان فى جميع الرقعة التي يمتد عليها سلطانها ، وبالتالي ، فهي حكومة غير شعبية . وحتى لو قضت العادات السائدة ونفوذ الأتراك وتعصبهم بجمع عدد كبير من الأهالي حول الحكومة القائمة وجندت الجماهير للدفاع عن العاصمة ، فى حالة وقوع غزو ، فان المرجح أن تكون مثل هذه المقاومة غير ذات فائدة كبيرة للأتراك ، وأنها لن تستمر ، على أكثر تقدير ، سوى بضعة أيام ، وتنتهي بعد ما يظهر النقص فى المواد الغذائية ، ومتى أمكن الاستيلاء على العاصمة ، فقد قضى على حكومة الأتراك قضاء مبرما ، وسيكون من المستحيل عليها أن تجند جيشا ثانيا .

من الطبيعي أن تتصور أن النوميديين سيقومون فى الداخل بحـرب عصابات مدة من الزمن ، وهذه الحرب سيمـكن النجـاح فى قمعها بالسياسة وليس بالقوة .

وبعد الاستيلاء على مدينة الجزائر ، يبدو من المرجح أن يعلن سكان المدن من العرب ، بل ومن الأتراك أيضا ، خضوعهم للحكومة الجديدة التي تقوم على أساس من احترام العادات القديمة والتقاليد ، وحماية الأشخاص وحقوق الملكية ، وعندئذ ، يصبح جميع السكان مواطنين مسالمين ، كما حدث فى أماكن أخرى ، مثل كلكتا ومدراس .

والديانة الاسلامية فى مبدئها ، لا تعادي الحضارة والتنظيم الاجتماعي أكثر من أي دين آخر ، حينما تكون السلطة العليا فى يد غير مسلم .

ان أخطر ما يتشكى الأهالي ويتذمرون منه ، هو ذلك الحظر العام الذي فرضته حكومة الأتراك على تصدير منتجات الأرض والصناعة الى الخارج ، واذا أزالت الحكومة الجديدة هذه القيود فسوف تضمـن لها ولاء جميع القبائل الافريقية ، وفى نفس الوقت ، تحقـق الرخـاء والثروة للبلد .

والعتاد الحربي الموجود فى الجزائر ، مثل الخزينة العمومية التي هي نتاج النهب والسلب الذي دام ثلاثة قرون ، والتي يقال انها تحتوي على 50 مليون دولار (1) ، كل ذلك سيصبح ، بطبيعة الحال ، غنيمة فى يد المنتصر ، بحيث يعوضه عن النفقات الحربية التي تكبدها فى عملية الغزو .

سيكون من باب الادعاء من جانبي أن أحاول تحـديد عدد قوات الجيش الضرورية لغزو البلد واحتلاله ، ولكنه اذا تولت بريطانيا هذه العمليات ، فستجد فى سجلات غزواتها وفتوحاتها فى آسيا ، سوابق لكل المشاكل التي قد تواجهها .

---

1 – راجع اعلاه ، ص 176 هامش 13 .

الفصـــل السابــع

يوميـــات شـــالــــر

مستخلص من اليوميات التي كان القنصل يسجلها فى قنصلية الولايات المتحدة بالجزائر .

اضطرابات وقعت بين القبائل والجزائريين ، الحماية التي اسبغها قنصل الولايات المتحدة على خدمه من القبائل ، احتجاج القناصل الاجانب ، نزاع بين القنصـــل البريطاني والحكومة الجزائرية ، ارغام القنصـــل البريطاني على مغادرة الجزائر ، تسليمه مهام القيام بأعمال القنصل الى القنصل الامريكي ، محاولة الصلح بين الاميرال الانجليزي والحكـومة الجزائرية ، عناد الداى ، ضرب الأسطول البريطاني الحصار على ميناء الجزائر ، تسوية نهائية للنزاع بين بريطانيا والحكومة الجزائرية عـلى اسس متينة ، غرق سفينة امريكية عند شواطىء بلاد البربر ، دفـع القنصل الامريكي فدية القبطان وملاحي السفينة ، مفاوضات هولندا مع الجزائر .

22 اكتوبر 1823 :

وردت الينا الأخبار يوم أمس ، تقول بأن القبائل الذين يسكنـــون الجبال ، جبال بجاية ، قد أعلنوا ثورة على حكومة هذه الولاية . وقد قتل فى المعارك التي وقعت بين الثوار وقوات الحـــكومة عـــدد مـــن الأشخاص ، وأسر المفتي (الحنفي) التركي وأخذ رهينة واقتيد الى الجبال ، وهذه المنطقة تقدم كثيرا من العمال للجزائر ، ولا سيمـــا من الخدم الذين يشتغلون فى منازل القناصل الذين يحبونهم لما يتسمون به من الأمانة والنظافة .

تلقى جميـع القناصل الأجانب اليوم بواسطة « دروجمان » (1)
مذكرة من الحكومة تطالب فيها بأن يوضـع تحت تصرفهـا جميـع الأشخاص الذين ينتمون الى المنطقة الثائرة ممن يوجدون الآن تحـت خدمتهم ، لكي يعاملوا معاملة الرهائن والأسرى من الثوار ، وقـد كان القنصل الأمريكي فى ذلك الوقت قد توجه الى الريف ليقوم بزيارة للقنصل البريطاني ، حينما تلقى هذا الأمر .

وكذلك أبلغت الحكومة أن القنصلية لا تستطيع الرد على هذا الطلب فى غيبة القنصل . ومع ذلك ، فان الحكومة تمكنت من القبض ، بالحيلة والاقناع ، أو بالقوة ، على القبائل الذين يشتغلون فى قنصليات بافاريا والدانمارك وسردانية .

وأما قنصل انجلترا الذي يستخدم عددا من هؤلاء البؤساء ، فقد رد على مذكرة الحكومة بكثير من النبل اللائق ، قائلا انه لن يسلم خدمه الى الحكومة أبدا ، محتجا على هذا الرفض بالقوانين الدولية والعرف الديبلوماسي ، وحقوق الضيافة المقدسة ، وهي كلها حقـوق تحمي الانسان من أعمال العنف والقمع .

ولقد تلقى قنصل انجلترا اليوم عدة رسائل تطالبه دائما بتسليم أبناء القبائل الذين يعملون فى قنصليته الى الحكومة ، وقد انطوى تجديد الطلب على أسباب وجيهة نوعا ما ، ولكنه رد عليها كلها بالسلب .

ولدى عودته من زيارة قنصل انجلترا ، تقابل قنصـل الولايـات المتحدة فى طريقه مع قنصل فرنسا الذي بعث هو الآخر برده عـلى

---

1 — Drogman بالانجليزية والفرنسية Drogomanno بالايطالية ، كلمة مستعملة فى الادارة التركية ، مأخوذة من اللغة البيزنطية وتعني المترجم الرسمي ، وهي لا شك فى انها مأخوذة من العربية ، باستبدال التاء بالدال : «ترجمان»

مذكرة الحكومة ، ولكنه ، كان فى حيرة ولا يدري ماذا يصنع لو جددت الحكومة طلبها .

23 اكتوبر :

وصل اليوم دروجمان يحمل مذكرة أخرى من الحكومة صيغت فى عبارات أكثر تلطفا من المذكرة السابقة . فقد جاء فى هذه المذكرة أنه بالنظر الى أن الحكومة أدركت أن القنصل سيعاني بعض الصعوبات نتيجة لحرمانه من خدمه الذين قد لا يمكن من وجود من يحل محلهم ، فهي لم تعد تطالب بتسليمهم ، وانما تكتفي بأن توصيه بأن لا يسمح لهم بالخروج الى الشارع ، حيث أنهم سيتعرضون للقبض عليهم طبقا لأوامر الحكومة اذا عثر عليهم خارج القنصلية ، وقد رد القنصل على هذه المذكرة كما يتطلب الأمر ذلك .

24 اكتوبر :

تلقى القنصل الانجليزي فى غضون هذا النهار عدة رسائل من الحكومة تطالبه بتسليم القبائل ، ولكن دائما بدون جدوى . حيث أنه رفض تسليمهم ، وفى نفس الوقت وردت أخبار تقول بأن القنصل الفرنسي قد سرح القبائل الذين يعملون فى منزله وقنصليته ونصحهم بأن يعتنوا بأنفسهم (!) ان هذا الرجل الذي تربى فى المشرق يحمل فى نفسه آراءا متحاملة لا يمكن فهمها ، انه يجيد الحديث باللغة التركية ، ويميل الى الاكثار من الحديث ، وحديثه يتسم بالصواب ، ولكنه شخص لا يمكن الاعتماد عليه .

25 اكتوبر :

قبل أن يستيقظ القنصل فى هذا الصباح ، أبلغه الدروجمان أن سلطات الايالة مصممة على ضرورة تسليم القبائل الذين التجأوا الى

القنصليات الأجنبية اليها ، وأن الخزنجي قد سعى ، بالنظر الى الصداقة التي تربطه بالقنصل منذ وقت طويل ، لاستثناء القنصلية الأمـريكية واعفائها من تطبيق هذا الأمر ، ولكن جهوده كانت بدون جدوى ، وأنه الآن ينصـح صديقه القنصل بتسليم الأشخاص المذكورين ، بدلا من أن يجلب على نفسه أعمال عنف لا مفر منها ، وهو (الخزنجي) يؤكـد للقنصل أن خدمه سيعاملون بمنتهى الرفق وأنهم سيعادون اليه فى ظرف بضعة أيام .

وعقب ذلك بعث القنصل قهرمانه ليرد باسمه على رسالة الدروجمان وليقول له ان القنصل لا يستقبل قبل الساعة التاسعة صباحا ، كعادته ، وأنه من المعلوم جيدا أنه لن يرضى أبدا بتسليم الأشخاص المطلوبين ، وأنه يجب عليه هو (الدروجمان) بوصفه موظفا فى الحكومة أن يتخذ الخطوات التي يرى أنها تضمن نجاحه ، لكي يتجنب الالحاح على هذا الطلب والفضيحة التي قد تنجم عنه .

وفى نفس الوقت أرسل مترجم آخر ، وهو السيد ابن زمون ، وعلى الساعة التاسعة ، عاد الدروجمان الى القنصلية وطالب بصفة صريحـة تسليم القبائل ، وكلف بأن يبلغ القنصل طلبا جديا للغاية ، من صديقه ، الخزنجي ، بأن يستجيب لهذا الطلب ، ويؤكد له أن قوة عسكـرية مسلحة قد أرسلت الى منازل قناصل انجلترا وفرنسـا لتنفيذ هـذا الطلب ، وأن قوة مسلحة قد وجهت لنفس الغرض وأنها الآن ترابط عند باب القنصلية الأمريكية .

وقد طلب القنصل الى الدروجمان أن يبلغ شكره الى الخزنجي من أجل الجهود التي بذلها لخدمته ، وأن يبلغ تحياته بعد ذلك لأعضـاء الحكومة الآخرين (2) ، وأن يخبرهم جميعا بأنهم يطلبون اليه شيئـا

---

2 — فى الأصل : The other public authorities

لا يستطيع أن يجيبهم اليه دون أن يكون ذلك مخــلا بشرفه وشرف الأمة التي يمثلها ، وان حقوق الضيافة حقوق مقــدسة عند الأتــراك والعرب ، وأنها من القوانين الاساسية ، وأنه هو من جانبــه يلتــزم باحترامها بقدر ما يكون ذلك فى مقدرته ، وأنه لا يستطيع مواجهة القوة بالقوة وصدها ، وأنه لن يقوم بمحاولة لمقاومة أسلحة الحكومة ، لكنه لكي تستطيع القبض على أولئك ، يتحتم على قوتها أن تعتدي على حرمة أكثر الأماكن قداسة ، وهو منزله الشخصي ، وتأخذهم من هناك . وعندئذ استدعى أبناء القبائل ووضعهم فى مكتبه الخــاص وأغلــق الباب .

وعقب ذلك ، لم يلبث الدروجمان أن عــاد مرسلا من قبل وزير البحرية ووزير الخارجية ، ووراءه ضابط على رأس قوة عسكرية ، وقف عند مدخل القنصلية . وقد قدم اليه أوثق التأكيد بشأن المعاملة التي سيتلقاها خدم القنصل ، مع وعد باعادتهم اليه فى وقت قريب ، وفى نفس الوقت يرجوه ألا يقــاوم الأوامر الايجابية التي أصدرها الداي . والتي ستنفذ ، على كل حال ، بكل صرامة ، مهما تكن النتائج. وهذا التصريح أيده الدروجمان ببلاغته ودموعه ونواحه .

أجاب القنصل عن هذا الانذار ، قائلا ان الداي ووزراءه لا يملكون أية قوة تحمله على التراجع عن القيام بواجبه والمساس بشرف المنصب الذي وكل اليه من قبل حكومته ، وانه اذا أخذ الرجال القبائل منه ، فيجب أن يكون ذلك بالقبض وجرهم بالقوة من المكان الذي يوجدون فيه ، عند أقدامه ، وأنه اذا كانت الحكومة مصممة على ذلك ، فكلما أسرعت فى تنفيذ عزمها كان ذلك أفضل .

ولما رأى الدروجمان تصلب القنصل فى موقفه ، خرج من عنده ، وبعده بوقت قصير انسحبت القوة العسكرية فى اثره .

وعقب ذلك ، تلقى القنصل معلومات تفيد بأن منـــزل القنصل البريطاني فى المدينة قد اخترقت حرمته بالقوة والقي القبض فيه على اثنين من القبائليين ووضعوا فى السلاسل وجروا للقيام بالأعمال الشاقة .

وفى وقت متأخر من هذا النهار ، وصلت أخبار تقول بأن قوة مسلحة قد قصدت الى منزل القنصل البريطاني الريفي وطالبت صراحة منه أن يسلمها القبائل الموجودين فى منزله ، وأنه رفض هذا الطلب بكل حزم وعمد الى وضع أختام دولته بالشمع على باب داره ، ثم رفع عليه العلم البريطاني . ومع ذلك ، وفى أواخر النهار ، وبناء على أمر صريح من الداي ، حطمت الأختام وكسرت أبواب المنزل ، ودخلت قـــوة مسلحة اليه بطريقة تثير الفضيحة وفتشته دون أن تراعي حتى خلوة امرأة القنصل وبناته ، وهو ملجأ كان يجب أن يعتبر مقدسا . وهذه الاهانة الأخيرة (الاعتداء على حرمة النساء) هي أكبر اهانة توجه الى رجـــل فى البلدان التي تدين بالاسلام ، ولا يوجد فى السجلات التاريخية المعروفة ، مثيل لها ، حتى فى حروب المماليك فى مصر (3) .

وأما موقف قنصل فرنسا ، فهو معروف الآن جيدا . فبعدما أجرى مقابلة مع وزير البحرية عاد الى قنصليته واستدعى الخـــدم الذيـــن يعملون عنده من القبائل ودفع لهم أجورهم ، وسرحهم من خدمتـــه بمحضر الدروجمان وحارس ، وبعبارة أفضل ، فقد سلمهم الى السلطة ، وبذلك تخلى عن الدفاع على حقوق الناس فى الجزائر ، وذلك باسم الحكومة التي يمثلها هنا .

---

3 ـ المماليك ، عبيد اتراك وجراكسة ومغول ، استعان بهم الايوبيون واستخدموهم فى الجيش ، فاشتدت قوتهم وتمكن بعضهم من الوصول الى الحكم واسسوا فى مصر اسرتين مالكتين : البحريون (1253–1382) اولهم ايبك المعز ، وآخرهم حاجي الثاني، والبرجيون (1382–1517) اقاموا فى برج القلعة بالقاهرة ، فسموا البرجية ، واولهم برقوق الظاهر ، وآخرهم طومان باي الاشرف الذي اعدمه السلطان سليم العثماني .

سأل قنصل انجلترا القنصل الأمريكي ما اذا كان من الملائم تحرير مذكرة احتجاج على أعمال الحكومة الجزائرية التعسفية . وقد أجاب الأخير بأنه على استعداد للاشتراك معه فى هذا المسعى وفى كل اجراء يراه ملائما ، ولكنه لا يريد أن يكون ذلك باشتراك مع أي رجل تخلى عن مسئوليات منصبه وخان واجبه .

28 اكتوبر :

لما عاد الهدوء الى نصابه ، قصد القنصل الأمريكي الى منزل القنصل الانجليزي ، حيث اجتمع بقنصل هولندا ، وهناك علم بكثير من السرور بالموقف المشرف الذي وقفه الأخير من الحوادث الأخيرة . فان القنصل الهولندي عندما بلغته الأخبار المذكورة ، جمع القبائل الذين يعملون لديه ، وخيرهم بين البقاء تحت حمايته ، أو النجاة بأنفسهم . وقد اختار هؤلاء الحل الأخير ، وبذلك احترمت السلطات منزله .

وتزكية لشرف كل من قنصل الدانمارك وقنصل السويد ، يجب أن نذكر أن قنصلية الدانمارك كانت تقريبا غير مأهولة ولم يكن لها سوى حارس واحد ، بينما لم يكن على رأس قنصلية السويد سوى كاتب بسيط ، حيث كان القنصل نفسه غائبا عن الجزائر .

وفى هذا اليوم وصلت ثمان سفن حربية عائدة من تركيا .

26 نوفمبر :

نظرا لاصرار قنصل انجلترا على تحرير مذكرة احتجاج عامة ضد تصرفات سلطات الايالة خلال الفترة بين 22 — 25 من الشهر الماضي ، فقد رأى القنصل الامريكي أن لا يعرض نفسه لتهمة الأنانية ، فوافق على الاشتراك فى هذا المسعى ، بشرط ألا يضطر الى توقيع أي احتجاج يتضمن شيئا لا يتفق مع وجهة نظره فى الموضوع .

ونتيجة لذلك ، اجتمع القناصل فى دار قنصل هولندا الريفي ، حيث اعتمد مشروع احتجاج قدمة قنصل انجلترا باجماع الآراء .

2 ديسمبر :

عقد اجتماع فى القنصلية الأمريكية اشترك فيه جميع قناصل الدول . تناولوا طعام الغداء فى القنصلية ووقعوا مذكرة احتجاج ضد أعمال الحكومة الجزائرية فى غضون الفترة بين 22 — 26 أكتوبر الماضي . وهذه المذكرة قدمها القناصل مجتمعين الى وزير البحرية ووزير الشؤون الخارجية الذي قبلها ووعد بأن يقدمها الى الداي .

10 ديسمبر :

بلغت اليوم أخبار موثوق بها الى القنصل تفيد أن الشابين الذين التجئا الى القنصلية والذين ينتميان الى بلاد القبائل ، قد صدر الحكم عليهما بالاعدام ، وأن الداي قد أمر بتنفيذ حكم الاعدام فيها بمجرد خروجها من مبنى القنصلية .

27 ديسمبر :

وصلت اليـــوم الى الجزائر بارجتان تابعتان لمملكة نابلي ، وبعد رسوهما ، جرت بينهما وبين القنصل الانجليزي اتصالات ، ثم أقلعتا بعد ذلك مباشرة فى نفس اليوم .

1824 ـ 9 يناير :

وصلت اليوم الى الجزائر سكونه بريطانية قادمة من ازمير تحمل على متنها ستين مجندا . ولدى وصول السفينة امتطى على متنها بعض الجزائريين لأسباب غير معروفة ، فشتموا ربـــان السفينة الانجليزي وضربوه ضربا مهينا .

أقلعت قطع مع الأسطول الجزائري ، وهي عبارة عن بارجتين وحراقة وسكونة للقيام بجولة للقرصنة في عرض البحر . وكان على رأسها القائد مصطفى الرايس . وهذه السفن رفعت لدى اقلاعها العلم الاسباني ، وهو عمل يعتبر بمثابة اعلان الحرب على اسبانيا .

12 يناير :

وصلت اليوم الى الجزائر سكونة فرنسية قادمة من طولون . وقد استغرقت رحلتها خمسة أيام .

16 يناير :

تلقى القنصل (الأمريكي) من قنصل فرنسا نسخة من رسالة وجهها الى قنصل بريطانيا جاء فيها أن حكومته تستنكر بأقصى ما يمكن من الاشمئزاز سلوك سلطات الايالة نحوه ونحو قناصل الدول الأجنبية هنا ، وتقول ان الحكومة الفرنسية تعتبر أنه لا يمكن خرق الحصانة الديبلوماسية للقنصليات الأجنبية ورجاه أن ينسق أعماله بأعمال قنصل بريطانيا في كل اجراء يتلقى تعليمات بالقيام به نتيجة لهذه الحوادث ، ولو أدى ذلك الى اعلان حالة الحرب . وهذه المذكرة سلمها القنصل الانجليزي الى القنصل الأمريكي بمجرد ما تلقاها .

24 يناير :

وصلت الى الجزائر سكونه تابعة للأسطول الجزائري ومعها غنيمة، وهي سفينة تحت العلم الاسباني ، وهذا الحادث كان مثارا لحماس وسرور كبير في الجماهير الجزائرية ، وقد اعتبر بداية عهد جديد من الرخاء للجزائر .

27 يناير :

بعث القنصل الانجليزي دروجمان قنصليته ليحتج لدى السلطات الجزائرية على المعاملة السيئة التي تلقاها ضباط السفينة الاسبانية وبحارتها الذين فرضت عليهم العبودية ، وهو اجراء يمثل خرقا لمعاهدة سنة 1816 ، وقد رد الداي على هذا الاحتجاج فى الحال ، قائلا ان المعاهدة المذكورة عقدت لمدة ثلاث سنوات فقط ، وقال ان ضباط السفينة الاسبانية وبحارتها قد وضعوا فى الأغلال ، وأنه ابتداء من هذا اليوم تعود الايالة الى استرقاق المسيحيين كسابق عهدها .

29 يناير :

وصلت البارجة الانجليزية «نيادا» بقيادة القبطان اسبنسر Spencer ، وقد أقلعت من « تاجه » تحمل على متنها برقيات الى القنصل الانجليزي تتعلق بحوادث أكتوبر الماضي ، أرست فى الخليج . وقد أبلغ القنصل البريطاني بصفة سرية الى القنصل الأمريكي التعليمات التي تلقاها من حكومته ، وهذه التعليمات تزكي سلوك القنصل وتوافق على تصرفاته ، وكذلك اشتملت هذه التعليمات على بنود اضافية للمعاهدة تطالب الحكومة البريطانية الداي أن يوقع عليها ، وهذه البنود تنص بكل بوضوح على الحقوق التي كانت موضع نزاع خلال قضية أكتوبر .

وفى هذا اليوم أيضا وصلت سفينتان أسبانيتان كلتاهما ذات قيمة ضئيلة الى الجزائر ، غنيمة للأسطول الجزائري ، وقد علم القنصل أن الداي يتردد فى التوقيع على البنود الاضافية للمعاهدة التي قدمها اليه القنصل البريطاني ، وهو يتظاهر بالاعتقاد بأن هذه البنود ليست صادرة عن الحكومة البريطانية لأنها لا تحمل الختم الحقيقي للدولة البريطانية ، ونظرا لأن هذه البنود صيغت فى عبارات نهائية ولها طابع اجباري ،

فهي لا يمكن تعديلها ، وقد أبلغ القنصل الانجليزي القنصل الأمريكي سريا نيته فى أن ينقل أسرته من الجزائر ، وقد أوصاه بالحاح بأن يقوم بهذه العملية هو أيضا ، وأضاف قائلا ان مشكلة القبائل ربما وجدت حلا وديا ، ولكن مشكلة العودة الى استرقاق المسيحيين فى الجزائر تكتسي طابعا من الخطورة وستصبح فى نظر انجلترا ذات أهمية كبيرة ، وأنه نظرا لأن الحكومة الجزائرية تجهل نوع الاجـراءات التي ستتخـذها الحكومة البريطانية نتيجة لهذا التصرف ، فهي ، بدون شك ، ستحتفظ بالأشخاص الذين يهمون الحكومة الانجليزية بوصفهم رهائن عندها .

رافق القنصل الأمريكي السيـدات والأطفـال من أسرة القنصـل الانجليزي حتى امتطائهم متن البارجة ، وذلك بحجة تناول الطعام مع القبطان سبنسر وقنصل السويد وقنصل هولندا وزوجة الأخير ، وقـد عاد الجميع على الساعة الثانية صباحا ، وكم كانت مفاجأتهم كبيرة حين التقوا عند مدخل الميناء بالقنصل الانجليزي وهو فى طريقه الى بارجة القبطان سبنسر .

وعقب ذلك وصلت مذكـرة الى القنصـل الأمريكي من القنصـل الانجليزي تقول بأنه سيواصل مفاوضاته بعد الآن من البارجة من أجل التوقيع على البنود التي وجهتها حكومته الى الداي دون أن يتنازل عن شيء من مضمونها ، وقد أوصى القنصل الأمريكي بالعناية بمنزله وخدمه ويضعهم تحت حمايته ، مع كل ممتلكاته فى الجزائر، فى حالة فشل المفاوضات ، وأما السيدة ماكدونالد (زوجة القنصل البريطاني) فقد أبحرت دون أن تحمـــل معها الأشياء الضرورية ، ولا حتى الملابس الداخلية . وكذلك أمر القنصل الأمريكي القهرمان المشرف على شؤون منزل القنصل البريطاني بأن يرتب أمتعته من أجل ارسالها الى البارجة بعد الحصول عن طريق الدروجمان على اذن بذلـك من السلطـات الجزائرية ، وفى حالة رفضها ، وهو شيء مستبعد ، يجب أن يرجـع

اليه . كان هذا فى يوم الخميس ، وقد أعلن القبطان سبنسر الى سلطات
الايالة أنه سينتظر ردها النهائي حتى يوم السبت ظهرا .

30 ينــاير :

لم يجر ما يستحق الذكر فى هذا النهار ، وقيل ان الديوان عقد اجتماعا
ں قصر الداي ليتباحث فى الشؤون الهامة محل الذكر .

31 ينــاير :

حمل الحاج علي رايس ، مدير الميناء المشهـور بذكـائه وبآرائه المتحررة ، صباح اليوم ، رسالة من الداي ، يبدو أنها بادرة سلام ، فقد تنازل صراحة عن ادعائه باسترقاق الأسرى الأسبـان ، ووعد بأنهم سيعاملون كما يعامل أسرى الحرب العاديين ، وأنه سيوقع البنود التي عرضتها عليه الحكومة البريطانية ، بل انه لم يعارض بقوة حتى البند الذي يتعلق برفع العلم فى المدينة ، وهو الشرط الذي يضايقه أكثر من غيره ، ويبدو أن هذه المسألة قد نوقشت يوم أمس فى الديوان . وقد كان الداي يرى بعناد وجوب عدم تقديم أية ترضيـة الى بريطـانيا ، ولكنه اضطر ، فى نهاية الأمر الى التنازل عن رأيه الذي كان يعارضه فيه جميع أعضاء الديوان ، وفى هذه الأثناء ترك القبطان سبنسر البارجة ونزل الى الأرض ، وقد نقلت كميات كبيرة من الأمتعـة التي أعدهـا القنصل الى البارجة .

وكان الدروجمان قد أبلغ الحكومة باسم القنصل الانجليزي أنه نظرا لأن هذه الأمتعة من الأمور الضرورية للسيدات والأطفال ، وهي لم تكن قط موضوعا للمنازعة فى حالة الحرب ، فانه يأمل ألا تعارض فى نقلها الى البارجة ، وهو (أي القنصل) سيبعث بمن يأخذها تحت علم دولته .

وعقب اقلاع البارجة البريطانية مباشرة ، توجه القنصل الأمريكي الى وزير البحرية والى وزير الخارجية ، وبرفقته الـدروجمان والسيـد

جراتي المترجم ، ليبلغهما أنهما ، وهما يعرفان جيدا حقوق الضيافة التي كانت تربطه بقنصـــل انجلترا الأخير ، لن يندهشا اذا علمـــا انه كلفه بالعناية بكل ما يملكه ، وبالتالي ، فهو ينوي رفع العلم الأمريكي على القنصلية الانجليزية التي سلمت اليه ، وبصفة عامة ، سيضع تحت حمايته كل ما خلفه القنصل الانجليزي ، السيد ماكدونالد لدى رحيله .

وقد رد وزيـــر الخارجية قائلا ان من المرجح أن لا يعـــارض فى مثل هذا الترتيب .

وأضاف القنصل (الأمريكي) قائلا انه يعتقد أن تصرفه هذا لا يتجاوز كونه ممارسة لحق ، وانه انما جاء ليبلغه نيته هذه ، ولكي يطلب اليه أن يمده بالحرس الذين يتولون حماية القنصلية الانجليزية .

وقد لاحظ الوزير فى نفس الوقت قائلا ان صداقة الأفراد لا تحل شيئا من مشاكل الحرب بين الحكومات ، وأنه بوصفه وزيرا يعـــرف جيدا ، أن القنصل بوصفه مواطنا أمريكيا ، لا يكترث بطبيعة العلاقات بين الايالة وانجلترا ، وباختصار ، فهو صديق للطرفين ، يعرف حقوقه وينبغي له أن يمارسها ، وقد وافق الوزير على هذا الحل وأعطى أوامره فى الحال . وكذلك أصدر القنصل أوامره بأن يرفع العلم الأمريكي وشعار الولايات المتحدة على القنصلية الانجليزية وعلى منزل القنصل فى الريف ، ثم انتقل بنفسه الى القنصلية والمنزل وتسلم المفاتيح على الساعة الرابعة .

وفى هذه اللحظة ، شوهد طراد جزائري (حراقة) تطارده سفـــن بريطانية فى عرض البحر . وعلى الساعة الخامسة الا ربع اقتربت منـــه بحيث لم تكن تفصل بين الفريقين سوى مرمى بندقية ، وكان كلاهما يطلق النار على الآخر بصفة مستمرة ، وقد أبدت السفينـــة الحربيـــة الجزائرية شجاعة نادرة المثال ، واستمرت المعركة حتى الساعة السادسة

الا ربع ، حين حجب منظر المعركة عن أعيننا الغسق وكان يبدو وكأن اطلاق النار قد توقف .

وعلى الساعة الخامسة أطلقت المدافع الجزائرية المشرفة على البحر طلقاتها لتعلن ، بدون شك ، قيام حالة الحرب .

لقد كانت مقاومة السفينة الجزائرية بردها بنيران مدافعها على نيران البارجة الكبيرة شيئا مدهشا حقا ، كما كان سلوك بحارتها يشرف أية دولة فى العالم ، فان السفن البريطانية ظلت تطلق نيرانها عليها نحو ثلاثة أرباع الساعة على نصف مرمى مسدس دون أن تتغلب عليها وتحملها على الاستسلام .

1 فبـــراير :

وصل الدروجمان وخدام القنصلية الأمريكيـــة صبـــاح اليـــوم الى القنصلية الانجليزية ورفعوا عليها العلم الأمريـــكي وشـــعار الولايات المتحدة بحيث حلت محل العلم البريطاني والشعارات البريطانية علـى الساعة التاسعة صباحا ، وقد صنعـــوا نفس الشيء بمنـــزل القنصـــل الانجليزي الريفي .

وقد حضر الدروجمان الى القنصل (الأمريكي) صباح اليوم يحمل اليه رسالة ودية من الداي يعرب له فيها عن رضاه بأخذه تحت حمايته المنزل الذي تركه القنصل الانجليزي ، ويؤكد له حمايته له فى هـــذه الوضعية الجديدة ، وأضاف الداي قائلا ان قنصل الولايات المتحدة هو الشخص الوحيد الذي يسمح له فى الجزائر بالقيام بهذه المهمة .

ظهرت السفينة الحربية الجزائرية فى الخليج وهي محطمة الصواري تماما وتطلب النجدة ، وقد جرتها سفن أخرى فى غضون النهار ، وذكرت اشاعة أنه قتل أربعة من رجالها وجرح ثمانية آخرون ، وهذه الخسارة

الصغيرة نسبيا يمكن تفسيرها بتحصن البحارة فى الطابق الأسفل وقد أخذ الانجليز معهم قبطان السفينة أسيرا ، كما أخذوا الأسرى الأسبان الذين كان قد أسرهم من قبل وتركوا السفينة حطاما فى عرض الخليج ، وهؤلاء الانجليز لم يشاهد لهم أثر فى هذا الصباح .

3 فبـــرير :

وتتيجة للرسالة التي تلقاها يوم أمس من الداي ، توجه القنصل الى وزير البحرية ويرافقه الدروجمان وابن زمون بصفته مترجما ، وقد أبلغ الوزير أنه يخشى بناء على ما ورد فى رسالة الأمس من أن موقفه قد أسيىء فهمه فى الجزائر ، وأنه يعتقد أن من واجبه أن يقدم مختلف أنواع الخدمات بصفته صديقا مستقلا للرسميين ، بل وللمــواطنــين العاديين أيضا من ممثلي وأبناء الحكومات التي هي فى سلام مع الولايات المتحدة ، وذلك كلما واتت الفرصة ، ولكن قوانين الولايات المتحدة ، تمنعه من التدخل فى الشؤون السياسية التي ليست طرفا فيها ، ولو خالف هذه القوانين لتعرض لعقوبات صارمة . بل انه حتى فى حالة ما اذا كانت الولايات المتحدة طرفا فى نزاع ، فهو لا يتصرف الا بناء على أوامر وتعليمات من رئيس الولايات المتحدة ، والقنصل يكــون سعيدا لأن يقدم كل خدمة فى استطاعته الى الحكومة الجزائرية أو الى أية حكومة مستقلة أخرى ، بشرط ألا تبعد به عن نطاق وظيفته . وبالتالي فهــو لا يستطيع قبول أية مهمة تجعله خاضعا لسلطة أخــرى غيــر سلطــة حكومته ، وقد لاحظ الوزير أنه لم يكن ينبغي أن يبقى عدد من القنصليات بدون قناصل يمثلون بلادهم . وقد رد القنصل بأن هذه من الحالات التي لا يمكنه حتى مجرد الادلاء برأي بشأنها ، وقد توصل الفريقان الى حــل وسط على أســاس المبــادىء المــذكورة أعلاه ، أن يعتبر جــرانيت ســكرتيرا للقنصــل ، وبهــذه الصفــة تنــاط به مهمــة الاشتغال بشؤون تلك القنصليات ، طبقا للتعليمات التي تلقاها ، واذا

ظهرت أية صعوبة أمامه ، وهو شيء مستبعد ، فان القنصل سيقدم نصيحة بشأنها بوصفه صديقا للجميع .

وعقب هذه المقابلة بوقت قصير ، بعث الداي الى القنصل (الأمريكي) برسالة ودية للغاية بواسطة الدروجمان ، وفيها يشكره عن الترتيبات التي توصل اليها مع الوزير ، ويضيف بأنه يضع جرانيت ابتداء من الآن تحت حماية الحكومة الأمريكية ، وقد طلب الداي الى القنصل مساعدة جرانيت بآرائه حينما تدعو الحاجة الى ذلك ، حيث أنه لا يريد أن تتعرض مصالح هذه القنصليات للضياع فى غيبة القناصل .

علم القنصل (الأمريكي) أن الجزائريين لو عرفوا نيات قنصل انجلترا والقبطان سبنسر مقدما لاعتقلوهما .

4 فبراير :

وصلت سفينة حربية تابعة لمملكة سردانية الى الجزائر قادمة من مرسيليا ، تحمل رسائل للأفراد وصحفا للقنصل ، والسفينة تحمل عددا كبيرا من الطرود والأشجار والنباتات الخ ، بالاضافة الى بعض السلع الغالية الثمن ، وهي عبارة عن هدية نابلي للداي ، وهي هدية كان من المفروض أن تقدم عن طريق القنصل الانجليزي ، وقد أنزلت كل هذه الأشياء من السفينة بمحضر موظف شؤون الجمارك فى القنصلية ، ووضعت فى مكان مأمون .

8 فبراير :

وصلت الى خليج الجزائر سفينة هولندية قادمة من ميناء ماهون ، لم تجر السفينة أية اتصالات ، وقد أقلعت فى نفس اليوم ، وعن طريق هذه السفينة علم القنصل أن الأسطول الأمريكي يوجد حاليا فى ذلك الميناء .

10 فبـــراير :

علم القنصل عن طريق صديقه القديم ، الخزنجي ، أن نائب القنصل الانجليزي فى وهران قد اعتقل ، كما احتجزت جميع ممتلكاته وأمتعته، ولكنه هو (الخزنجي) تدخل لدى الداي وذكره بأن هذا القنصل ليس الا وكيلا للقنصل الأمريكي ، وعقب ذلك أرسلت برقيـــة مستعجلـــة تتضمن الافراج عنه واعادته الى عمله واحترامه ، بوصفه وكيلا لقنصل الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد وجهت القنصلية عددا من البرقيات الى وزير الخارجية (الأمريكي) عن طريق وزيـــر الولايات المتحدة المفوض فى لندن ، تحملها سفينة نمساوية ذات صاريتين ستقلع يوم الغد ، فى اتجاه ميناء ليفورن .

11 فبراير :

وصلت اليوم الى الجزائر أربع بوارج وسفينة حربية ذات صـــارية واحدة تابعة للأسطول الفرنسي .

12 فبـــراير :

أجرت قطع الأسطول الفرنسي اتصالات بقنصل فرنسا ، وفى نفس الـــوقت ، عادت سفينتـــان حربيتان جـــزائريتان من جولة قامتـــا بها للقرصنة .

نزل قائد الأسطول الفرنسي الى البر ، ولكنه لم يتمكن من الدخول الى قصر الداي وسيفه معلق بجانبه ، وأنا قد نسيت أن أسجل أن القبطان سبنسر الانجليزي كان قد منع هو الآخر من الدخول الى القصر لنفس السبب ، وهذا ادعاء جديد من الايالة ، لأن القنصل الأمريكي سبق أن قدم الى الداي عددا من الضباط الأمريكيين الذين كانوا يحملون سيوفهم . وفى المساء ، عاد قائد الأسطول الفرنسي الى بارجته ، وفى

الغد أقلع الأسطول من ميناء الجزائر ، وهذه السفن جاءت من تونس وتحمل على متنها رسائل الى الدكتور هيب (Heap) القائم بأعمال القنصلية الفرنسية .

13 فبراير :

عرف القنصل (الأمريكي) أن قنصل فرنسا قد اغتنم فرصة وجود قطع الأسطول الفرنسي فى الجزائر ، وطلب الى الحكومة التعجيل بحل المشكلة التي تتعلق بامتلاك فرنسا منزلا وحديقة فى عنابة ، وهو المنزل الذي يقيم فيه حاليا نائب قنصل بريطانيا . والمعروف أن هذا المنزل كان موضع نزاع بين فرنسا وانجلترا مدة سبع سنوات ، وقد أجيب القنصل الى طلبه وصدر أمرا بتمليكه للفرنسيين .

14 فبراير :

وجه القنصل الأمريكي السيد بن زمونه الى السلطات الجزائرية التي تعترف بمركزه ليبلغها أنه (القنصل) بوصفه صديقا محايدا يرجو منها أن تفكر أنها فى حالة حرب مع دولة كبيرة ، وأنها اذا كانت لا تنوي دفع الأمور فى طريق الأسوأ (وهو فى هذه الحالة لا يسمح لنفسه بابداء رأيه) ، فينبغي لها ، اتنهاجا لسياسة سليمة ، أن تمتنع عن اتخاذ أي اجراء لا هدف منه الا اثارة النفوس ، الأمر الذي من شأنه أن يجعل القطيعة أكثر خطورة ، وأن حق امتلاك منزل عنابة الذي منح للقنصل الفرنسي ، ستعتبره الحكومة الانجليزية اهانة جديدة توجه اليها ، الأمر الذي يحول دون تذليل الصعوبات الحالية بسهولة ، وأن طلب القنصل الفرنسي فى هذه الظروف يتناسى روح الكرم والنبل التي يجب أن يتحلى بها جميع الممثلين الأجانب فى مثل هذه الحالات ، والقنصل يعتقد أن الحكومة الفرنسية لن توافق على مسعاه ، ولذلك ، فان القنصل يوصي السلطات الجزائرية ، اذا كان السلام هدفها ، أن توقف مفعول هذا التنازل وتمتنع عن اتخاذ أية اجراءات مضايقة فى تلك الأثناء .

15 فبـــراير :

عاد السيد بن زعمون وأخبر القنصل أنه أبلغ رسالته الى الأغا ، والى أمير البحر ، والى مدير دار الصك ، وأنهم جميعـا قد شعـروا بقوة مافيها من حجج ، وأنهم عرضوها ، فى الحال على الداي ، الذي اعترف بأنه قد تسرع فى حل القضية ، وتبعا لذلك ، فقد أصدر أمرا بوقف التنازل عن المنزل للقنصل الفرنسي .

بعث الداي وجميع وزرائه رسالة ودية الى قنصل الولايات المتحدة الأمريكية يشكرونه فيها لنصيحته ويرجونه أن يبلغ الحكومة الانجليزية استعدادهم للقيام بكل ما من شأنه أن يعيد علاقات السلام الى مجراها العادي ، وقد أعاد القنصل السيد ابن زعمون يحمله تحياته التقليدية ، وكلفه بأن يبلغ الحكومة الجزائرية أنه اذا كانت ترغب فى السلام حقيقة ، فعليها أن تزيل العقبات التي تعترض طريقه ، وأن تقوم ، خصوصا ، باعادة الأسرى الأسبان فى الحال الى بلدهم .

16 فبـــراير :

وصلت اليوم سفينة ذات صاريتين تابعـة لملكـة سردانيا قادمة من ليفورن (4) وتحمل على متنها قنصل الدانمـارك السيد كـارستنسن وأسرته . حضر السيد ابن زعمون الى القنصل وأبلغـه أن الحكـومة الجزائرية قد أحسنت استقبال آرائه وأن وزير البحرية والخارجية يريد مقابلته بعد ساعة من الزمن .

وفى الوقت المحدد ، قصد القنصل (الأمريكي) الى وزير البحرية وفى معيته الدروجمان والسيد ابن زعمـــون بوصفه مترجما ، وقد جرت

4 - Livourne بالفرنسية والايطالية (Leghorn بالانجليزية) ميناء ومدينة يبلغ عدد سكانها حاليا 172000 نسمة ، وهي مدينة صناعية ، واهم صناعاتها ، صهر المعادن والصناعات الكيمائية وصناعة تكرير النفط .

محادثة طويلة بين القنصل والوزير وأمير البحر ، وقد بدأت المحادثات بتقديم الوزيرين تحياتهما للقنصل ، قائلين انه الرجل الوحيد فى الجزائر الذي يمكنهما طلب مشورته ونصيحته بثقة فى الظروف الحاضرة .

وقد كرر القنصل على مسامع الوزيرين ما سبق أن أبلغه لهما عـن طريق السيد ابن زعمـون ، وبعد ذلك واصل الطرفان مناقشة جميع أعمال الحكومة التي أدت الى العداوة مع انجلتـرا ، وقد أعـرب القنصل فى هذه المناقشة عن آرائه بكامل الحرية ، وهو يعتقد أنه أثبت خطأ هذه الأعمال ، وأوضح ضرورة اعتماد سياسة تتفق مع التطورات الخطيرة الشأن التي وقعت فى السياسة العالمية ، وذلك لأنه مقتنع بأن ادعاء الجزائر الحق فى الاعتداء على دول مستقلة لم يعد أمرا محتملا ، فاذا أراد الجزائريون حقيقة عودة العلاقات السلمية مع عدوهم الحالي ، فهو يوصيهم بأن يمتنعوا عن ابداء شعور عدائي لا فائدة منه ، وأن يعملوا بقدر ما فى استطاعتهم لازالة العوائق التي تعترض المفاوضات .

وقد ألح القنصل ، خصوصا ، على القـول بضرورة اطـلاق سراح الأسرى الأسبان ، حيث أن عودة استرقاق المسيحيين ، هو فى رأيه ، موضوع النـزاع الوحيد الذي تصعب تسويته ، وقد أكد للوزيرين أن مسألة رفع العلم البريطاني فى المدينة موضوع سوف لا تلح عليه الحكومة البريطانية ، اذا قيل لها ان ذلك يتعـــارض مع المعتقدات الدينية ويجرح شعور السكان هنا ، وقد استمع الوزيران الى القنصل بكل اهتمام وعلى مظهرهما ما يدل على أنهما يشاركانه رأيه ، فى جميع المسائل المعروضة على بساط البحث ، باستثناء مسألة تسريح الأسرى الأسبان التي أبديا بشأنها ميلا الى عدم الاتفاق معه ، ولكنهما ترجيا القنصل بأن يكتب الى الحكومة البريطانية فى صالح الحكومة الجزائرية، وقد أوضح لهما القنصل استحالة تدخله بهذه الصورة ، ولكنه أكد لهما أنه بوصفه صديقا محايدا ، فسيكون دائما مستعدا للقيام بكل عمل

فى استطاعته مما يتفق مع واجباته ، وبعد ذلك ، طلبا اليه أن يقوم بنقل رسالة من الداي الى الحكومة البريطانية ، وأبلغهما أنه على استعداد للقيام بذلك عن طريق وزير الولايات المتحدة المفوض فى لندن ، ولكنه ذكرهما بالأخطار التي يتعرض لها النقل البحري وقلة سلامة البريد .

17 فبـــراير :

حمل الدروجمان الى القنصل برقية من الداي موجهة الى الكونت باثورست Bathurst ، وقد وضعها القنصل فى مظروف مع رسالة مماثلة تقتضيها الظـروف ووجهـا الى السيـد بوره ، وبالأمس ، تلقى القنصل الأمريكي من وكيله فى وهران رسالة (وهذا الوكيل هو نائب القنصــل الانجليزي) ، أبلغه فيها أنه ألقي القبض عليه كما احتجزت أمتعته بطريقة صارمة ، وعقب ذلك اشتكى القنصـل لدى السلطات الجزائرية على هذا العدوان على حقوق وكيله الذي لا يحمل الجنسية الانجليزية . وقد رد الوزير على هذه الشكوى بأن أوامر قد أرسلت منذ بضعة أيام لاطلاق سراحه ، بوصفه وكيلا لقنصل الولايات المتحدة ، بل انه سلم اليه أمرا مكتوبا بشأن سفينة ذات صاريتين تحمل علما انجليزيا احتجزت باعتبارها انجليزية تقضي باخلاء سبيلها ، بحجة أنها سفينة أمريكية .

21 فبـــراير :

أقلعت قاذفة قنابل تابعة لمملكة سردانيا من ميناء الجزائر فى اتجـاه مرسيليا ، وقد اغتنم القنصل (الأمريكي) مناسبة سفر هذه السفينـة ليوجه معها برقيات الحـكومة الجـزائرية تحت مظـروف الى السيد راش .

22 فبــراير :

ظهرت بارجة انجليزية فى خليج الجزائر تحمل علم نائب الأميرال

23 فبــراير :

لا يزال الأميرال الانجليزي فى خليج الجزائر ، وفى غضون الليــل وصلت بارجة أخرى وانضمت الى الأولى فى الخليج ، وقد طلب وزير البحرية الجزائرية الى القنصل الأمريكي ، باعتباره صديقا للجميع ، أن يأخذ قاربا ويقصد الى البارجة الانجليزية ، ليطلــب الى الأميــرال الانجليزي توضيح المهمة التي قدم من أجلها وليؤكد له حسن نيات الحكومة الجزائرية . وقد طلب القنصل الى الوزير تزويده بمذكــرة مكتوبة حتى يمكنه الاعتماد عليها للقيام بمسعى دقيق مثل هذا ، وقد أجاب الوزير بأنه نظرا لأن القنصل يعرف جيدا كل ما يتصل بالمسائل موضع النزاع ، فان الحكومة تعتمد على حصافته وشرفه ليقرر هو ما ينبغي أن يقوله ويصنعه أثناء قيامه بهذه المهمة .

خرج القنصل ووراءه دروجمان القنصلية والسيد ابن زعمون المترجم ، ومصطفى الرايس ، قائد الميناء ، ولما وصل الى البارجة «ذي رجنت» على الساعة الثانية ، استقبله بكل لياقة نائب الأميــرال ، هنــري ب نيل والقبطان سبنسر قائد البارجة «نايدا» وقنصل انجلترا السابق .

ونظرا لأن القنصل ليس لديه مقترحات ليعرضها على الأميرال سوى نيات الحكومة الجزائرية ، وحيث أنه سبق أن بعث ببرقياتها الى اللورد باثهورست عن طريق وزير الولايات المتحدة فى لندن ، ولأنه اتخذ جميع الاجراءات التحفظية لحماية القنصلية الانجليزية (وممتلكات القنصــل الانجليزي التي تركت وديعة عنده) فقد اقتصر فى مهمته على سؤال نائب الأميرال عن نياته فى هذه الزيارة ، وهذا الأخير لم يتردد ، وبكل صراحة لا يشوبها اي تحفظ ، أبرز له مذكرة مكتوبة ، وفيما يلي مضمونها :

ان الحكومة البريطانية تعتبر نفسها فى الوقت الحاضر فى حالة حرب مع الجزائر ، والأميرال لا يحمل أية تعليمات خاصة . ولكنه أمر بفرض حصار شديد على الجزائر ، ويتخذ أقصى الاجراءات عداءا ، وذلك حتى يوافق الداي على التوقيع على التصريح الذي عرضه عليه القنصل العام لانجلترا ، ممثل صاحب الجلالة .

وبعدما اتفق ، كما خول السلطة لذلك ، مع نائب الأميرال نيل على ضرورة احترام الجانبين علم الهدنة للتفاوض ، فى حالة ما اذا أصبحت الحرب نشيطة ، التزم القنصل (الأمريكي) باسم الحكومة الجزائرية بأن تحترم الأخيرة هذا الترتيب . وبعد ما تلقى شكر نائب الأميرال على رعايته للمصالح الانجليزية فى الجزائر ، انسحت القنصل ونزل الى المدينة عند غروب الشمس ، وقد قام مترجمه وقائد الميناء بابلاغ نتيجة هذا المسعى الى الداي ، كما سلما الى الداي رسالة مختومة من طرف نائب الأميرال ، تتضمن ، فيما قاله الأخير ، المعلومات التي وردت فى المذكرة التي قدمنا نصها .

24 فبـــراير :

انضم الى بارجة الأميرال مــركب ذو صــارية واحــده من نــوع « كطر » (5) تحت جنح الظلام ليلة أمس ، ونظرا لأن القنصل(الأمريكي) قد اضطره صداع شديد الى ملازمة الفراش ، فانه لم يتمكن مــن التوجه الى اجتماع دعاه اليه وزير البحرية الذي بعث اليه رســولا خاصا لهذه الغاية ، وقد عاد الرسول ليبلغ القنصل أن قطع الأسطول البريطانية قد احتجزت مركبين جزائريين لصيد السمك ، ولذلك ، فانه لم يستطع أن يوجه اليه مركبا خوفا من أن يقع أسيرا فى يد الانجليز ،

5 – مــركب شــراعي ذو صــارية واحــدة يكــون تابعــا لسفينة حربية يستخدم لنقل المؤن والاشخاص من السفينة واليها .

اذا لم يتدخل القنصل لهذه الغاية ، وقد ترجاه أن يكتب رسالة الى قائد الأسطول الانجليزي لهذه الغاية ، ونظرا لأن القنصل لم يكن فى حالة تسمح له بالكتابة ، فقد عرض أن يضمن العلم الجزائري الذي يحمله المركب ، أو يرسل الى الوزير العلم الأمريكي ، اذ فضل ذلك ، وهذا الاقتراح الأخير هو الذي قبل .

عقب رسالة نائب الأميرال الى الداي التي حملها قائد الميناء والمترجم ابن زعمون ، وافق الداي ، حسبما أبلغ الوزير القنصل الأمريكي ، على جميع الشروط الانجليزية ، فيما عدا الشرط الذي يتعلق بنشر العلم الانجليزي فى المدينة ، والحكومة الجزائرية قد تناولت هذه القضية فى البرقيات التي بعثت بها الى الوزير البريطاني ، وقد ذكرت أنها تفضل أن تتعرض لأشد الحروب تدميرا على أن تقبل هذا الشرط .

25 فبــــراير :

أقلعت بارجة الأميرال اليوم وابتعدت عن الميناء وخليج الجزائر .

فقد رأى القنصل الأمريكي أن أغلبية الوزراء فى الحكومة الجزائرية يميلون الى السلم ، ولذلك قرر أن يستعمل كل نفوذه من أجل عودة السلم الى نصابه ، وكذلك بعث ابن زعمون الى وزير الحربية والى الأميرال الجزائري ليلفت نظرهما الى الخطر المحدق بالجــزائر وليقول لهما انه سيكون من السخف أن تحلم الجزائر بالدخول فى حرب مع انجلترا ، وأنه اذا أصبحت المسائل المتنازع عليها حاليا (وهي سهــلة التسوية) مشاكل قومية ، فان هذه الحرب ســوف تتمــم بالضرورة خراب الجزائر ، وهذه الاشارة استقبلها الوزيران أحسن استقبال .

27 ابــريــل :

قابل القنصل (الأمريكي) اليوم الأغا بناءا على موعد بحجة التصديق على عقد ، وفى هذا الاجتماع ، أوضح له بكل صراحة وحرية الخطر

المحدق بوضع الجزائر ، وأنه لا يوجد أي توازن بين قوة هذا البلد وقوة انجلترا ، وأنه يجب التغلب على الخجل والرضوخ لقوة دولة متفوقة ، وأنه لو شرعت انجلترا فى العمليات الحربية ، لا يوجد من يستطيع أن يتنبأ بشروط الصلح التي ستفرضها انجلترا بعد ذلك . وقد شعر القنصل باغتباط لأنه وجد فى الآغا الذي هو رجل ممتاز حقـا تفهما لرأيه ، وقد آعرب الأغا عن رغبته فى ان يعود السلام مع بريطانيا الى نصابه بقبول الشروط التي قدمتها ، وحث القنصـل الأمريـكي متوسلا اليه بكل ما هو عزيز لديه ، على أن يثابر فى عمله الجليل القدر الذي أخذه على عاتقه ، وقال له انه سيكون بذلك منقذ المملكة وأنه سيتخذ منه صديقا مدى الحياة .

وقد رجا الأغا القنصل بأن يبحث عن عـذر لمقـابلة الـداي ، لأنه لا يستطيع هو ، ولا أي جزائري آخر ، ولا يجرؤ على أن يعرض عليه الوضعية كما هي حقيقة ، ونتيجة لهذا الاجتماع ، بعث القنصل الى وزير البحرية بمن يطلب اليه تحديد موعد للاجتماع به ، وكان يعرف – لأن اليوم كان يوم الجمعة – أنه موجود فى القصر ، وأما موضوع هذا الاجتماع الذي اتخذه ذريعة لهذه المقابلة ، فهو الحاجة الى التشاور معه لتأمين سلامته الشخصية ، فى حالة وقوع هجوم على الجزائر ، حيث أن القنصل بلغته أخبار تقول بأن منزله ملغم . وجد القنصل هذا الوزير تحت تأثير أفكار من نوع آخر ، وبالتالي ، فقد كان الاجتماع به بدون أية نتيجة أو أهمية ، وبعد هذه المقابلة قصد القنصل الى مقابلة مع الداي – تلك المقابلة التي كان قد طلبها مسبقا .

استقبله الداي بكثير من اللياقة والحفاوة ، وقد كان مرح المزاج ، كثير الدعابة بحيث أنه كان يضحك من مخاوفه ويصفها بأنها مخاوف أطفال ، وقد عمد القنصل الى استعمال صفته كممثـل لأكـثر البلدان صداقة مع الجزائر ، ليلفت أنظار الداي الى الخطر الذي يعتقد أنه يهدد

الجزائر ، وكرر على مسامعه نفس الحجج التي عرضها من قبل على الأغا ، وبنفس اللهجة التي تتسم بالصراحة .

ولكن الداي كان يرد على تلك الحجج بأفكار سخيفة تدور كلها حول القضاء والقدر ، وقد قال الداي انه كان على القنصل أن يعرف من دراسته للتاريخ « مصير النمرود الذي كان أعظم ملك فى عصره ولكنه مات بعد ما قرصته بعوضة » ، وبعد ذلك ، رفع عمامته ليؤكد له أن مصير كل انسان قد خطته يد الله على جبهته ، بل ان الداي قد صرح بأنه على الرغم من رغبته فى الحصول على سلام مشرف من انجلترا ، فهو لن يوافق أبدا على عودة القنصل الانجليزي الأخير الى الجزائر . والجدير بالذكر فى هذا السياق ، أن هذا القنصل الذي كان مغرما بالعمل فى حديقته ويحب الحياة الريفية ، كان أبعد ما يكون عن استغلال النفوذ والقوة ، والداي الذي انغمس فى القضاء والقدر لا بد وأنه قد استمع قبلي الى نصيحة شخص آخر . والحقيقة أن جميع الحجج قد وجدت عنده أذنا صماء ، والمرجح أنه سيسير طوعا ومغمض العينين الى الخراب .

وفى هذا اللقاء أثبت الداي للقنصل الأمريكي بأقصى ما يمكن من الصراحة ثقته فى صفاء نيته ، وقال له انه يستطيع فى جميع الظروف الاعتماد على حمايته الملكية لشخصه ولكل ما يتعلق به . وهذه التأكيدات قد كررها له أيضا جميع الوزراء من قبل .

2 مارس :

تقدمت بارجة من السفن الحربية البريطانية التي تحاصر الجزائر ، وهي تحمل علم المفاوضين ثم أرسلت قاربا الى اليابسة . وهدف هذه الزيارة هو انزال زنجية كان الانجليز قد أرسوها الى البر . وفى هذا اليوم نسف نفسهما وطارا فى الجو أخوان كانا يعملان فى المشرق ويدعيان معرفة

صنع الصوارخ ، وذلك أثناء تجربتهما صاروخا من صنعهما . وكذلك جرح فى العملية شخص آخر .

4 مـــارس :

وصلت بارجة انجليزية قادمة من طولون . وقد أخطأ الأميرال الانجليزي فى التعرف على هوية هذه البارجة وتشكك فى نيتها ، فأطلق النار عليها .

7 مـــارس :

وصلت سكونه حربية فرنسية قادمة من طولون . وقد قامت بزيارتها سفينة تابعة للأسطول المحاصر . لقد كان عدد قطع الأسطول البريطاني المحاصر يختلف بين يوم وآخر منذ بضعة أيام . وأما الآن ، فهو يتكون من بارجة الأميرال وست بوارج أخرى .

حضر لمقابلة القنصل (الأمريكي) اليوم ، سيدي حميدان ابن أخ مدير دار الصك مع تاجر كبير فى المدينة ، ليطلبا اليه أن يرشدهما بشأن ما ينبغي عمله فى الظروف الحالية ، بالنظر الى أن الداي متصلب فى موقفه ويريد أن يتحدى القوات البحرية البريطانية . وقد أحالهما القنصل الى الحجج التي سبق أن أدلى بها ، ثم أشار عليهما بتشكيل وفد من أعيان السكان ليتوسل الى الداي بأن يعمل للابقاء على حياة رعاياه وثروتهم وذلك بالموافقة ، على تسوية مع دولة ليس فى وســـع المملكة مقاومتها . وقد علم القنصل من هذا الشخص أن الرسالة التي وجهها الداي الى السلطات البريطانية والتي قام هو بها بتوصيلها تحتوي على اقتـــراح مهين يتعلق بعودة القنصل الانجليزي الى الجزائر . وقد أعرب له القنصل عن استنكاره لهذه المخادعة ، حيث أن هذا الاقتراح يتناقض مع نـــص صريح ، وقال له انه اذا كانت الحكومة الجزائرية تريد منه أن يخدمها فى شؤونها ، فيجب عليها أن تلتزم جانب الصدق والثقة ، والا ، فانه

بوصفه قنصل دولة أجنبية ، سوف لا يهتم الا بما يعنيه وسوف لا يشغل نفسه بمصالحها ، وليس من مبادئه أن يخدم أحد الطرفين فى النزاع على حساب الطرف الآخر .

8 مـــارس :

جاء من أبلغ القنصل الأمريكي أن الآغا لا يوافق على فكرة توجيه وفد من الأعيان لمقابلة الداي ـ تلك الفكرة التي نصح بها يوم أمس ـ وذلك لأنه يعتقد أنه لن تكون لها من نتيجة سوى اثارة غضب الداي ، بحيث يصبح أكثر عنادا فى المخطط الذي وضعه .

10 مـــارس :

تحيط بمهمة السفن الحربية الفرنسية الراسية هنا هالة من الغموض . ويفترض أن هذه المهمة خطيرة . والحقيقة أن السياسة الفرنسية تجاه الجزائر منذ سنة 1815 تتسم بغموض لا سبيل الى استجلائه ، وقد وجهت بصورة تثير الفضيحة ولا توحي بالثقة .

سلم القنصل الأمريكي الى قنصل فرنسا رزمة من البرقيات لابلاغها الى السيد راش تحت غلاف موجه الى الشقيقين بورينج وشركاهما ، لكي يعيدوا توجيههما بواسطة السكونة الفرنسية التي ترسو حاليا فى الخليج والتي أعلن أنها ستقلع يوم الغد .

13 مـــارس :

أقلعت البارجة والسكونة الحربية الفرنسية اليوم ، والأخيرة فى اتجاه طولون ، وعلى متنها الأسرى الاسبان الذين سلموا الى قنصل فرنسا ، بوصفهم أسرى الحرب ، بقصد ادخالهم فى الحساب فى مبادلة الأسرى ، اذ استمرت الحرب مع اسبانيا . وقد علم القنصل (الامريكي) أن الايالة قد وافقت على قيام فرنسا بدور الوسيط بينها وبين اسبانيا ، بشرط أن

يعترف ذلك البلد بادعاءات الجزائر (المالية) ضدها . فاتنا أن نذكر انه فى يوم 10 من هذا الشهر ، بعد ما عرف القنصل أن نائب قنصل انجلترا وعددا من الرعايا الانجليز فى عنابة قد زج بهم فى السجن وعوملوا بقسوة مفرطة ، قد بعث بالدروجمان الى السلطات الجزائرية لكي يحتج على هذه الشدة التي لا فائدة منها . وقد عاد الدروجمان على الفور يحمل رسالة مهذبة تقول بأن أعمال الشدة المشار اليها لم يكن مرخصا بها ، وأن رسولا قد أرسل على جناح السرعة الى عنابة يحمل أوامر باطلاق سراح المسجونين فى الحال وبمعاملة جميع أسرى الحرب بالرأفة والشفقة .

22 مــــارس :

بعث القنصل بعدة برقيات الى وزير الخارجية (الأمريكية) عن طريق طنجة ، بواسطة الآغا . وهذه البرقيات التي تحمل الأرقام 80 و 81 ، ارفقت بنسخة من هذه المذكرات من تاريخ 10 يناير حتى 21 من الشهر الجاري ، الكل فى مظروف موجه الى القنصل الأمريكي بطنجة ، لكي يعيد ارسالها الى جبل طارق . وفى الليلة الماضية التحقت سكونة حربية بالأسطول البريطاني المحاصر للجزائر .

وفى هذا الصباح أرست سفينة الأميرال البريطاني فى الميناء تحت علم المفاوضة ووجه مركبا يحمل برقيات للداي .

23 مــــارس :

لاتزال سفينة الأميرال فى المرسى فى الخليج وتحت علم المفاوضة . وفى هذا المساء وجه مركب آخر الى الجزائر ، ولكنه لم يعرف شيء عن المقترحات التي قدمها بالأمس ولا عن مقترحات اليوم .

وصلت الى خليج الجزائر اليوم بارجة هولندية قادمة من ميناء ماهون. وقد حملت الى القنصل (الأمريكي) رسائل من القبطان فونو

قائد السكونة الحربية الامريكية « نوسوش » . ومنذ شهر مايو من السنة لم يتلق أخبارا مباشرة من الأسطول الأمريكي المرابط فى البحر الابيض الا عن طريق هذه السفينة .

24 مـــارس :

تحركت عدة سفن اليوم بين المينا وسفينة الأميرال ، الانجليزي . ان الداي يمر بفورة من الغضب لأنه الوحيد براية فى مجلــس الوزراء ، بخصوص النزاع القائم بين انجلترا والجزائر . بل انه لم يــرد حتى استخدام مترجم يتمتع بالكفاءة فى المفاوضة ، وهو يتظاهر بالاعتقاد بأن الأميرال لا يحمل الاعتماد الذي يخول له السلطة للتفاوض معه لعقد السلام النهائي . وقد نجم عن ذلك سوء تفاهم بين الطرفين . ان القنصل الأمريكي يعتبر من ضمن الأمور التي يخشاها الداي (5) وتلقى القنصل الأمريكي من الأميرال البريطاني عددا من صحيفة « كوربيه » التي تصــدر فى لنــدن ، يحمــل تاريــخ 10 مـــن هـــذا الشهر . والقنصل يعتقد أن السلطات الجزائرية هي أرسلته اليه لتثبت له معرفتها بأنه تلقى تعليمات من حكومته مؤخرا ، الأمر الذي يدل على أن الجزائريين لا يثقون فى أقواله ولا فى صحة وثائقه .

25 مـــارس :

تنقلت اليوم سفينتان بين الميناء وبارجة الأميرال الانجليزي . والمترجم الوحيد الذي يتمتع بالكفاءة ، وهو السيد ابن زعمون ، لم يستخدم فى هذه المفاوضات ، للأسباب التي وردت الاشارة اليها أعلاه ، على الأقل ، ذلك ما نفترضه . ان اشاعات قوية لا تصدق تقول بوجود سوء تفاهم بين الطرفين .

5 — كذا فى الاصل . والمقصود هو اراؤه ومواقفه .

26 مــــارس :

بعث الأميرال الانجليزي رسولا الى الحكومة الجزائرية وتقول اشاعة ان الرسالة التي يحملها تفيد الأيالة للمرة الأخيرة وبكل صراحة بــأن الأميرال يتمتع بالصلاحيات الضرورية للتفاوض مع الداي بشأن شروط الصلح . وتضيف هذه الأخبار ان الأميرال قد حدد يوم السبت موعــدا ليتلقى فيه الرد الجزائري . وقد رد الداي على هذا المسعى بأنه على استعداد للدخول فى مفاوضات مع الأميرال ، متى أطلعه الأخير على أوراق الأعتماد التي تلقاها من حكومته .

27 مــــارس :

بعث الأميرال الانجليزي ضابطا من رجاله برتبة قبطــان تحت علــم المفاوضة الى المدينة ليمثله . وقد انتظر القبطان ثلاث ساعات وبعد ذلك ، رفض الداي استقباله ، وصرح بأنه لن يتفاوض الا مع الأميرال نفسه ، ان كان حقيقة يحمل أوراق التفويض . وقد كانت الحكومــة الجزائرية ترفض دائما ارسال سعاة الى الأسطول الانجليزي .

28 مــــارس :

نزل الأميرال الى البر . وقد أجرى محادثة شخصيا مع الداي . وكما ذكرنا ، فان الداي قد استمر على الاعراب عن شكوكه فى صلاحيــات الأميرال للتفاوض معه فى شئون الحرب والسلام . ومع ذلك ، فقــد توصل الطرفان ، فى نهاية الأمر الى اتفاق بشأن بنود السلام ، وذلك فيما عدا ما يتعلق بعودة القنصل الانجليزي الأخير الى الجزائر . فــان الداي قد رفض دائما وباصرار استقبال القنصل . عاد الأميرال الى بارجته ، وفى المساء بعث بمركب آخر يحمل علم المفاوضة .

29 مــــارس :

وجه الأميرال الانجليزي اليوم علم المفاوضة الى البر . ولما عاد الرسول الى البارجة أقلعت الأخيرة وغادرت الخليج .

30 مــــارس :

أخبر السيد ابن زعمون القنصل بأن الداي قد بعث فى طلبه يوم أمس وعهد اليه بترجمة رسائل من الأميرال الانجليزي . وقد جاء فى الوثيقة الأولى أن الأميرال يتمتع بالصلاحيات للتفاوض فى شئون السلام مـــع الايالة ، وتطالب بارسال مندوبين الى البارجة « ذي رجنت » لكي يتفاهموا معه . وهذا الطلب رفض . وتقول الوثيقة الثانية ان الأميرال ، رغبة منه فى اتمام مهمته ، أرسل ضابطا من رجال أسطوله وزوده بالصلاحيــات الضرورية لكي يتفاوض مع الداي . وهذا الطلب رفض هو الآخر . وأما الرسالة الثالثة ، فقد كتبها الأميرال عقب عودته الى بارجته بعد المباحثات التي أجراها مع الداي . وقد أعرب فيها الأميرال عن أسفه حيث أنه لــم يستطع عقد الصلح ، وقال له ان رفضه استقبال القنصل الانجليــزي الأخير ، يعتبر اهانة لحكومته . وقال انه يأمل فى أن يبعث الداي اليــه برد مرض ، بعد التفكير والتروي ، حتى يمكن تجديد السلام ، وأنــه سينتظر هذا الرد حتى اليوم التالي :

وقد أمر الداي السيد زعمون بأن يكتب الى الأميرال الانجليزي على ظهر احدى رسائله رسالة أملى عليه نصها ، وهذا معناه : انه هو الداي لم يعلن الحرب على أنجلترا ، ولا يعتقد أنه توجد أسباب لاعلان الحرب عليه ، وأنه يرغب فى استقرار السلام الذي يقبله بالشروط التي عرضها عليه الأميرال ، ولكنه لن يقبل أبدا بعودة السيد ماكدونال ، القنصل الانجليزي الى الجزائر ، وأنه قد أبلغ فى الحال خبرا مؤداه أن بارجتين بريطانيتين قد قامتا بقصف ميناء ومدينة عنابة ، وأنهما قد أسرتا سفينة محايدة ، وأحدثتا أضرارا كبيرة ، وأن عددا من رعاياه قتلوا وجرحوا ، وأن هذه التصرفات لا يبدو أنها تتفق مع اللهجة التي استعملها الأميرال فى محادثاته مع الداي بالأمس . وهذه الرسالة كتبت بلغة أنجليزية رديئة ووقع عليها الداي ، وبناء على أوامره الصريحة غلفت فى قطعة قذرة من الورق ، وأرسلت فى هذه الحالة الى الأميرال الانجليزي .

كانت الشروط التي عرضتها الحكومة البريطانية فى هذه المرة هي نفس الشروط التي تقدمت بها من قبل ، وذلك فيما عدا كون أنجلترا قد تخلت عن مطلبها بنشر العلم البريطاني فى المدينة . وكذلك ينص بند مستقل على الحاح أنجلترا على ضرورة تطبيق معاهدة سنة 1816 التي أملاها اللورد اكسموث ، واعلان الايالة أنها لن تقوم باخضاع المسيحيين لقيود العبودية فى المستقبل ، وأنها ستضمن سلامة أشخاص جميع الانجليز الذين يعيشون فى مملكة الجزائر .

واذا عرف المرء كبرياء هؤلاء الناس وميلهم الى الاهانة وجهلهم بكل ما يتعلق بالعلاقات الديبلوماسية ، وقارن سلوكهم بسلوك غيرهم من الأمم ، وعرف ما أبداه الأميرال من الميل الى التوفيق فى هذه المفاوضات ، فانه لن يجرؤ على الأمل فى أن تسفر الحرب القائمة بين الجزائر وأنجلترا عن حلول مشرفة .

5 ابريل :

وصلت بارجة تابعة لمملكة نابولي وأرست الخليج ، بعد ما أجرت اتصالات مع الاسطول الأنجليزي الذي يضرب الحصار على مدينة الجزائر . وقد حملت البارجة على متنها قنصل نابلي الى الجزائر . نزل قنصل نابلي اليوما لى البر ، وقد عرض القنصل الأمريكي على هذا المعتمد ، وهو السينيور ، ماجيلولو أن يأويه فى منزله ريثما يتم اعداد منزله الخاص ، وقد قبل هذا العرض . علم القنصل ان الداي قد قبل طلب قنصل فرنسا الملح وأمر باخلاء منزل نائب القنصل البريطاني وحديقته وتسليمهما الى الفرنسيين .

18 ابريل :

ظهرت فى الصباح المبكر سفينة حربية فرنسية ذات صاريتين بعد ما اخترقت نطاق الحصار تحت جنح الليل ، وقامت بمطاردتها بارجة بريطانية .

وعلى الساعة السابعة ، أطلقت البارجة عدة طلقات من مدافعها ، ولكن السفينة الفرنسية عادت الى عرض البحر .

20 ابـريـل :

وصلت حراقة تابعة للاسطول الهولندي قادمة من ميناء ماهون وأرست فى الخليج ، بعد ما أجرت اتصالات بالأسطول البريطاني المحاصر للجزائر . وقد علم القنصل (الأمريكي) بواسطة هذه السفينة أن الأسطول الأمريكي قد غادر هذا الميناء منذ وقت واتجه الى جبل طارق .

يمارس الأسطول المحاصر تمييزا واضحا بين السفن التي يسمح لهـا بالاقتراب من الميناء . وهذا التمييز لا يتفق مع العرف والقوانين الحربية .

9 مـايـو :

بعثت بارجة من الأسطول المحاصر ، تحت علم المفاوضة برقية الـى الـداي .

10 مـايـو :

وصلت حراقة حربية فرنسية قادمة من طولون فى رحلة استغـرقت أربعة أيام ، وأجرت اتصالات مع الأسطول المحاصر . وقد حملت هذه السفينة للقنصل الأمريكي رسائل وصحف وجهها اليه مراسلوه فى مرسيليا.

12 مـايـو :

علم القنصل من مصدر موثوق به أن الرسالة التي وجهتها احـدى بوارج الأسطول المحاصر يوم 9 من الشهر الجاري قد وجهها الأميرال البريطاني الى الداي . وقد جاءت هذه الخطوة نتيجة لتعليمات تلقاهـا الأميرال من حكومته ، وتضمنت الرسالة شروطا للصلح ، هي نفـس الشروط التي رفض بعضها الداي عدة مرات من قبل . وقد رد الداي على الفور بقوله انه يقبل جميع الشروط الانجليزية فيما عدا عودة القنصل

الانجليزي الذي لن يرضى باستقباله أبدا فى الجزائر • وقد سلم هذا الرد على الساعة الثالثة بعد الظهر الى المركب الذي حمل الرسالة . والداي لا يزال يشك فى صلاحيات الأميرال البريطاني للتفاوض معه . وهذا الرأي السخيف يشجعه عليه أشخاص يعرفون عن مجريات الأمور أكثر مما يعرف هو • تناول قبطان الحراقة الفرنسية وضباطه طعام الغداء فى الميناء برفقة القنصل الفرنسي •

13 مـايـو :

وصلت بارجة تابعة لمملكة نابلي وقد استغرقت رحلتها من ذلك البلد ثمانية أيام ، وقد أجـرت اتصالات بالأسطول المحاصر ثم أرست فى الخليج • وقد تلقى القنصل الأمريكي عن طريق هذه السفينة رسالة ودية وعدة أعداد من الصحف اللندنية ، من القبطان سبنسر ، قائد البارجة البريطانية « نايدا »

16 مـايـو :

قام قائد البارجة التابعة لمملكة نابـلي وضباطها بزيارة القنصـــل الأمريكي ، ودعاهم للغداء معه فى منزله الريفي . وقد وجه قنصل نابلي رسميا الى القنصل الأمريكي نسخة من رسالة مكتوبة بأمر جلالة الملك الى قنصل الولايات المتحدة فى نابلي يشكره فيها على ما لقيه قنصل نابلي من اللياقة والخدمات من القنصل الأمريكي بالجزائر .

18 مـايـو :

نسخ القنصل هذه المذكرات ابتداء من 21 مارس حتى اليوم وبعث نسخة منها الى وزير الولايات المتحدة المفوض فى لندن ، وأخرى الى وزير الخارجية الأمريكية ، وذلك عن طريق مرسيليا التي ستقصد اليها بارجة مملكة نابلي التي ترسو خالية فى خليج الجزائر •

20 مـايـو :

سلمت الرسائل المذكورة أعلاه الى قنصل نابـلي لكي يسلمها الى الفـارس بالـكارنـو قـائد بارجـة مملكـة نابلي التي ستسافر الى مرسيليا .

أقلعت السكونة الحربية الفرنسية « لاطورش » . وصلت بارجة وسفينة حربية هولندية واتصلت بقنصل هولندا فى الجزائر . وعن طريق هذه السفينة تلقى القنصل الأمريكي عددا من الرسائل من ميناء ماهون، صـادرة عن الـكمودور رايتـون وكـذلـك تلقى مـن الأميـرال الانجليزي عدة رسائل شخصية وصحفا وكيسا من الكتب التي ارسلها اليه الأميرال من مرسيليا وشحنها على متن السفينة الهولندية الراسية فى الميناء . ومن بين الرسائل التي تلقاها ثلاث صادرة عن الوزير الأمريكي فى لندن تحمل تواريخ 19 و 23 مارس و 4 أبريل الأخير .

قدم القنصل الى الآغا والى أمير البحر الجزائري عن طريق السيد ابن زعمون مترجمة الى العربية عن الرسالة التي تلقاها من الوزير الأمريكي فى لندن والتي تبين مدى سوء نية الحكومة الجزائرية نحوه حين كلفته بابلاغ رسالة الداي الى الحكومة البريطانية .

21 مـايـو :

أقلعت السفينة التابعة لمملكة بانلي اليوم متجهة الى مرسيليا ، جـاء السيد ابن زعمون اليوم الى القنصل ليحمل اليه تحيات الآغا وأمير البحر وشكرهما على الرسالة التي وجههـا اليهما يوم أمس ، وقد أكد له ثقتهما التامة فى أمانته واخلاصه وفى الدوافع النبيلة التي أوحت له سلوكه فى هذه الحرب ، وقد أعرب الآغا عن أسفه لعدم العمل بنصائح القنصل حينما كان الوقت لايزال مواتيا . وأما الآن ، وبعدما رأياه من تصميم الداي وما أبداه من العناد ، فقد قررا أن يتركه ليعمل بآرائه الخاصة .

والآغا لا يخفي أمله ، بل ورغبته ، في أن يفشل الداي فشلا كليا في سياسته وفي ادعاءاته غير المعقولة .

29 مايو :

اليوم هو آخر يوم من شهر رمضان ، وغدا يحتفل المسلمون بعيد الفطر . وبهذه المناسبة قصد القنصل الى وزير البحرية ليقدم اليه تهانيه كما تقضي التقاليد ، وقد كان في رفقته دروجمان القنصلية والسيد جرانت بوصفه سكرتير القنصلية (المكلف بشؤون القنصلية الانجليزية) والذي وضع تحت حماية القنصلية الأمريكية منذ رحيل القنصل الانجليزي الأخير عن الجزائر . وقد استقبل الوزير القنصل بكثير من اللياقة والحفاوة ، سأله عما اذا كانت توجد في البحر الأبيض في الوقت الحاضر سفن حربية أمريكية ، ولماذا لم تعد تزور الجزائر كما كانت تفعل في الماضي . وقد أجاب القنصل بأن الأسطول الأمريكي في هذه المنطقة كان في راحة مؤخرا ، وأنه علم من رسائل من الكمودور أن الحصار المضروب على مدينة الجزائر قد حال دون مقدمه مؤخرا ، ولكنه مع ذلك قرر أن يأتي الى الجزائر بنفسه أو يرسل احدى بوارج الأسطول في الأسبوع الأول من شهر يونيو القادم ، وقد لاحظ الوزير أن الحصار لم يكن يجب أن يحول دونه ودون زيارة الجزائر ، حيث أن الانجليز سيحترمون العلم الأمريكي، بالتأكيد . وقد لاحظ القنصل أن الوزير كان يرغب رغبة قوية في الدخول في حديث في موضوع الحرب مع انجلترا ، ولكن القنصل تجنب الخوض بلباقة في هذا الموضوع .

3 يونيو :

وصلت السفينة الحربية الأمريكية « ايريك » بقيادة القبطان ديكون وقدمت اليها التحية التقليدية وقد حملت السفينة رسائل من ماهون من الكمودور كرايتون . وبعدما علم بالوضعية السائدة هنا ، وبناء على نصيحة القنصل (الأمريكي) أعرب عن رغبته في الاتصال بالسلطات

الجزائرية . وعلى الساعة الثالثة بعد الزوال ، نزل مع القنصل من السفينة وأطلقت المدافع خمس طلقات تحية له ، كما تقضي التقاليد . وعقب ذلك بعث القنصل الدروجمان الى الداي ليبلغه نأ القبطان ديكون يريد التشرف بمقابلته اذا كان ذلك يحوز رضاه ليقدم تحياته الى سموه . وقد رد الداي على رسالة القنصل برسالة أخرى مفعمة بتعابير اللياقة والأدب ، وأبدى تأثره بهذا المسعى ، وحدد موعدا للقبطان والقنصل الأمريكيين فى يوم الغد على الساعة الواحدة بعد الزوال لاستقبالهم .

4 يونيو :

على الساعة الواحدة بعد الظهر ، توجه القنصل الى القصبة حيث قدم القبطان ديكون وضباطه الى الداي الذي استقبلهم بكثير من اللياقة والمودة . وقد تساءل الداي هل هناك من جديد ؟ فأبلغه القنصل الكارثة التي لحقت بالحاكم ما كارتي عند شواطىء أفريقية الغربية ، كما أحاطه علما بالخبر الذي وصله من ميناء ماهون والذي يقول ان هنري نيل ينتظر وصول حاملات القنابل لكي يشن هجوما على مدينة الجزائر . وسأل الداي القنصل عما اذا تلقى أخبارا من لندن بشأن الرسالة التي كان قد وجهتها حكومته الى اللور باثهورست . فأجاب القنصل أن رسالته قد سلمت الى من له الحق فيها وأن الرسالة التي وجهها هو الى وزير امريكا المفوض فى لندن قد سلمت هي الأخرى الى اللورد باثهورست ، وذلك بناء على طلبه هو . ولكن اللورد باثهورست شعر بصدمة ودهشة عظيمة لأن ما ورد فى الرسالة الأولى لا يتطابق مع مضمون الرسالة الثانية . وعندئذ طلب الداي الى القنصل أن يخبره بما كتبه فى رسالته ، فرد القنصل بأنه انما كتب ما طلب اليه الداي والوزير أن يكتبه .

وقد طلب الداي الى القنصل عدة مرات أن يبدي رأيه فى الأحداث الجارية ، وكانت تبدو عليه الرغبة الملحة فى الدخول فى مباحثه بشأن

الأسباب التي أدت الى الحرب الحالية . ولكن القنصل الذي لم تكن لديه أية ثقة فى هدف المناسبة فى المترجم ، اكتفى بالحديث عن عدم مقدرته على الخوض فى المسائل التي من هذا النوع وعن عدم صلاحيته لمناقشتها .

وبهذه المناسبة لم يقم أي اعتراض على احتفاظ القبطان ديكون وضباطه بسيوفهم أثناء مقابلتهم مع الداي .

8 يونيو :

أوضح القنصل للقبطان ديكون الوضعية التي يجد فيها نفسه حاليا فى الجزائر حيث يتمتع بحظوة كبيرة ويتحمل مسؤوليات ثقيلة ، وطلب اليه أن يترك معه شابا حسن السلوك من بين رجاله ، ليعمل سكرتيرا له فى القنصلية ، ما دامت الحالة الحاضرة قائمة ، وكذلك أصدر القبطان أمرا الى ميدشيبمان بليزانتون بأن يبقى فى القنصلية ملحقا حتى صدور أوامر أخرى .

أقلعت السفينة الحربية « ايريك » فى اتجاه تونس وطرابلس ورافقتها احدى السفن المحاصرة ، وفى غضون زيارة « ايريك » للجزائر أبدى الرسميون الجزائريون كثيرا من المجاملة واللياقة .

15 يونيو :

تلقى القنصل هدية من القبطان ديكدر هدية ، وهي عبارة عن بندقية جميلة صنعت حديثا فى الولايات المتحدة ، وقد قدمها بدوره ، عن طريق ابن زعمون ، هدية للأغا ، الذي هو رجل شرف ويحب الأسلحة الجميلة ، وقد رد الأغا بأنه يعتبر هدية قنصل الولايات المتحدة شرفا عظيما ، ولكنه أصبح الآن من المعلوم أنه قد تبنى وجهة نظر القنصل فيما يتصل بالحرب الحالية مع بريطانيا ، ومن ثم ، فهو يرغب فى أن ترسل اليه البندقية بصفته الشخصية .

9 يـوليـو :

زاد عدد قطع الأسطول المحاصر الذي كان يتكون من بارجتين ، زاد فى الأسبوع الماضي بعدد من السفن الحربية التي وصلت الواحدة بعد الأخرى ، مما يدل على أن الجزائر أصبحت ملتقى لجميع السفن التي تشكل الأسطول البريطاني العامل فى البحر الأبيض ، وفى هذا الصباح انضمت سفينة جديدة يبدو أنها حاملة القنابل أو سفينة لنقل الذخيرة الى الأسطول المحاصر ، وقد جرتها سفينة تسير بالبخار ، يبدو أنها هي الأخرى حاملة القنابل . وفى المساء كانت تتراءى للناظر تسع سفن ، وقد ظهرت سفينة حربية هولندية وسفينة ذات صاريتين فى الخليج ، وقد أجرت الأخيرة اتصالا مع قنصل هولندا ، ولكنها لـم تأت بأي خبـر جديد .

10 يـوليـو :

أرست بارجة الأميرال الانجليزية « ذي رجنت » صـباح اليوم فى الخليج ، ويبدو أنها وصلت فى الليل ودون أن تلحظها السفن المحاصرة، وقد أقلعت على الساعة السابعة وانضمت الى بقية سفن الأسطـول فى عرض البحر . ان الجو ملبد بالغيوم والريح خفيف ، ويبدو أنه لم تصل حتى الآن جميع قطع الأسطول الانجليزي ، وفى هذا الصباح ، قامت الزوارق الحربية الجزائرية بمناورات على مرأى من الأميرال الانجليزي وأسطوله .

11 يـوليـو :

أرست البارجة البريطانية « ذي رجنت » صباح اليوم فى الخليج على مسافة ثلاثة أميال من مواقع المدافع الجزائرية ، على الأقل كما تبدو المسافة من هنا ، وعقب ذلك وصلت ثـلاث بوارج أخـرى وأرست لتشكل صفا ثابتا فى جنوب البارجة الأولى وعلى مسافة قصيرة منها .

ظهرت صباح اليوم سكونه حربية فرنسية فى الساعات المبكـرة فى الخليج ، وقد حيت الأميرال ، ولكنها لم تحصل على اذن منه للاتصال بالجزائر .

وفى هذا المساء ، قامت باخرة بجر السفينة التي كانت تبدو لنا حاملة القنابل ، ولكنها لم تتخذ موقعا حربيا . قام الجزائريون بمناورة بأسطول حربي صغير يتكون من 27 زورق حربي .

12 يـوليـو :

وصلت صباح اليوم بارجة وأرست فى الخليج مع قطع الأسطـول البريطاني المحاصر . ويبدو أن الانجليز منهمكون الآن فى قياس الزوايا ، والمرجح أنهم ينتظرون وصول حاملات القنابل ، وقد انفصلـت عـن الأسطول سكونة صغيرة ، وأرست على مقربة من الميناء ، وفى هـذا المساء أخرج الجزائريون أسطولهم الصغير للقيام بمناورة كالمعتاد ، وقد تراءى لهم أن البارجة تقع فى نطاق مرمى المدافع ، فأطلقوا النار عليها ، على الساعة السادسة والربع ، وعندئذ بدأ تبادل اطلاق المدافع بصورة عامة بين الأسطول الصغير وبطاريات المـدافع الجـزائرية من جهة ، والأسطول البريطاني ، من جهة أخرى ، وفى هـذه الأثنـاء ، أرسـل الجزائريون عددا من القنابل ، ثلاث منها انفجرت فى الهواء ، استمر تبادل اطلاق المدافع ساعة من الزمن ، ولكن القنابل كانت تسقط قبل أن تصل الى الهدف من كلا الجانبين .

ويبدو أن الأميرال هو الذي استفز الجزائريين عمدا لاطلاق مدافعهم حتى يعرف بالضبط مرمى هذه المدافع .

وهكذا ، فقد بدأت الحرب الآن فعلا ، ولا يمكـن لبريطـانيا أن تراجع دون أن تخدش سمعتها .

قيل ان الداي قد وزع كثيرا من المال بين البحارة والجنود وأنه قد حدد المكافآت على مختلف الأعمال التي تدل على الشجاعة والبطولة .

13 يـوليـو :

شوهدت فى الصباح المبكر اليوم باخرة تجر سـفينـة للمـؤن أو القنابل ، خارج الخليج ، وعند الزوال حينما بدأ نسيم البحر يبرد قليلا ، أقلعت جميع قطع الأسطول البريطاني فى اتجاه عرض البحر تاركة الناس فى حيرة عن نيات هذا الأسطول فيما بعد ، ولكن المرجح هو أن الأميرال البريطاني قد قام بهذه الحركة فى انتظار وصول التعزيزات التي وعـد بها ، ويقال أن المعركة الصغيرة التي وقعت يوم أمس قد خلفت قتيلا وجريحا فى صفوف المدفعية الجزائرية ، وأن ثلاث رصاصات قد سقطت فى المدينة ، وهذا يوحي بالاعتقاد بأن السفن الحربية كانت أقرب الى المدينة من المتوقع .

كان الحر شديدا فى اليومين الأخيرين بحيـث أن درجة الحـرارة ارتفعت من 82 الى 88 درجة (ف) .

14 يـوليـو :

الجو لطيف ودرجة الحرارة لا تزيد عن 82 درجة ، وقد عدت قطع الأسطول البريطاني فى عرض البحر عدة مرات فوجد أنها تبلغ 14 قطعة ، ولكنه فى المساء بلغ عددها 20 سفينة ، فيما يقال .

وفى هذا المساء ، وفى جو الحرب الداكن وما يساور الناس فى هذا البلد من القلق من جرائها ، تمتعنا بمنظر من أجمل ما تقع عليه العين ، فعند غروب الشمس بدأت أزهار التين الشوكي تتفتـح فى حديقـة القنصلية ، وأخذت تنشر ألوانها الزاهية والزائلة تحت أضواء القمر

الساطع ، وعبيرها يضوع فى الهواء العليل لمسافات طويلة وتخلق بذلك جوا من السحر والجمال .

15 يـوليـو :

كان الجو فى معظم النهار ملبدا بالغيوم والأفق تغطيه طبقـة كثيفة من الضباب ، ولكن درجة الحرارة لا تزيد عن 78 درجة (ف) ، وأما الرياح فتهب من الشمال ، وعند حوالي الساعة الخامسة بعد الزوال ، اختفى الضباب جزئيا ، فأمكن رؤية ست عشرة سفينة حربية من قطـع الأسطول البريطاني . انغلقت على نفسها الزهرات الجميلة التي تفتحت ليلة أمس ، ولم يكد يصل المغرب حتى ذبلت تماما وماتت .

16 يـوليـو :

الجو تغطيه طبقة من الضباب ، ودرجة الحرارة 77 درجة ، والرياح شرقية ، والأسطول الانجليزي يبدو فى الأفق بين الفينة والفينة .

17 يـوليـو :

الجو حار وملبد بالغيوم ، ودرجة الحرارة ارتفعت من 77 درجة الى 85 درجة ، والرياح شرقية ، وصلت الى الخليج سفينة حربية هولندية وبارجة ، والسفينة الأولى تحمل علم نائب الأميرال ، وهاتان السفينتان أجريتا اتصالا مع قنصل هولندا ، وذلك دون أن يقع اتصال بينهما وبين الأسطول الانجليزي .

24 يـوليـو :

شوهدت قطع الأسطول البريطاني وكان عددها يتزايد باستمرار فى الأيام الأخيرة بحيث بلغ 22 قطعة ، شوهدت فى عرض البحر فى مقابل الميناء ، وهي تبدو دائما على استعداد لشن هجوم . الجو جميل للغاية ، وقد سجل مقياس الحرارة 75 درجة ، والرياح شمالية شرقية ، وعـلى

الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة ، تحركت بارجة الأميرال وتحركت وراءها جميع قطع الأسطول البريطاني . يمكن الاعتقاد بأن أربع حاملات للقنابل وأربع سفن كبيرة لنقل المؤن والأشخاص تستعد لقصف مدينة الجزائر ، وعلى الساعة الواحدة وعشرين دقيقة ، اتخذت حاملة للقنابل موقعا حربيا ، وعلى الساعة الواحدة والنصف ، بدأت المدفعية الجزائرية والأسطول الصغير فى اطلاق الرصاص والقنابل بنشاط حاد .

وعند ذلك ، نشر الأميرال علم المفاوضة وبعث بمركب تحت ذلك العلم ، ولكن اطلاق النار استمر بضع دقائق من الجانب الجزائري ، ولم يتوقف الا بعد اعطاء اشارة بذلك من القصبة (قصر الداي) .

وعلى الساعة الثانية ، استقبل الجزائريون عند الميناء المركب الذي يحمل علم المفاوضة .

وعلى الساعة الرابعة والربع أرسل الرد على رسالة الأميرال الانجليزي. وعلى الساعة السادسة ، وجه الأميرال رسولا ثانيا الى الجزائر ، وفى هذه الأثناء ، كان الانجليز ينظمون صفوفهم للهجوم ، وقد كانت سفينة منهمكة فى جر السفن التي كانت فى حاجة الى المساعدة ، لكي تتخذ موقعا للهجوم ، وكذلك كانت السفن البريطانية الراسية تشكل الآن ما يشبه قوسا فى مقابل مدينة الجزائر ، يمتد نحو ميل ، ونحن سوف نذكر عدد السفن الحربية وقوة كل منها والمسافات التي تفصل بينها حينما نتمكن من معرفة ذلك بصفة أدق .

25 يوليو :

الجو حار والسماء صافية ودرجة الحرارة تتراوح بين 80 و 90 درجة ، والرياح شرقية ، ولكنها تتجه فى بعض الأحيان الى الجنوب ، وقضت الأطراف فى الحرب هذا النهار فى المفاوضة وتبادل الرسائل .

26 يـوليـو :

على الساعة السادسة صباحا ، تلقى القنصل (الأمريكي) رسالة من القبطان سبنسر يطلب اليه اجراء مقابلة معه فى المـدينة ، وقد قصـد القبطان الى دار القنصل ، وهناك أعلمه بأن الداي قـد قبل جميـع الشروط البريطانية ، ولكنه يرفض عودة القنصل البريطـاني الأخير . السيد ما كدونالد ، وأضاف قائلا : ان القنصل قد أصبح مكروها من الشعب الى درجة أن الداي غير متأكد من أن يستطيع حمايته من غضب الجماهير لو نزل الى البر . وقال ان هذه حجة زائفـة ، ولـكن الداي يستطيع أن يجعلها حقيقية بحيث يدفع بطرق يستحيل معرفتها الجموع الهائجة لتقف فى وجه القنصل متى نزل الى البر ، ونحن — كما قال — يجب أن ندرك أن هذه الحكومة هي أقوى حكومات العالم فيمـا يتعلق بكفاءة البوليس ، وبدلا من أن يحمـل الحـكومة الجـزائرية مسؤولية سلامة القنصل الانجليزي ، وهي مسألة سهلة بالنظر الى أهمية القوات الانجليزية التي تحت تصرف الأميرال ، فقد رأى ، لاعتبارات انسانية أن يرفض نزول القنصل الى البر وتعريض نفسه لخطر كبير ، وكذلك قرر تعيين قائم بأعمال القنصلية .

وهكذا نشاهد أن هذه الحملة عبارة عن جبل تمخض على فار !

سيجد القارىء فى الملاحق وثائق أصيلة تثبت أن شروط هذا الصلح كانت هي نفس الشروط التي اقترحت على الاميرال الانجليزي فى شهر مارس الأخير .

وأما الأسطول الانجليزي الذي ضرب نطاق الحصار على الجزائر ، فهو يتكون من سفينة حربية كبيرة وخمس بوارج ، وأربع حاملات للقنابل تحمل كل منهما مدفعين من مدافع الهاون ، وباخرة تبلغ قوتها مائة حصان ، وعدد من السكونات والسفن الحربية ذات الشراعـين ، والسفن التي تنقل المؤن ، والمجموع 23 سفينة — وهي قـوة كافيـة

لهدم مدينة الجزائر حتى الأساس ، ومنظر هذا الأسطول الراسي منظر يدعو الى الاعجاب . انه عبارة عن هلال يمتد على ميل واحد وربع ميل . والمسافة بين كل سفينة والفنار هي حوالي أربعة آلاف ياردة .

قام القنصل (الأمريكي) بزيارة الأميرال الانجليزي على متن بارجته واستقبله بما عرف به من روح المجاملة ، وعرض عليه أن يساعد القائم بأعمال القنصل الجديد (وهو شاب لا خبرة له) بنصائحه اذا اقتضى الأمر ، وهناك اجتمع القنصل (الأمريكي) أيضا بصديقه القنصل الانجليزي الأخير الذي هو فى سن متقدمة وله أسرة تتكون خصوصا ، من عدد كبير من صغار الأطفال ، انه كبش الفدا لهذه المفاوضات الغريبة ، وقد نزل القنصل من البارجة على الساعة الثانية بعد الزوال برفقة القائم بأعمال القنصلية البريطانية الجديد الذي قدم اليه الضيافة فى منزله ، ريثما يتمكن من تنظيم مقر له ، وقد قبل هذا العرض .

وكذلك نرى أن الداي حسين ، بفضل تعنته وصموده فى انتهاج سياسة ضد كل نصيحة من مجلسه ، قد رفع نفسه الى درجة من القوة والنفوذ الأدبي لم يصل اليها الا عدد قليل من الدايات فى العصور الحديثة ، ومنذ الآن ستعتبر آراء الداي تنبؤا صادقا بالغيب .

29 يوليو :

ان المساومات التي جرت بين الطرفين فى الحرب فى غضون الأيام الأخيرة ، ليس لها سوى أهمية ضئيلة . فان الأسطول الانجليزي قد تفرقت سفنه واتجهت كل منها فى اتجاهها الخاص ، وبالأمس ، وجهت نسخة من هذه المذكرات حتى يوم 27 الجاري عن طريق الأميرال الانجليزي الى الوزير الأمريكي فى لندن ، لكي يكون على اطلاع على تطورات الحالة ، وفى هذا الصباح نزل الأميرال الى البر وقام بزيارة القنصل (الأمريكي) ، وقد رافقه كل من القبطان سبنسر والقبطان

بليرفونـــد ، وشــــارل بــوراه ، وغيرهـــم مـــن الضبـــاط ، ومن القنصلية توجهــوا الى قصر الداي ليدعوه . وبعــد عودتهـم تناولوا وجبة باردة من الطعام مع القنصل ، ثم عادوا الى الأسطول على الساعة الثالثة بعد الزوال . تلقى القنصل رسائل من القــائم بأعمال القنصلية الأمريكية فى تورين ، ورد عليها بواسطة الأسطول البريطاني .

31 يــوليــو :

شعر القنصل بكثير من الفضول لمعــرفة ما اذا كــانت الأحــداث الأخيرة قد قللت بطريقة أو أخرى من نفوذه لدى أعضــاء الحــكومة الجزائرية ، وكذلك طلب مقابلة وزير الحربية وتوجه اليه على الساعة الثامنة (وهي ساعة المقابلات) مصطحبا معه ابن زعمون المترجم ، وقد استقبله هذا الوزير استقبالا وديا صريحــا ، وبعــد المجــاملات التقليدية ، قال للوزير ان هدفه من هذه الزيارة هو شــكر الحكومة الجزائرية وهو شخصيا من أجل المعاملة الحسنة التي تلقاها أثناء الحرب الأخيرة مع الانجليز ، وقدره الوزير قائلا : ان الحكومة تعرف جيــدا القنصل الأمريكي وتقدر شخصيته كما ينبغي ، وهي تعتقد أن الحوافز التي دفعته الى سلوكه كانت سليمة ومجردة من المصلحة الشخصية ، وأنه أبدى روحا قوية من الحياد والصداقة ، وأنه هو شخصيا لم يتردد قط فى أن يمنحه كل ما يطلبه مما يتعلق بمصالحه أو بالمصالح التي وكل بها ، وأنه اذا كانت آراؤه التي تتصل بالحكومة لم تؤخذ بعين الاعتبار ، فان ذلك لا يقلل من ثقتها فى الشخص الذي قدمها .

وقد ذكر الوزير عدة حالات تثبت كرم ونبل وسلوك الجــزائر فى غضون الحرب ، ولكنه تشكى لأن الانجليز لم يستجيبوا بالمثل ، وقد أعرب الوزير عن سروره لأن يرى القائم بأعمــال القنصلية البريطانية يقيم فى منزل القنصل الأمريكي ، وقال انه لا يوجد فى الجزائر من هو

أولى من القنصل ليزوده بالنصائح ، وباختصار ، فقد كانت هذه المقابلة على أحسن ما يرام وقد جرت فى الجو الودي المرغوب فيه .

اغتنم القنصل هذه المناسبة ليعرض على الوزير مسألة جرانيت ، نائب القنصل البريطاني الذي رفضت السلطات الجزائـرية طلب السلطات البريطانية بالسماح له بالاقامة فى الجزائر مدة أخرى ، فصرح بأنه هـو الشخص الوحيد الذي يمكنه تسوية المشاكل المالية التي تركها القنصل ، السيد ماكدونالد معلقة بسبب سفره المفـاجيء ، وقد طلب القنصل خدمة شخصية من الوزير بأن يسمح لهذا الشخص بالاقامة فى البلد مرة أخرى حتى يتمكن من تسوية شؤون هذه العائلة العاثرة الحظ ، تردد الوزير قليلا ، ثم قال للقنصل انه اذا اطلع هو نفسه عـلى التقارير التي وصلت الى الحكومة عن التصريحات العدائية التي صـدرت عن هذا الشخص ، فانه سوف يوافق على طرده من البلد ، ولكنه اعتبارا له (للقنصل) فسيسمح للسيد جرانيت بالبقاء تحت حمايته للغرض الذي ذكره ، وقد كرر الوزير قوله عدة مرات بأن هذه مزية لا يمكن أن تمنح لأي شخص آخر فى الجزائر ، وقد شكر القنصل الوزير شكرا ملائما للدليل الذي قدمه على حسن نيته ، ودون أن يحاول الرد على الاتهامات الموجهة الى السيد جرانيت ، اكتفى بأن يلاحظ أنه رجل كبير السن محترم معروف بأمانته ، ولو أنه يميل كثيرا الى الثرثرة ، مما جعـل البعض ، بدون شك ، يبالغون فى تصوير خطورة أقواله ، وهو أمـر لا يستحق ، فى رأي القنصل ، اهتماما جديا ، ومرة ثانية ، ذكر القنصل أنه يسعى لمساعدة عائلة عاثرة الحظ فيها كثير من النساء والأطفال الصغار ، وأنه يقدر هذه الخدمة حق قدرها .

2 اغسطس :

نزل الى البر اليوم للنزهة حوالي نصف ضباط البارجة البريطانية « نيادا » ، وعددهم ستة عشر ضابطا ، وقد استقبلهـم القنصـل فى

القنصلية الأمريكية ، وقدم لهم وجبة غداء على الساعة الثانية بعد الزوال ، ثم عادوا الى متن السفينة بالمساء ، تناول القنصل طعام العشاء على متن البارجة «نيادا» .

3 اغسطس :

نزل صباح اليوم الى البر القبطان سبنسر وتناول الفطور مع القنصل، وأما بقية ضباط البارجة ، فقد نزلوا للتجول فى المدينة ، انهم شبان ممتازون من جميع النواحي .

وصلت الى الميناء وأرست فيه حراقة هولندية قادمة من ميناء ماهون ، ثم اتصلت بالقنصل الهولندي .

5 اغسطس :

اليوم عيد الأضحى . قام القنصل بزيارة وزير البحرية فى الصباح ، وبزيارة الداي على الساعة الواحدة لتهنئته بهذا العيد ، كما جرت العادة ، وقد أحسن الاثنان استقباله ، منذ وصول الأسطول البريطاني والبلد يعاني من حرارة مفرطة بحيث أن مقياس الحرارة (فهرنهايت) يتأرجح بين درجة الحرارة 76 و 90 ، فى داخل المنازل المواجهة للبحر ، ولكن درجة الحرارة ارتفعت فى عدد من منازل القناصل الأروبيين التي لا يصل اليها نسيم البحر الى درجة 100 .

11 اغسطس :

أقلعت البارجة البريطانية « نيادا » فى اتجاه مالطه ، وقبل سفره ، وجه القبطان سبنسر رسالة تنطوي على كثير من المجاملات الى القنصل (الأمريكي) يشكره فيها على ما أبداه من الاهتمام به وبضباط البارجة أثناء اقامتها فى الجزائر ، ومعاملات وكيل انجلترا مع السلطات الجزائرية منذ عودة السلام لا تنطوي على ما يستحق ادخاله فى هذه المذكرات .

13 اغسطس :

غادر السيد دانفوند القائم بأعمال القنصلة البريطانية القنصلية التي كان يقيم فيها ليستقر فى منزل خاص فى الريف . انه شاب حسن السلوك وذو شخصية ومواهب تدعو الى الاعجاب .

14 اغسطس :

سأل وزير البحرية القنصل عما اذا كان يستطيع أن يمنح تأشيرات (6) مؤقتة للملاحين الجزائريين بالنيابة عن قنصلية النمسا وقنصلية توسكان وقنصلية البرتغال ، فأجاب القنصل بأن ذلك أمر ليس فى استطاعته ، حيث أن هذا لا يتفق مع واجباته ، وبعد ذلك قدم الوزير نفس الطلب الى القنصلية البريطانية ، ونظرا لأن القنصلية البريطانية كانت ترعى مصالح هذه القنصليات ، فقد نصح القنصل (الأمريكي) القائم بأعمال القنصلية البريطانية بأن يجيب هذا الطلب ، حيث أن ذلك يتفق مع مبادىء المجاملة الدولية .

18 اغسطس :

أخبر الدروجمان القنصل صباح اليوم أن سفينة قد غرقت عند شواطىء بجاية الشرقية ، وسيادة حكومة الجزائر لا تمتد الى هذه المنطقة ، وقال ان سبعة من البيض ورجلا واحدا من السود قد وقعوا فى قبضة « القبائل » الذين يسكنون هذه المنطقة ، وأن الداي قد اتخذ فى الحال الاجراءات الضرورية لاطلاق سراحهم ، وقد طالب القنصل بالقيام بكل ما من شأنه أن يسهل هذه العملية ، وصرح بأنه مستعد لدفع المبالغ المعقولة التي تترتب على تحرير هؤلاء الأسرى ، وجهت نسخة من هذه المذكرات ، حتى تاريخ اليوم ، الى الوزير الأمريكي فى لندن ، تحت مظروف موجه الى كامبل ، ليفورن فى جنوه .

---

6 – فى الاصل :

19 اغسطس :

وصل الى الجزائر وأرسى فى مينائها واتصــل بالقنصل الهولندي أسطول هولندي بقيادة العميد البحري وهـــو يتكون من بارجة وسفينة حربية ذات صاريتين وسفينة ذات صارية واحدة ، وقد أبلــغ قنصل حربية ذات صاريتين وسفينة ذات صارية واحدة ، وقد أبلغ قنصــل هولندا القنصل الأمريكي عقب عودته من مقابلة مع وزير البحــرية أن الأخير قد صرح له بطريق لا لف فيها ولا دوران بأنه يجب على هولندا أن تلغي المعاهدة التي عقدتها مع أسبانيا للدفاع ضد الجزائر ، وأن توافق على دفع ضريبة سنوية وهدايا كما كانت تفعل من قبل ، والا فان الجزائر ستعلن الحرب عليها ، وقد بلغت القنصل (الأمريكي) أخبار بأن السفينة ذات الصاريتين التي سافرت اليوم الى جنوة تحمل تصريحا مماثلا الى حكومة سردانية .

20 اغسطس :

نزل الى البر نائب الأميرال الهولندي الذي جاء من مرسيليا وقــد سلم للقنصل صحفا ورسائل من مرسيليا . حدد الداي موعدا لاستقبال قنصل هولندا يوم الغد .

21 اغسطس :

تناول قنصل هولندا ونائب الاميرال طعام الفطور صباح اليوم مــع القنصل (الأمريكي) ، عقب عودتهما من زيارة قامــا بها الى الدار البيضاء ، وقد أخبر القنصل أنهما تلقيا رسالة من حكومتهما بواسطة سفينة ذات صاريتين جاءت من مرسيليا ، تتضمن اعلان الحكومة الغاء معاهدة السلام التي ترتبط بها هولندا وأسبانيا ضد الجزائر ، وأنهما قد أبلغا هذه المعلومات الى الداي ، ولكن الداي طالب فى مقابل معاهدة السلام مع الجزائر أن تدفع هولندا ضريبة سنوية بنفس المبــالغ التي تدفعها الدول الأروبية الأخرى . وكميزة خاصة منحهما مهلة ثلاثة أشهر لاتخاذ قرار فى الموضوع ، وعلى الساعة الحادية عشرة ، قصد القنصل

الهولندي الى البارجة ليتشاور مع الأميرال بشأن الرد الذي يقدمه الى الداي ، وفى هذا المساء عـاد القنصل الهولندي الى قنصليته ، وقد شاعت أخبار مؤداها أن الداي ينوي الكتابة الى ملك هولندا ليطلب اليه دفع ضريبة سنوية ويقدم هدايا مرة فى كل سنتين ، وليعلن اليه أنه يمنحه مهلة 90 يوما ليختار بين الحرب والسلام على أساس هـذه الشروط •

22 اغسطس :

أقلعت البارجة الهولندية والسفن الحربية الأخرى التي جاءت معها،فيما عدا السفينة ذات الصاريتين التي تخلفت لكي تنقل معها القنصل • وقد صرح الداي بكل لطف أنه اذا وافق صديقه ، ملك هولندا ، عـلى مقترحاته ، فسيكون مطالبا بدفع الضريبة والهدايا المطلوبة ، ابتداءا من هذا التاريخ فقط . ولكنه اذا دفعه فى طريق الحرب ، فانه لن يعقد معه أي صلح دون أن تدفع هولندا مؤخر الضرائب ، أي منذ أن توقفت هولندا عن دفع الضرائب بضم هذا البلد الى فرنسا • وبهذه المناسبة تجرأ قنصل هولندا عن حـق وأشار الى المعاهدات التي عقدت بين البلدين ، ولكن الداي قاطعه قائلا ان الماضي مضى وانقضى ولا يمكن الحديث عنه ، لأن الجزائر انما تستعيد حقوقها القديمة . وقد أبلغ القنصل (الأمريكي) من مصدر ودي وموثوق به أن حالة الولايات المتحدة قد أثيرت هي الأخرى فى مجلس الوزراء • واذا نجح الجزئريون فى قضيتهم مع هولندا ، فان الولايات المتحدة ستواجه نفس المشكلة .

25 اغسطس :

نزل الى البر صباح اليوم عدد من الضباط الهولنديين وتناولوا طعام الفطور عند القنصل (الأمريكي) . وعلى الساعة الثانية عشرة أقلعت السفينة ذات الصاريتين • وقد اغتنم القنصل هذه المناسبة وبعث معها رسائل الى الوزير الأمريكي فى لندن والوزير الأمريكي فى باريس •

وكذلك بعث بحسابات القنصلية النصف السنويه فى مظروف عن طريق مرسيليا .

لقد سجل فى هذه المذكرات بتاريخ 3 فبراير أن القنصل تلقى معلومات تفيد أنه لو علـم الداي بنيات القنصل الانجليـزي السابق والقبطان سبنسر (بالالتجاء الى البارجة والفرار) لأمر بالقاء القبض عليهما . ان القنصل (الأمريكي) لا يوجد ما يحمله على الاعتقاد بأن حديثا ما ورد فى هذا الشأن ولكن العدل والانصاف لداي يضطر الى القول الآن بأن شخصية الداي كما برزت خلال أحداث الحرب الغربية التي مر بها البلد ، تمنعه من الالتجاء الى مثل هذه الاجراءات .

يبدو أن اليوم الخامس من هذا الشهر قد كان آخر أيام الحر الشديد فى هذه السنة ، فمنذ ذلك اليوم لم يسجل مقياس الحرارة درجة أعلى من 75 درجة (فهرنهايت) .

28 اغسطس :

وصلت الى الجزائر وأرست فى الخليج البارجة البريطانية « فايطون » بقيـــادة القبطان « ستورت » قادمة من جزيـــرة مالطة ، وعلى متنها قبطان حراقة جزائرية كان قد أسر فى شهر فبراير الماضي مع عدد من البحارة الجزائريين أثناء الحرب الأخيرة مع بريطانيا . وفى غضون الليل هبت عواصف شديدة اضطرت القبطان أن يتجه الى عرض البحر .

31 اغسطس :

عادت البارجة البريطانية « فايطون » الى المرسى . قام بزيارة القنصل (الأمريكي) قبطان السفينة « ستـــورت » ومعه زوجته وابنته ، والجنرال ، سير باركوكارول وقسيس يدعى «رادكليف» وتناولوا وجبة من الطعام البارد ، وقد عادوا الى البارجة فى مساء اليوم .

وصلت سفينة فرنسية ذات صاريتين الى الجزائر قادمة من مرسيليا وقد حملت على متنها رسائل وصحفا للقنصل من مراسليه فى تلك المدينة. وكذلك تلقى محراثين صغيرين وبذور للحديقة وكتبا من نيويورك.

1 سبتمبر :

قام الرايس قدور، القبطان الجزائري الذي آسره الانجليز على مرأى من مدينة الجزائر فى فبراير الماضي، قام بزيارة للقنصل (الأمريكي) الذي عبر له عن ثنائه وتقديره لما أبداه من البسالة فى الدفاع فى تلك المناسبة، وقدم اليه هدية وهي عبارة عن مبلغ عشرة سكوينات، رمزا لتقديره واعتباره. أقلعت البارجة البريطانية « فايطون » فى اتجاه جبل طارق وتاجه

6 سبتمبر :

رحل عن الجزائر الفارس « انكارلو » تنصل السويد الذي أحيل على المعاش متجها الى ليفورن.

7 سبتمبر :

قامت حكومة هذا البلد لأول مرة باطلاق أسماء على سفن أسطولها الحربي، ووجهت الى هذه القنصلية قائمة بهذه الأسماء وبعدد المدافع التي تحملها كل سفينة.

19 سبتمبر :

سافر أسطول جزائري لغرض القرصنة يتكون من حراقة وسفينة حربية ذات صاريتين وسكوتتين. وقد رفعت علم هامبورج ومعنى ذلك أن عمليات القرصنة سوف تستهدف سفن المملكة.

21 سبتمبر :

سلم ضابط الميناء صباح اليوم رسالة لا تحمـل تاريخا من قبطان يسمى « باركـر » يقـول فيهـا أن السـكونة « هـاريت » مـن فيلا ديفيا (بلتيمور) تتجـه الى تريستة وقد وقعت فى دوامة من العواصف فى الليلة الماضية وغرقت على مسافة 70 ميلا من شواطي هذا البلد ، وانه قد نجا هو ونائب القبطان وستة من البحارة فى قارب ، ووصلوا يوم 6 أغسطس الى شـواطيء البلد الشرقية حيث أسرهم « القبائل » المستقلون بهذه المنطقة ، وهم الآن فى حوزتهم وقد جردوا من ثيابهم ولا يجدون سوى القليل من الطعام ، وأن اثنين من البحارة قد وقعوا ضحية للمرض .

وفى نفس الوقت ، وصلت الى القنصل رسالة بالعربية ، تبين بعد ترجمتها أنها تتضمن طلبا الى القنصل من رئيس هؤلاء القبائل ، بدافع أربعة آلاف « بطيقة » (أي ما يساوي 200ر2 دولار) فدية لهؤلاء البحارة . وفى هذه الحالة يبدو أنه لا يوجد بديل يتفق مع الاعتبارات الانسانية أو حتى مع مقتضيات حسن السياسة ، لهذه الفدية . وذلك لأن الامتناع عن دفعها معناه تعريض هؤلاء المواطنين البؤساء لقتـل مرجح . ولذلك اتجه القنصل الى وزير البحـرية لكي يدفع الفدية المطلوبة لتحرير القبطان وبحارته فى أقرب وقت ممكن . وقد أكد له الوزير أن جميع الاجراءات الممكنة قد اتخذت لتحريرهم ، وأضاف أن « القبائل » الذين أسروهم لا يخضعون لسلطة هذه الحكومة ، وأنه حتى لو كان الأسرى من الأتراك ، فلابد من دفـع الفدية أو تركهم ليواجهوا مصيرهم . وبناء على طلب القنصل ، وافق الوزير على توجيه سفينة صغير الى تلك الشواطيء لتحمل الفدية المطلوبة ، بعناية ضابط يتمتع بثقته . وقد أكد له الوزير أنه لن يهمل شيئا للوصول الى الغاية المطلوبة . ويبدو أن الوكلاء الذين كلفتهم الحكومة بتحرير هؤلاء الرجال

فى مبدا الأمر ، لم يجرءوا على دفع المبلغ الكبير الذي يطالب به هؤلاء القبائل فى مقابل تحرير الأسرى .

22 سبتمبر :

اتضح أن من المستحيل جمع المبلغ المطلوب كلـه للفدية بالعملة الجزائرية ، التي هي العملة الوحيدة المتبادلة فى تلك الشـواطيء . ولنتغلب على هذه العقبة ، اتجه القنصل الى الداي يرجوه أن يقدمها اليه من الخزينة العمومية . وقد وافق الداي بكثير من الألم ، حيث انه شعر بحرج فى كبريائه التركي ، ولم يستطع اخفاء شعوره للاهانة التي لحقت بسلطته ، نتيجة لسطوة القبائل ومطالبتهم بالفدية . انه هو وحده الذي يمكنه توفير الوسائل الضرورية لاطلاق سراح الأسرى . ومتى قام بتحويل العملة بالسعر الرسمي الذي حدده هو نفسه ، فانه يخسر عشرين بالمائة فى المبلغ ، وهو على كل حال ، لا يستطيع رفض أحد الأمرين أو تغيير الآخر .

23 سبتمبر :

بعد توفير المبلغ بالعملة الجزائرية القديمة ، أقلعت سفينة صغيرة فى اتجاه الشواطيء الشرقية ، ومعها أوامر خاصة من الحكومة بأن تقوم بتحـرير القبطان باركر من الأسر . وقد اغتنـم القنصل هـذه المناسبة ووجه رسالة الى القبطان باركر كما أرسل اليه كيسا يحتوي على خمر وقهوة وسكر الخ . للاستهلاك المباشر من طرف هؤلاء المواطنين العاثري الحظ .

25 سبتمبر :

قام القنصل بزيارة صديقه الآغا لكي يهنئه على نتائج الحملة الناجحة التي قام بها بقمع ثورة قام بها « القبائل » . وقد قدم اليه محراثا صغيرا حديث الصنع على سبيل الهدية ، وسر به كثيرا .

28 سبتمبر :

وصلت الى ميناء الجزائر وأرست فيه السفينة الأمريكية « أونطاريو ». قادمة من مالقة ، بأسبانيا . وقد نزل القبطان «نيكلصون» من السفينة على الساعة الثانية بعد الزوال . وبناء على طلب القنصل ، فقد قرر القبطان ارجاء اقلاع سفينته حتى تعود السفينة التي سافرت لتحرير الأسرى الأمريكيين على الشواطيء الشرقية . وبهذه المناسبة قدمت تحيات ورد بمثلها بطلقات المدافع .

29 سبتمبر :

سافرت حراقة جزائرية فى جولة للقرصنة .

30 سبتمبر :

وصلت سفينة هولندية ذات صاريتين قادمة من ماهون ، تحمل خبر موت لويس الثامن عشر (7) وتولى عرش فرنسا شارل العاشر (8) . وفى اليوم التالي تقلع هذه السفينة فى اتجاه تونس .

3 اكتوبر :

وصلت السفن الامريكية « دي ساين » و « ايري » و « نونساش » قادمة من تونس ، أرست فى الخليج وتلقت النخبة التقليدية .

4 اكتوبر :

رفض الكمودور « كرايتون » النزول الى البر ، حينما قام القنصل بزيارة السفينة « ذي ساين » وبعدما عرفه بحالة علاقاتنا بالجزائر . وقد

---

7 – ملك فرنسا (1757 – 1824) . هاجر الى انجلترا بعد قيام الثورة الفرنسية فى يونيو 1791 ، وبعد سقوط امبراطورية نابليون هيأ له تاليران العرش وتفاوض مع الحلفاء الذين هزموا فرنسا وعقد معاهدة باريس (1815) . وقد حكم عليه بالاعدام بتهمة التعاون مع العدو .

8 – ملك فرنسا (1757–1836) هو الذي وضع الخطط لغزو الجزائر ، بعد ظهور هذا الكتاب باربع سنوات (4 يوليو 1830) . والجدير بالذكر ان مترجم شارل العاشر ، وهو بلانشي قد قام بترجمة مذكرات شالر هذه الى الفرنسية ونشر فى باريس فى سنة 1830 ، اي قبل نزول الحملة ببضعة اشهر فقط .

قرر السفر على الفور ، حيث كان فى حاجه الى التموين . وقد ترك السفينة « أونطاريو » لتقوم بمهمة نقل القبطان باركر وبحارته .

5 اكتوبر :

أقلعت السفن الأمريكية « ذي ساين » و « ايرى » و « نونساش » فى اتجاه جبل طارق . وقد سافر ميدشيبمان بليزنتون بناءا على أوامر الكمودور على متن السفينة « ايرى » ، حيث أن الخدمة المدنية لا تسمح ببقائه مدة أطول ملحقا بالقنصلية .

تلقى القنصل هدية من الآغا ، وهي عبارة عن جواد جميل .

16 اكتوبر :

أبلغ وزير البحرية القنصل عن طريق الدروجمان أنه قد تلقى أخبارا بشأن فدية الأسرى الأمريكيين ، وأن هؤلاء قد وصلوا الى بجاية حيث منعهم رياح غربية قوية لم تزل تهب على الشواطيء الشرقية منذ خمسة عشر يوما ، الى الجزائر . وقد عرض ارسال أحد البحريين المدربين ليرشد السفينة الأمريكية « اونطاريو » الى هناك ، اذا رأى القنصل ذلك ملائما . وبعد فترة من التأمل والتفكير ، قرر القنصل ارسال « اونطاريو » الى بجاية ، اذا استمرت الرياح الغربية تهب بشدة وعنف .

17 اكتوبر :

ان الرياح لا تزال تهب فى الاتجاه الغربي ، وقد سافر القبطان نيكلصون عند الزوال الى بجاية ، أقلعت « أونطاريو » وعلى متنها مرشد جزائري .

وفى غضون الفترة الطويلة التي بقيت فيها « أونطاريو » فى ميناء الجزائر ، تجول ضباطها وبحارتها فى الجزائر بنفس الحرية التي يجدونها

فى أي بلد متحضر ، وفى كل مكان كان الناس يعاملونهم باحترام وأدب، فلم تصدر عنهم ولا عن أي جزائري أية شكوى .

وقبل أن يتمم القنصل رسائله ويختمها ، وصلته رسالة من وزير البحرية تقول ان المواطنين الأمريكيين قد وصلوا الى دلس التي تبعد عن الجزائر بعشر فراسخ ، ونظرا لأن هذا الميناء ليس له مرسى ، فقد بعث القنصل برسالة الى القبطان نيكلصون ينصحـه بالانتظـار ، وفى نفس الوقت ، طلب الى وزير البحرية أن يقدم تسهيلات لسفر الأمريكيين بطريق البر الى الجزائر ، فى حالة ما اذا استمرت الرياح الغربية تهب بعنف ، وقد قام الوزير بذلك فى الحال .

19 اكتوبر :

فى هذا الصباح كانت الرياح الشمالية الغربية عنيفة ، وقد وصلت السفينة الجزائرية التي سافرت لنقل الأسرى الأمريكيين والتي انتظرناها طويلا ، وعلى متنها القبطان باركر وبحارته ، ويبلغ عددهم جميعا ثمانية أشخاص . نزلـوا الى البر واتجهوا فـــور وصولهم الى القنصلية (الأمريكيـــة) .

يعاني القبطان باركر واثنان من رجاله ألما قويا من الحمى . وبعدما أخذ كل منهم حماما وحلق وغير ملابسه وتناولوا الطعام ، لجا كل واحد الى فراشه ليستريح . ان الرياح تهب فى الاتجاه الشمالي الشرقي قوية ، وقد حالت دون ترحيلهم اليوم . وقد شكى القبطان باركر من سوء المعاملة التي لقيها فى الأسر ، ومن رداءة نوع الطعام الذي قدم اليهم على السفينة الجزائرية بعد اطلاق سراحهم ، وذلك على الرغم من أن القنصلية قد قدمت أفضل ما يمكن من المأكولات وأن السفينـة قـد استؤجرت خصيصا لنقلهم .

ولما قدمت احتجاجا الى وزير البحرية على هذه الفضيحة رد علي بأنه صنع كل ما فى وسعه ليستجيب لرغبات القنصل ، وقال ان مال الفدية بل وحياة الرجال الذين يحملونه أنفسهم كانت معرضة للخطر ، وأنه قد تحتم الرضوخ لجشع ملاحي السفينة الذين يميلون الى القبائل لأنهم ينتمون الى نفس المنطقة ، وأضاف انه مادام الأمريكيون الآن فى أمن وعافية ، فهو ينصحه بأن ينسى كل هذه الصفقات الصغيرة . وقد فكر القنصل بأن هذا بالفعل هو الموقف الذي يفرضه الحذر والحصافة .

وصلت البارجة البريطانية « نايدا » وسكونة حربية فرنسية وسفينة هولندية ذات صاريتين قادمة من نابلي . جاء القبطان سبنسر لزيارة القنصل (الأمريكي) وتناول طعام العشاء معه وقبل النزول فى منزله خلال كل المدة التي يقضيها فى الجزائر .

سلم القبطان سبنسر نسخة من برقية وجهتها الحكومة البريطانية الى الداي والتي أوفد القبطان لحملها الى الجزائر . وفى هذه الوثيقة تصرح الحكومة البريطانية بأنها حليفة مملكة سردانيا وأنها الضامنة لهذه الدولة فى سلامها مع الجزائر . وكذلك تقترح بريطانيا أن تقوم بالوساطة فى قضية مطالب الجزائر المالية لسردانية ــ تلك المطالب التي يقوم بتحديدها مندوبون عن الطرفين فى اجتماع يعقد فى مالطة برئاسة المركيز دوهاستينج وتصرح الوثيقة بأن بريطانيا تحمي ، فى جميع الظروف ، مصالح حليفتها . ومع ذلك ، فان الوثيقة تمنح الجزائر مدة ثمان ساعات مهلة للتفكير فى مقترحاتها والرد عليها .

20 اكتوبر :

الجو معتدل وجميل . قصد القنصل هذا الصباح الى الميناء ومعه القبطان باركر وبحارته الذين سافروا على متن السفينة « أونطاريو » . وقد أقلعت السفينة على الساعة العاشرة صباحا فى اتجاه جبل طارق .

وجهت الى وزير الخارجية فى داخل مظروف الى القائد الأعلى للأسطول الأمريكي فى البحر الأبيض نسخة من هذه المذكرات ، من شهر مايـو الأخير حتى السابع عشر من الجاري ، وتحمل الرسالة رقم 82 .

تناول قائد السفينة الحربية الفرنسية الراسية فى الميناء طعام العشاء القبطان سبنسر فى هذه القنصلية .

28 اكتوبر :

لازم القنصل فراشه نتيجة لاصابته بالحمى خلال الفترة بين 23 و 27 من الشهر الجاري ، تسلم القبطان سنبسر ردامن الداي يوافق فيه بدون تحفظ على مطالب الحكومة البريطانية ، وقد سافر يوم 23 أكتوبر . وبهذا أصبح سلام سردانية مضمونا مع الجزائر ، على الأقل فى الوقت الحاضر. وفى نفس اليوم ، وصلت سفينة تحمل علم روما ، قادمة من أنكونة (9) غنمها الأسطول الجزائري . ولما وجد أنها ذات قيمة ضئيلة سلمت الى القائم بأعمال القنصلية البريطانية ، وأقلعت يوم الرابع والعشرين . وفى نفس اليوم وصلت أخبار ثورة جديدة فى منطقة بجاية ضد الحكومة . فقد قام « القبائل » من سكان المنطقة بهجوم على القائد ونهبوه وسلبوه وقتلوه . ونظرا لرغبة القنصل (الأمريكي) فى عدم الدخول فى مناقشات جديدة مع الحكومة فى الموضوع ، ولسخطه على القبائل بصفة عامة ، بسبب معاملتهم القاسية لمواطنيه الذين غرقت سفينتهم ، فقد أمر الخادمين الذين لا يزالان فى خدمته (وهما من القبائل) بترك الخدمة والعـودة الى بلادهم .

وفى يوم 26 من الشهر ، وصلت سفينة فرنسية قادمة من مرسيليا وبهذه المناسبة ، تلقى القنصل رسائل من مرسيليا وأعدادا من الصحف

---

9 ـ ميناء ايطالي يقع على بحر الادرياتيك ذات تاريخ حافل احتلها الفرنسيون فى غضون الفترة بين 1832 ـ 1838 لمواجهة النمسا ، وهي الآن مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن 106100 نسمة .

الفرنسية والأمريكية . وكذلك تلقى رسائل من الوزير الأمريكي المفوض في لندن تفيد بوصول الرسائل التي وجهت اليه في 18 مايو ، وفي 26 يوليو ، وفي 20 و 22 أغسطس الأخير .

تقوم هذه الحكومة باعتقال أبناء القبائل الذين تحاربهم وتسخرهم للأشغال الشاقة . عاد الخادمان اللذان استغنى عنهم القنصل يوم 24 من الشهر الجاري ، وادعيا أنهما لم يتمكنا من الفرار ، حيث ان جميع الطرق تراقبها قوات عسكرية من « السبايس » . وفي هذه الظروف رأى القنصل انه مما لا يتفق مع الكرامة الأمريكية أن يرغمهم على الرحيل .

9 نوفمبر :

وصلت سفينة حربية ذات صاريتين قادمة من ميناء ماهون .

10 نوفمبر :

أبلغ القنصل الهولندي القنصل (الأمريكي) نص رد ملك هولندا الى الداي . فان الملك يوصي الداي بمزيد من التفكير السلمي ، وهو يرفض المقترحات الجزائرية التي تقضي بدفع ضريبة في مقابل الحصول على السلام ، قائلا ان ذلك يتناقض وشرف عرشه ويتعارض مع مصالح بلده . وقد التزم الداي بأن يرد على هذه الرسالة يوم الغد .

11 نوفمبر :

ان ست قطع من الأسطول الجزائري تقوم الآن بجولة في عرض البحر ، ولذلك ، فهم يحاولون كسب الوقت . وقد وردت أخبار تقول ان الداي مريض وانه مقعد عن العمل وقد اقترح وزيره أن يرد على ملك هولندا بالنيابة عنه ، وهو يلح على أن يجري مقابلة مع الأميرال الهولندي قبل اتخاذ قرار في موضوع خطير مثل هذا . وقد رد قنصل هولندا قائلا ان أوامره قاطعة في هذا الموضوع ، وأنه اذا لم توافق الحكومة الجزائرية على تجديد معاهدة السلام القديمة ، فعليه أن يبحر ليعود الى بلده فورا ،

وأن هذه الخطوة ستنجم عنها الحرب حتما . وقد أجل القرار النهائي فى هذه القضية المهمة حتى يوم الغد على الساعة العاشرة صباحا .

12 نوفمبر :

جـاء السيـد فريســن قنصــل هــولنــدا صبـاح اليــوم الى القنصلية الأمريكية برفقة أسرته ومعه امتعته ، وهو يستعد للرحيل ، لأنه يعتقد أن الداي سوف يصر على وجهة نظره العدائية . ولكن الجميع فوجيء مفاجأة سارة حينما اقترب منه المترجم الرسمي ، وهو فى طريقه ، قاده الى القصبة ، حيث توصل الطرفان الى حل وسط يقضي باستمرار معاهدة السلام بنفس الشروط التي تنص عليها المعاهدة ، وطبقا لاقتراحات جلالة ملك هولندا .

ان هذه المفاوضات تشرف الحكومة الهولندية ووكلاءها الذين قاموا بها . فان أسلوب رسالة ملك هولندا وما أبداه من الحزم يذكر كثيرا بالموقف الذي اتخذه رئيس الولايات المتحدة فى سنة 1816 فى ظروف مشابهة . وقد كان للموقف نفس النتيجة . ولكنه يجب أن نذكر أن أخبار الكارثةالتي لحقت بالجيوش العثمانية فى الشرق ، كان لها أثر كبير على المفاوضات مـع سردانيـا وهولندا . سافرت السفينة الحربية الهولندية مساء اليوم ، وهي تحمل أخبارا سارة بأن المفاوضات انتهت بصورة مشرفة لبلدها .

الملاحق

الملحـــق ا

الموازن والاكيال والنقود

يتكون الرطل الجزائري من أونس (1) (أوقية) ، وكل أوقية تنقسم الى ثمانية أقسام متساوية ، وكل قسم من الأقسام الثمانية ينقسم بدوره الى عشرين قسما . وبهذا الوزن تباع المعادن الثمينة ويجري تبادلها . وبه تباع أيضا اللؤلؤ ، والأحجار الكريمة ، والمسك ، والمرجان والشاي، والأفيون ، ومختلف أنواع العطور .

توجد ثلاثة أنواع من القنطار فى الجزائر : فالأول ، عبارة عن مائة رطل جزائري ، وهو ما يساوي 112 رطل انجليزي = 51 كيلو جرام . وجميع الأشياء التي توزن ، انما توزن بهذا القنطار ، باستثناء ما يلي :

والقنطار الثاني ، يزن 150 رطلا = 50 كيلو جرام . وبهذا القنطار يوزن القطن الخام .

والعسل ، والتين ، والعنب ، والتمر ، والزبدة ، والصابون تباع برطل يزن 27 أوقية ، أو 745 جرام . والحرير الخام يوزن برطل يتكون من 16 أوقية ، ولكنه يوجد وزن اضافي فى مقداره نصف أوقية لكل رطل . وهذه هي المادة الوحيدة المعروفة الخاضعة لهذه الاضافة .

---

1 – وحدة وزنية تساوي 30ر28 جراما .

يوجد مقياسان للطول في الجزائر . أحدهما يسمى « بيك » وينقسم الى ثمانية أقسام متساوية .

و « البيك » التركي الكبير يستعمل لبيع جميع الأقمشة المصنوعة من الصوف ، والقطن ، والكتان ، وذلك فيما عدا الأقمشة المصنوعة من الحرير والأقمشة المطرزة بالذهب والفضة . و « البيك » و 7/16 البيك يساوي ياردة انجليزية ، أو متر 31 سنتمتر .

وأما « البيك » الصغير ، العربي ، فيستعمل لبيع الموسلين ، والأشرطة الحريرية وأشرطة القطن والحبال المفتولة وخيوط الذهب والفضة . و « البيك » العربي و 10/1 يساوي يارده انجليزية واحدة .

وأما مكيال القمح ، والشعير ، والملح الخ . فيسمى « الصاع » . وثلاثة أرباع هذا المكيال تساوي «البوشل» الانجليزي أو 36 لترا 1/3.

ومكيال السوائل بالنسبة للزيت يسمى « القلة » . والقلة تساوي أربع جالونات انجليزية أو 18 لتر 1/6 .

وأنا لم أعرف قط ما اذا كان لدى الجزائريين متياس للمساحة الزراعية ، ولكنني أعتقد أنه لا يوجد عندهم مثل هذا المقياس .

وأساس النقود المعدنية الجزائرية هو « المصون » وهو عبارة عن قطعة صغيرة من الفضة تساوي ستون قطعة منها دولارا واحدا اسبانيا (2). و « المصون » ينقسم الى 29 « أسبيروس » ، وهو عبارة عن قطعة صغيرة من المعدن تشبه قطعا من الصفيح . والنقود المتداولة من الفضة هي « البيزيطة » التي تساوي 8 « مصون » ، « والبيزيطة » التي

---

2 – كان الدولار الاسباني يساوي 43و5 فرنك فرنسي .

تساوي 6 « مصون » ، و « البتكة » التي تساوي 24 « مصون » و « البوجو » الذي يساوي 28 « مصون » . وعملة الذهب الجزائرية هي « السكوين » الذي يساوي 108 « مصون» . ونصف « السكوين» و « المحبوب » الذي يساوي72 « مصون » و « الدبلون » و «الدولار» الاسباني كلاهما عملة متداولة هنا ، ولكن بسعر غير ثابت .

والجزائريون يمسكون الدفتـــر ويحسبون بالبزيطة التي تساوي 8 « مصون » . والقهوة تباع بسعر مقداره دولار وهمي يساوي 40 « مصون » للقنطار الواحد . وأما بيع المنازل وتأجيرها ، فيجري على أساس « سكوين » يساوي 72 « مصون » .



الملحـــق ب

المفاوضات بشأن تحريم الـــرق

مترجمة عن شول ، مختصر تاريخ معاهدات السلام

الجزء الحادي عشر ـ مؤتمر فينا

تعود بداية التجارة فى العبيد الى أوائل القرن السادس عشر . ويعود عار اكتشاف هذه التجارة الى البرتغاليين . ففي سنة 1513 ، أدخلـــوا العبيد الأوائل الذين اشتروهم أو سبوهم من افريقية الى المستعمرات الاسبانية فى أمريكا . فان بارثولمي لاس كازاس (Barthelemy las Casas) كان يرى فى هذه التجارة وسيلة للمحافظة على سكان الانتيل الأصليين من الانقراض ، فاقترح على الكردينال خيمينيس (Xemes) مباركة هذه التجارة وجعلها قانونية ، ولكن هذا القسيس رفض المشروع الذي صرح به شارل كينت فى سنة 1517 ، ومنح بريسا (Bressa) الذي كان يتمتع بالحظوة لديه ، احتكار هذه التجارة وسمح له بادخال 4000 عبد من الزنوج سنويا . وفى وقت لاحق تنازل عن هذا الاحتكار لجنوه .

وكذلك سمحت الملكة اليزابيت الأولى بالتجارة فى العبيد فى أنجلترا .

وأما فى فرنسا ، فان التجارة فى العبيد لم يسمح بها الا فى عهد لويس الثالث عشر (1) .

والسود يعيشون فى افريقية فى القسم الذي يمتد فى جنوب وشرق الصحراء الكبرى ، حتى درجة 22 عرض جنوبي . وقد بدأ الأروبيون يمارسون هذه التجارة فى عدة نقاط فى هذه المنطقة الغربية ، وفى مزنبيق ، فى المنطقة الشرقية أيضا . والدول التي يتردد مواطنوها على هذه المناطق للاشتراك فى هذه التجارة ، تفضل أماكن معينة فيها تقيم فيها منشئات لهذه الغاية . وهذه المنشئات هي التي تتلقى الآلاف من العبيد الذين يحملون من الداخل ــ العبيد الذين يجري تبادلهم بالخمر والحديد والأسلحة النارية الرديئة ، وغير ذلك من البضائع الزهيدة القيمة .

ويقال ان الأروبيين قد أخذوا فى غضون ثلاثة قرون نحو ثلاثين مليونا من سكان افريقية

كانت طائفة « كواكر » أول حركة تخلي أتباع عن العبيد الذين فى حوزتهم وحرروهم . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر ، وهم يبذلون الجهود لتحرير الاسترقاق ومنع التجارة فى العبيد السود .

وفى سنة 1772 ، اعتمدت أنجلترا بمبادرة من جرانفيل شارب (Grandville Shaeppe) اجراء كان معمولا به فى فرنسا منذ القرن السابع عشر يقضي بأنه متى وضع عبد رجله فى القارة الأروبية ، أصبح حرا بحكم الأمر الواقع .

ومنذ سنة 1780 ومسألة تحريم الرق كانت موضوعا رئيسيا للفلاسفة والمهتمين بالشؤون الاجتماعية ممن لهم الفضل فى قيام الثورة الفرنسية . وقد قام أحد أنصار حقوق الزنوج المتحمسون بانشاء جمعية تسمى

---

1 ــ ملك فرنسا (1601ــ1643) . بعد سنوات من الحروب والاضطرابات ، منح لويس الثالث عشر السلطة لريشليو الذي نظم دولته ، وقد ادخل فرنسا فى حرب الثلاثين سنة .

« المؤسسة الافريقية » وهدفها هو تحرير هذه الطبقة البائسة من أبناء البشر .

وأغلبية الدول الأمريكية قد حرمت التجارة فى العبيد . ولكن ولايات ماريلاند ، وفرجينيا وكرولينا ، وكلها تقع فى مناخ حار ، تـرى أنهـا لا تستطيع الاستغناء عن العبيد ، فى زراعة الطباق والارز .

ومصير العبيد فى المستعمرات البريطانية قد تحسن بفضل القانـون الذي يعرف باسم « قانون العبيد المدعم »
الذي اعتمد فى سنة 1784 ، الذي يسمح للعبد بكسب صغير مستقل .

ومنذ ذلك التاريخ ، دافع ويلبرفورس (Wilberforce) دفاعا حارا فى البرلمان الانجليزي عن قضية العبيد . وفى سنة 1788 ، تحدث جيوم بيت (G. Pitt) كثيرا فى صالح العبيد فى مجلس العموم البريطاني . ولكنه وجد معارضة قوية من تجار ليفربول ومن تجار بريسطول الذين ذهـب ممثلوهم الى أنه لكي يمكن الاحتفاظ بـ 410000 عبدا فى المستعمرات البريطانية يقتضي الأمر ادخال 000 10 عبد جديد سنويا اليها ، وأن الأنجليز يقومون بشراء 000 30 عبد من افريقيا سنويـا ويتنازلون على 000 20 منهم لبلدان أروبية أخرى ، وان شراء 000 30 عبد سنويا معناه تصدير ما قيمته 000 800 جنيه سترليني من المنتجات الانجليزية المصنوعة (التي تدفع فى مقابل العبيد) ، وأن هذه التجارة تتيح لبريطانيا ربحا سنويا قدره 000 400ر1 جنيه سترليني ، وأخيرا ، فان الضرائب على العبيد تضمن دخلا للخزينة قدره 000 256 جنيـه سنويـا .

وعلى الرغم من أن هذه المحاولات لم تكن مجديـة ، فـان أعـداء الاسترقاق لهم يهنوا ، ولم يثبط الفشل عزائمهم . فان ويلبرفورس استمر يثير قضية العبيد الأفارقة فى كل دورة للبرلمان . وقد أدى حماس وبلاغة فوكس (الى اعتماد مجلس العموم فى سنة 1792 مشروع قانون

يقضي بتحريم التجارة فى الرقيق السود بأغلبية 19 صوتا ، ولكن مجلس اللوردات رفض مشروع القانون . وهذا ما حدث أيضا لمشروع القانون الذي تقدمَ به ويلبرفورس واعتمده مجلس العموم فى سنة 1794 ، والذي يحرم التجارة فى العبيد السود . وقد أيده بيت تأييدا ضعيفا ولكن مجلس اللوردات رفضه .

لقد أصبح من السهل الآن أن يتوقع المرء أن تنتصر قضية العبيد فى نهاية الأمر . فان المناقشات التي دامت 18 سنة فى البرلمان قد هيأت نفوس الجمهور لهذا التطور ، ولكن لدى ملاك الضياع من الوقت ما يكفي لاتخاذ احتياطاتهم .

وفى سنة 1806 ، ساد الاعتقاد بأن الوقت قد حان لارتفاع كلمة الدعاة لتحريم التجارة فى الرقيق ، وذلك بدون كثير من المضايقات .

وفى 10 يونيو من نفس السنة أصدر مجلس العموم قانونا يقوم على مبدا الغاء العبودية ، ولكن الاجراء النهائي لم يتخذ الا فى 6 فبراير 1807.

وقد حدد أول يناير 1808 لدخول القانون فى حيز التنفيذ ومنع التجارة فى الرقيق قانونيا . وقد تعزز هذا القانون فى شهر مايو 1811 بانزال عقوبات بالأشخاص الذين خالفوه .

وانه لما لا يخلو من مغزى كبير، أن نرى أنه عقب تحريم البرلمان تجارة الرقيق مباشرة ، ترجى الملك بأن يدخل فى مفاوضات مع الدول الأخرى لكي تتخذ اجراءات مماثلة . ومثل هذا المسعى يدعو الى الدهشة من دولة غيورة على استقلالها ، وبالتالي ، لابد وأن تجد أن من واجبها احترام استقلال غيرها من الدول ، ولا سيما اذا تذكرنا قلة اكتراثها بما يجري فى بلدان أخرى .

وهذا المسعى تكرر بعد ذلك ، وفى أول مايو 1814 ، حين أصدر مجلس الوزراء البريطاني نداء الى الدول الأخرى يطالبها بالغاء التجارة فى الرقيق الأسود .

وقد وردت اشارة فيه الى حقول الانسانية المقدسة والى التعاليم المسيحية ، ولم ينس أن ينوه بنبل بريطانيا .

ونحن نريد أن نعتقد أن الأجيال القادمة سوف تردد هذا الثناء ، حينما يلغى نظام البحرية الاجبارية ، وحينما يروض البحريون الانجليز القرصنة التي تمارسها بلاد البربر ، وحينما تجد صداها الأصوات التي ترتفع فى البرلمان البريطاني ضد مضطهدي الهنود الحمر .

ومع ذلك ، فان الشرف الأول فى تحريم التجارة فى الرقيق لا يعود الى بريطانيا . فان الدانمارك قد سبقتها باتخاذ اجراء لهذه الغاية فى سنة 1794 . فان هذه الحكومة ، على الرغم مما تتسم به من الاستبداد ، قد حددت مهلة عشر سنوات لاصحاب الضياع ممن يحملون جنسيتها لكي يستعدوا لتحريم الرق . وفى سنة 1804 ، حرم الرق فى جميع الممتلكات الدانماركيـــة .

ولكن الصحف لم تشر الى هذا الاجراء الذي ينطوي على كثير من الحكمة والسداد الا بكلمات قليلة . والملك كرستين السابع لم يقدم اعلاما رسميا بهذا الاجراء لأية حكومة .

وقد كانت النتيجة الأولى التي حققتها المساعي البريطانية من أجل تحريم التجارة فى الرقيق ، هي معاهدة ريو دوجنيرو التي تتضمن عشرة بنود ، والتي التزمت البرتغال بموجبها بأن تساند بريطانيا فى دفاعها عن قضية الانسانية والعدالة بأن تتخذ اجراءات أكثر فعالية بأن تحرم تدريجيا التجارة فى الرقيق فى جميع مستعمراتها على الشواطيء الافريقية .

ولكنه يجب أن نلاحظ أن هذا التعهد لا يكلف ملك البرتغال الا قليلا ، حيث أن المستعمرات البرتغالية فى افريقية السوداء تشكل أهم أسواق النخاسـة .

وبعد البرتغال ، كانت السويد الدولة الأولى التي اقنعتها بريطانيا بالالتزام باخاذ اجراء التحريم « الذي توصي به الأخلاق والانجيل » .

وكذلك وعد بلاط السويد بموجب مادة خاصة فى معاهدة التحالف التي عقدتها مع أنجلترا فى 3 مارس 1813 ، بأن تمنع ادخال العبيد الى مستعمرة « جوادلوب » ، التي تنازلت لها عنها بريطانيا بموجب مادة فى هذه المعاهدة ، والى مستعمراتها الأخرى ، وأن يحرم على الرعايا السويديين الاشتغال من قريب أو من بعيد بتجارة الرقيق الأسود .

وبموجب المادة 8 من معاهدة السلام التي عقدت فى كييل ، تعهد ملك الدانمارك ، الذي كان والده قد حرم فى سنة 1894 التجارة فى الرقيق فى جميع الممتلكات الدانماركية ، بأن يحرم على رعاياه الاشتغال بتجارة الرقيق بأية صورة كانت .

والمعروف أن فرنسا لم تكن قد رخصت بالتجارة فى الرقيق الا بعد اسبانيا وأنجلترا بوقت طويل . ولكن هذا البلد ظل دائما متمسكا بمبدا ، وهو أن أي عبد يدخل الى البلاد الأروبية ، يصبح حرا بحكم الواقع . وهذا المبدأ لم تعتمده أنجلترا ، كما أشرنا ، الا فى سنة 1772 ، بفضل جهود جراندفيل شارب .

كانت حرية العبيد الموضوع المفضل للخطب والتأليف لكتاب الثورة الفرنسية. والميثاق الوطني(La Convention Nationale) الذي سقطت بموجب أحكامه رؤوس عديدة وداس على الأخلاق والدين ، هو الذي نص على

تحريم التجارة فى الرقيق . ولكن هذا الاجراء نجمت عنه كوارث وفضائع، سنخرج عن موضوعنا لو تعرضنا للحديث عنها .

وبمجرد عودة لويس الثالث عشر الى عرش أجداده ، قامت بريطانيا بمسعى لديه من أجل تحريم التجارة فى الرقيق الأسود . وكذلك اقتضت رعاية هذا الملك لشعبه ومباديء الانسانية ، موافقته على منع الأجانب من بيع العبيد فى المستعمرات الفرنسية ، ولا يسمح به للفرنسيين الا مؤقتا ولمدة أقصاها سنة 1819 ، وذلك حتى يتيح الوقت لاصحاب الضياع لاعداد أنفسهم للعهد الجديد .

بل ان ملك فرنسا وعد فى المؤتمر بأن يوحد فيما بعد جهوده بجهود بريطانيا للوصول الى تحريم عام للتجارة فى الرقيق الأسود . ذلك هو التعهد الذي قطعه على نفسه ملك فرنسا بموجب المادة الأولى من المواد الاضافية فى الاتفاقية التي وقعتها فى 30 مايو 1814 .

وقبل أن يغادر اللورد كاستلريو (Castelreagh) باريس بعث بنص هذه المادة الى وزير خارجية النمسا وبروسيا وروسيا ، والى الدول التي ليس لها مستعمرات ، كما طلب اليهم جميعا التعاون من أجل تحريم التجارة فى الريق الأسود (وهي تجارة مضادة للطبيعة وللانسانية) . وهؤلاء جميعا وعدوا بتأييد المقترحات التي تتعلق بتحريم التجارة فى الرقيق ، فى المؤتمر القادم .

وأما ملك الأراضي الواطئة ، فقد ذهب الى أبعد من ذلك ، فان المرسوم الذي أصدره فى 15 يونيو 1815 ، يأمر بمنع خروج أية سفينة حربية من أي ميناء هولندي لحماية سفينة تجارية تعمل فى التجارة فى العبيد الذين تنقلهم من شواطيء افريقية أو من جزيرة فى مقابل هذه الشواطيء سواء أكانت تتجه الى القارة الأروبية أو الى أمريكا . وكذلك ينص المرسوم على أنه لا يمكن لسفينة مجهزة أو معدة للتجارة فى الرقيق أن

ترسو فى موانيء غينيا الجديدة ، كما يحرم تصدير أي واحد من سكان هذه المنطقة بوصفه عبدا . وهذا المرسوم لا يحرم دخول العبيد الى المستعمرات الهولندية ، لأن هذه الجزر كانت حينما نشر ، تحت السلطة البريطانيـة .

ولما تعهدت بريطانيا بموجب اتفاقية 30 أغسطس باعادة هذه المستعمرات الى هولندا ، حرم الملك على رعاياه الاشتغال بأية صفة من الصفـات بالتجارة فى الرقيق .

وبعد معاهدة الصلح التي وقعت فى باريس ، تقدم اللورد كاستلريق بمقترحات جديدة الى الحكومة الفرنسية ، تستهدف الحصول على أكثر مما وعدت به الأخيرة بموجب المادة عدد العبيد المسموح به الى مستعمراتها لا يتجاوز الضروري للضياع الموجودة حاليا دون أن يؤذن للفرنسيين باستخدام العبيد فى ضياع جديدة .

كان الوزير البريطاني يرغب ، خصوصا ، فى منع انتعاش تجارة الرقيق على شواطيء افريقية الغربية الواقعة شمال خط الاستواء . وكذلك طالب بمنح ترخيص للأسطول البريطاني الذي يعمل فى المنطقة بأن يستولي على أية سفينة فرنسية تنقل على متنها عبيدا فى نطاق الحدود التي يتفق الطرفان على تحريم التجارة فى الرقيق فيها .

وفى 5 من أغسطس ، كتب الوصي على عرش أنجلترا رسالة بخط يده الى ملك فرنسا ، يقترح فيها أن يتخذ الطرفان اجراءات مشتركة لتحريم التجارة فى الرقيق ـ تلك التجارة المتناقضة مع الانسانية ـ تحريمـا شامـلا .

وقد رد الملك لويس الثامن عشر على هذه الرسالة برسالة أخرى بتاريخ 2 سبتمبر ، يطالب فيها باباحة التجارة فى الرقيق لمدة خمس سنوات فقط ، مع وضع قيود تدريجية على هذه التجارة .

كان اللورد ولينجطون ، سفير أنجلترا فى باريس آنئذ ، قد تلقى تعليمات بأن يقترح على الحكومة الفرنسية (بالاضافة الى اقتراحات الوصي على العرش ، مقاطعة منتجات المستعمرات التابعة للدول التي ترفض تحريم التجارة فى الرقيق . وكذلك قدمت اقتراحات جديدة الى فرنسا فى شهر سبتمبر ، تعرض بريطانيا بمقتضاها تقديم مبلغ من المال لذلك البلد لكي يستخدمه للتعويض للافراد من رعاياه الذين يتضررون من اجراءات تحريم التجارة فى الرقيق والغاء العبودية ، أو ان شاء ، تتنازل له بريطانيا عن جزيرة من جزر الهند العربية .

ولكن الحكومة الفرنسية رفضت الاقتراحين ، وأرجأت مناقشة القضية لتحول الى مؤتمر فينا .

ومع ذلك ، فان هذه الحكومة أصدرت منشورا بتاريخ 8 أكتوبر ، يقضي بوضع قيود على التجارة فى الرقيق فى المناطق الواقعة جنوب رأس فورموز ، على ساحل افريقية الغربية .

وفى 5 يونيو 1814 عقدت فى مدريد معاهدة بين اسبانيا وبريطانيا ، بذل مندوب بريطانيا فى المفاوضات التي أسفرت عنها ، وهو سير هنري ويلسلي (H. Wollesley) جهدا كبيرا لكي تتضمن بندا يتعهد ملك اسبانيا بموجبه بأن يحرم استيراد العبيد الى المستعمرات الاسبانية ، ويتخذ اجراءات تمنع رعاياه الأسبان من الاشتراك بأية طريقة فى التجارة فى الرقيق الأسود .

وبهذه المناسبة ، لاحظ الدوق سان كارلوس (San Carlos) وزير خارجية فرديناند السابع للسير هنري ، أنه حينما حرمت أنجلترا التجارة فى الرقيق ، كانت نسبة العبيد بالقياس الى السكان البيض فى المستعمرات الانجليزية هي نسبة 20 الى 1 — وأن البرلمان البريطاني ظل يبحث موضوع تحريم التجارة فى الرقيق مدة نحو عشرين سنة . وقال انه على

عكس ما كانت عليه الحال فى المستعمرات الانجليزية ، فان نسبة العبيد الى البيض من سكان المستعمرات الأسبانية متساوية . وقد استنتج الوزير الاسباني مما تقدم ، أنه لا يمكن مطالبة اسبانيا باتخاذ قرار فجأة قد يؤدي الى تعريض المستعمرات الاسبانية للخطر .

وهكذا ، فان كل ما أمكن لبريطانيا الحصول عليه من اسبانيا ، هو مادة مستقلة يتعهد ملك اسبانيا بموجبها بتحريم التجارة فى الرقيق على رعاياه ، متى كان هدف هذه التجارة تزويد مستعمرات أخرى غير المستعمرات الأسبانية بالعبيد ، وبمنع الأجانب من استخدام العلم الأسباني للتجارة فى الرقيق تهربا من العقاب .

وبعد توقيع المعاهدة ، واصل سير هنري ولسلي المفاوضات مع بلاط مدريد ، على أمل الحصول على ترضيات جديدة من ملك اسبانيا . ولهذه الغاية عرض مساعدة مالية بريطانية ، كانت حالة اسبانيا المالية فى أشد الحاجة اليها .

وفى 22 أكتوبر 1814 ، عرض بلاط مدريد استعداده لوضع قيود على التجارة فى الرقيق يمتد مفعولها لمدة ثمان سنوات فى البلدان التي تقع بين خط الاستواء ودرجة 10 عرض شمالي ، وبعد هذه الفترة تحرم التجارة فى الرقيق تحريما شاملا .

وهذا الاقتراح رفضته الحكومة البريطانية ، لأن المنطقة المقترحة تشمل منطقة توقفت تجارة الرقيق فيها منذ وقت طويل . وهكذا ، فان مفاوضات مدريد لم تسفر على نتيجة أخرى .

وأما المفاوضات التي دخل فيها اللورد كاستلريق مع البرتغال فى فينا ، فانها لم تسفر على نتيجة أفضل . وقد كان من نتائجها توقيع اتفاقيتين بين هذه الدولة وبريطانيا ، وقعت احداهما بتاريخ 21 ، والأخرى بتاريخ 22

يناير 1815 . وبموجب الاتفاقية الأولى ، قدمت بريطانيا الترضيات التي طالبت بها البرتغال فيما يتعلق بالسفن البرتغالية التي استولى عليها الأسطول البريطاني ، بينما كانت تشتغل في تجارة الرقيق التي أدعى الطرف البريطاني انها محرمة بموجب اتفاقية ريودجانيرو المعقودة بتاريخ 9 فبراير 1810 . وقد دفعت بريطانيا للوصي على عرش البرتغال مبلغ 300 000 جنيه استرليني للتعويض له عن الخسائر التي تعرضت لها مصالحه من جراء الاستيلاء على سفنه بطريقة تكاد تكون قهرية .

وأما الاتفاقية الثانية التي عقدت في اليوم التالي ، فهي تتضمن خصوصا، البنود التالية :

المادة الأولى : منع كل مواطن برتغالي منعا باتا من ممارسة التجارة في الرقيق في أية منطقة من مناطق افريقية الغربية الواقعة في شمال خط الاستواء .

المادة الثانية : لا تتعرض للعقاب السفن البرتغالية التي تعمل في التجارة في الرقيق في جنوب خط الاستواء بشرط أن تحصل على اذن بموجب القوانين البرتغالية وتحترم نصوص المعاهدة التي يرتبط بها التاجان .

المادة الرابعة : بالنظر الى أن معاهدة ريو دوجانيرو التي عقدت في 9 فبراير 1810 ، قد تم التوقيع عليها في ظروف وقتية لم تعد قائمة ، فهي أصبحت لاغية ، وذلك بدون مساس بالمعاهدات السابقة لها والتي جددت وأكدت . والأطراف المتعاقدة تحتفظ لنفسها بحق تحديد الوقت الذي تحرم فيه التجارة في الرقيق تحريما باتا في جميع الأراضي البرتغالية، وذلك بمعاهدة خاصة .

وكذلك تنازلت بريطانيا عن الحق الذي تخولها اياه المادة 8 من معاهدة ريودوجانيرو ، بأن يدخل أسطولها الحربي ، بأي عدد من السفن ،

الى الموانيء البرتغالية ، وأخضعت نفسها من جديد لأحكام المعاهدة القديمة التي تحدد عدد السفن بست فقط .

وبموجب المادة الخامسة ، تنازلت بريطانيا عن القرض المستحق لها على البرتغال والذي تبلغ قيمته 000 600 جنيه سترليني ، والذي تم التعاقد بشأنه فى لندن ، فى 60 أبريل 1809 .

وفى مؤتمر اشتركت فيه 8 دول أروبية عقد ابتداء من 16 يناير 1815 اقتراح اللورد كاستلريق ، تشكيل لجنة خاصة تكون مهمتها توفير الوسائل الضرورية لتحريم التجارة فى الرقيق ، .

وقد عارضت اسبانيا والبرتغال هذا المشروع بحجة أن جميع الدول متفقة على مبدا تحريم الرق وأن تنفيذ هذا المبدا انما يعني الدول التي تملك المستعمرات . ولكن النمسا ، وبروسيا ، وروسيا ، والسويد لاحظت أن تدخل الدول التي لا يهمها الموضوع بصفة مباشرة ، أمر من شأنه أن يكون مفيدا للتوفيق بين الآراء . على أن الأمر انتهى برفض مشروع اللجنة ، ولو أن مندوبي الدول الثمانية ، خصصت أربع جلسات لبحث هذا الموضوع وحده .

وفى هذه المباحثات ، تقدم المفاوض البريطاني بثلاث مقترحات : أولا ، انه ينبغي على جميع الدول أن تعلق موافقتها على مبدا تحريم التجارة فى الرقيق ، وتبين بوضوح رغبتها بتحقيق هذه الغاية فى أقرب وقت ممكن . وثانيا : ينبغي النظر فى امكان تحريم التجارة فى الرقيق فى الحال ، أو على الأقل ، فى امكان اعلان كل دولة أجلا قريبا لتحريم الرق نهائيا . وثالثا : النظر فى الوسائل التي تسمح بتحريم التجارة فى الرقيق جزئيا وفى الحال .

فأما الاقتراح الأول ، فلم يواجه أية صعوبة ، وقد وافق مندوبو الدول ، بناء على اقتراح مندوبي اسبانيا والبرتغال ، على ادراجه فى

تصريح بشأن تحريم التجارة في الرقيق . ولكن مندوبي فرنسا رفضوا تخفيض مدة خمس سنوات التي وافق عليها لويس الثامن عشر ، الى ثلاث سنوات . وقد اكتفوا بالوعد بأن تتخذ اجراءات في غضون هذه الفترة لتقييد التجارة في الرقيق ، وللتعجيل لحظة تحريمه نهائيا بقدر الامكان .

وقد صرح مندوبو اسبانيا والبرتغال بأن التعليمات التي يحملونها تمنعهم صراحة من التنازل عن أي شيء بشأن مدة ثمان سنوات . وأضاف مندوب البرتغال أن حكومته تطالب ، بوصفه شرطا لتحريم تجارة الرقيق نهائيا ، بأن توافق بريطانيا من جهتها على ادخال بعض التعديلات في نظام التبادل التجاري بين البلدين . والتعديلات المقترحة تتعلق بنصوص المعاهدة التجارية التي عقدت في 19 فبراير 1810 .

والاقتراح الثالث الذي تقدم به اللورد كاستلريق تستهدف تحريم التجارة في الرقيق في الحال، في المنطقة التي تقع في شمال خط الاستواء . وقد صرح في هذا السياق بأن انجلترا كانت تملك في غضون الحرب الأخير جميع المؤسسات الأروبية التي تقع على شواطيء افريقية العربية التي تمتد في شمال خط الاستواء ، وأنه كان من نتائج تحريمها التجارة في الرقيق ، أن سجلت الزراعة والصناعة تقدما كبيرا بحيث أن قيمة المنتجات المصدرة التي كانت لا تتجاوز 000 80 جنيه سترليني قد ارتفعت لتبلغ مليون جنيه سترليني .

وقد جرت مناقشة هذه النطقة في الجلسة التي عقدت في 28 فبراير ، حينما وافقت عليها البرتغال رسميا . وأما وزيرا فرنسيا واسبانيا ، فقد كان كل منهما وفيا للالتزامات التي قطعها بلاط بلده ، بشأن تحريم التجارة في الرقيق جزئيا . وقد صرح كل منهما بأن التعليمات التي يحملها لا تسمح له بأن يتجاوز هذا الحد .

وبعد مناقشة هذه المقترحات مناقشة وافية ، اقترح اللورد كاستلريق بأن يعالج وزراء الدول الثمانية المأذون لهم فى باريس وفى لندن ، هم وغيرهم من وزراء الدول التي تريد الانضمام اليهم ، مجتمعين المسائل التي تتعلق بتحريم فى الرقيق تحريما باتا .

ولكن وزير اسبانيا عارض هذا الاقتراح رسميا ، وصرح بأنه يرى أنه غير ملائم وغير مفيد . وأما وزيرا فرنسا واسبانيا ، فقد اقترح كل منهما تأجيل النظر فيه الى فترة أخرى .

وكذلك توقف الأمر عند هذا الحد . ولكن اقتراحا آخر تقدم به مندوب بريطانيا تلقى استقبالا أسوأ . فقد اقتــرح أن تصرح الدول المساهمة فى المؤتمر بأنه اذا استمرت بعض الدول تمارس التجارة فى الرقيق بعد مدة معينة تبررها اعتبارات الضرورة ، فانها ستتخذ اجراءات لمنع استيراد منتجات مستعمرات تلك الدول الى بلادها ، ولا تسمـح بالاستيراد الا من مستعمرات البلدان التي لا تتحمل هذه التجارة ، أو من مناطق أخرى فى العالم يقوم سكانها بانتاج تلك المنتجات بأنفسهم . والمعروف أن المناطق المشار اليها تتكــون خصوصا ، من الممتلكات البريطانية فى الهند الشرقية . ومن ثم فان مصالح بريطانيا ، تتفق وتتطابق جيدا مع مبادىء الانسانية والتعاليم الدينية ، ولكنه امتنع عن ذكرها باسمها فى هذه المفاوضات . وستصبح أروبا فى مركــز التبعية لهـذه المناطق ، حينما تصبح مستعمراتها فى امريكا غير منتجة تماما ، بسبب النقص فى اليد العاملة . وقد صرح وزير اسبانيا ووزير البرتغال بأن اعتماد مثل هذا النظام سوف يبرر اتخاذ اجراءات انتقامية من طرف الدول التي يطبق ضدها ، وأن الدولة المتضررة ستكون مضطرة لاصدار قوانين ضد أفيد فروع تجارة الدولة التي تطبق ذلك النظام .

وأما المفاوضون الآخرون ، فقد اعتبروا مثل هذا الاجراء لا ينطوي على أي عمل عدائي ، ويمكن اعتماده .

وقد اسفرت هذه المفاوضات عن التصريح الذي وقعته الدول الثمانية بتاريخ 8 فبراير 1815 • وبهذه الوثيقة التي تتسم بالحكمة والاعتدال ، صادقت هذه الدول على المبدا الذي تضمنته المادة الأولى من معاهدة باريس التي عقدت بين فرنسا وبريطانيا . وقد أبدت رغبـة صادقة فى التعاون لاتخاذ اجراءات سريعة وفعالة تستهدف تحريم التجارة فى الرقيق الأسود . ومع ذلك ، فان الدول الأطراف فى الاتفـاق تعترف بأنها لا تستطيع تحديد الأجل الملائم الذي يترك الحق فيه لكل دولة لتحريم التجارة فى الرقيق نهائيا • وتبعا لذلك ، فان تحديد الفترة التي تحرم فيها هذه التجارة نهائيا سيكون موضوعا لمفاوضات أخرى بين هـذه الدول •



مناقشة المؤتمر لحقوق نظام فرسان مالطة الديني

ثارت مسألة فى المؤتمر نتيجة لدعوى نظام مالطة الديني (1) وهي تتعلق بالاجراءات التي ينبغي اتخاذها لوضع حد للقرصنة التي تمارسها الدول البربرية . ووزراء بريطانيا الذين كانوا يلحون فى مؤتمر الملوك على حقوق الانسانية فى سياق الدفاع عن تحريـم التجارة فى العبيد السود على شواطيء افريقية الغربية ، لم يبدو أي اكتراث بهذا النوع من الاسترقاق الذي يمارسه سكان شواطيء افريقية الشمالية فى البحر الأبيض ، بل وفى المحيط الأطلسي ، وينزلون بذلك الشقاء بالانسانية بقدر ما يلطخون أوروبا بوصمة العار . صحيح أن بريطانيا تملك الوسائل الضرورية لعقابهم على اعتداءاتهم . واهانتهم لعلمها ، وانه ليس من مصلحة بريطانيا اتخاذ اجراءات لضمان سلامة التجارة التي تقوم بها دول أخرى فى البحر الأبيض المتوسط .

---

1 ـ نظام ديني عسكري انبثق عن تعاليم القديس يوحنا واسس فى القدس فى سنة 1099 . وبعد هزيمة الصليبيين ، التجأ الى جزيرة رودس فى سنة 1308 م ، ثم الى جزيرة مالطة ، فى سنة 1518 وظل فيها حتى سنة 1798 م ، حين انتقل الى روما واستقر فيها ، وقد وضع له دستور جديد فى سنة 1961 ، ونظام فرسان مالطة له فروع كثيرة .

الملحـــق ج

من المفاوضين الأمريكيين الى داي الجزائر

يتشرف الموقعون أدناه أن يبلغوا سمـو داي الجـزائر أن رئيس الولايات المتحدة قد عينهم للتفاوض معه فى شؤون السلم ، وأنهم ، طبقا للتعليمات التي يحملونها ، فهم مستعدون للدخول فى مفاوضات على أسس عادلة ومشرفة لاستعادة السلام والتفاهم والوئام بين البلدين . وهم يعتقدون أن من واجبهم أن يقرروا صراحة لسموه بأنهم لا يملكون صلاحيات للتفاوض معه الا على أساس من المساواة التامة ، وبنفس الشروط التي تعاقدت بها الدول الأكثر رعاية ، وأنهم لن يوافقوا على أية مادة تنص على دفع ضريبة للجزائر بأي شكل من الأشكال .

يتشرف الموقعون أدناه أن يرفقوا بهذه المذكرة ، رسالة من رئيس الولايات المتحدة ، وأن يغتنموا هذه الفرصة لتجديد تقديرهم الفائق واحترامهم لسمو الداي .

التوقيع : شالر ستيفان ديكاتور

على متن البارجة « لاجيريير »

29 يونيو 1815

من جيمس ماديصون رئيس الولايات المتحدة الى سمو داي الجزائر

لقد أعلن سموكم الحرب على الولايات المتحدة واستبعد عددا من رعايا هذا البلد ، كما ألحق به عدة اهانات لغير سبب موجب لذلك . ان الكونجرس الأمريكي قد أذن فى دورته الأخيرة بقرار خطير الشأن بالقيام بأعمال العدوان ضد حكومتكم ، وقد وجه أسطولا يتكون من سفننا الحربية الى البحـر الأبيض المتوسط لكي يقـوم بتنفيذ هذا التصميم . وهذا الأسطول سيحمل معه بديلا عن الحرب ، وهو السلام : والخيار فى يدكم . ونحن نود أن تعتقد أن سموه سيقارن ويلات الحرب بفوائد السلام والتفاهم مع دولة تزداد قوتها يوما بعد يوم ، ويعود الى ميوله نحو العلاقات الودية التي كانت قائمة مدة طويلة بين الشعبين ، وبذلك يتفق مع وجهة نظر هذه الحكومة التي لا تريد سوى السلام والصداقة مع جميع الأمم . ولكن السلام ، لكي يكون دائما ، يجب أن يقوم على أساس نصوص مفيدة لكل من الطرفين ، بحيث لا يطالب أحدهما بأكثر مما هو مستعد لمنحه للآخر . وهذا وحده هو الأساس الذي يمكننا أن نرغب عليه فى السلام .

لقد فوضت وليـام شالر ، أحد مواطنينا الممتازين ، والكمودور بينبريدج والكمودور ديكاتور ، لعقد الصلح مع سموكم ، وسيسلمون اليكم هذه الرسالة .

انني أبعث اليكم بهذه الرسالة مدفوعا برغبة صادقة فى أن يغتنم سموكم هذه الفرصة المشرفة لتفضيل السلام على الحرب .

حرر فى واشنطون فى 12 أبريل 1815

التوقيع جيمس ماديصون

الرئيـــس

جيمس مونرو

وزير الخارجية

الملحـــق د

رسالة داي الجزائر الى رئيس الولايات المتحدة

باسم الله وعونه وتحت حكم سيدنا ملجأ العالم ، السلطان القوي العظيم والذي يفضل فى جميع القضايا ، أعظم الرجال قاطبة وظل الله فى الأرض المسير للنظام ، ملك الملوك ، سيد البر ومنافس الاسكندر الكبير ، ملك قوة لا تقهر ، خاقان العالمين والبحار ، ملك العرب والعجم ، امبراطور وابن امبراطور الغازي محمود خان (ليكن ملكه رخاء ومجده أبديا عندما ينتقل الى جوار الله) ، (من) خادمه المتواضع المطيع حاكم الجزائر ومدينة الجزائر الذي يخضع الى الأبد لأوامر عرش جلالة الامبراطور ، عمر باشا (ليكن عهده عهد رخاء وسعادة) .

الى جلالة امبراطور أمريكا ، سيد الشواطيء والولايات المجاورة وجميع المناطق التي يمارس عليها سلطانه ، صديقنا النبيل ، سند ملوك شعوب المسيح وعمدة جميع ملوك المسيحية ، أمجد الأمراء الذي اختير من بين الأقيال الأمجاد السعيد العظيم ، جيمس ماديصون ، امبراطور أمريكا (ليكن عهده سعيدا مجيدا ، وعمره طويلا ورخيا) يتمنى له الاحتفاظ مدة طويلة باختام الحكم وبعرشه المقدس ، وحياة طويلة وصحة جيدة ، آمين .

انني آمل فى أن تكون صحتكم على أحسن ما يرام ، وأفيدكم بأن صحتي جيدة بفضل العالي القدير . انني أقدم صلواتي المتواضعة دائما لله القوي من أجل سعادتكم .

خادمكم المتواضع جدا ، يقصد التفاوض لعقد الصلح معنا . لقد تلقيت
خادمكم المتواضع جدا ، بقصد التفاوض لعقد الصلح معنا . لقد تلقيت
الرسالة التي حملها وفهمت مضمونها . ونظرا لأن الصداقة التي كانت قائمة بيننا قد انطفأت ، فأنتم تريدون الآن تجديد معاهدة السلام على نفس الشروط التي يقوم عليها السلام مع فرنسا وانجلترا . بعد وصول أسطولكم الى مينائنا مباشرة بعثت بجوابي الى خادمكم ، الأميرال ، بواسطة قنصل السويد . لقد كنت مستعدا لقبول شروطكم ، بشرط أن تعاد الينا بارجتنا وحراقتنا الحربية التي استوليتم عليها . وبهذه الشروط نود توقيع معاهدة الصلح طبقا لرغبتكم وطلبكم . ولما أوضح قنصل السويد جوابنا هذا لخادمكم ، الأميرال ، وقد وافق على التفاوض معنا على أساس الشروط المذكورة أعلاه . ولما ألح بعد ذلك على ضرورة اطلاق سراح عدد من الأسرى الأمريكيين الموجودين فى حوزتنا وعلى المطالبة بمبلغ من المال للتعويض على السفن التجارية الأمريكية التي استولينا عليها وغير ذلك من ممتلكات الامريكيين ، لم نتردد لحظة واحدة فى الاستجابة لمطالبه . ونتيجة لذلك ، فقد أعدنا الى خادمكم ، الأميرال ، كل ما طلبه الينا . وفى هذه الأثناء ، وبعدما أعطا خادمكم المذكور ، كلمته ووعد بأن يعيد الينا سفينتينا الحربيتين ، ونظرا لأنه لم ينفذ وعده ، فقد خرق بذلك مادة من مواد معاهدة السلام التي وقعت بيننا . ولهذا الاعتبار ، يتحتم عقد معاهدة جديدة .

انني أبلغكم ، بناء على ذلك ، أن معاهدة للسلام قد عقدت بيننا وبين أمريكا فى عهد حسن باشا ، منذ عشرين سنة ، وأنا أقترح تجديد تلك المعاهدة على نفس الشروط التي تنص عليها . واذا وافقتم على ذلك ، فستكون علاقات الصداقة بين بلدينا متينة ودائمة .

انني أنوي أن تكون صداقتي مع أصدقائنا الأمريكيين أقوى مما كانت عليه فى أي وقت مضى ، حيث أن أمريكا كانت أول أمة عقدت السلام معها .

على أنه نظرا لأن الأمريكيين لم يتمكنوا من تنفيذ شروط المعاهدة الحالية ، فانه يبدو من الضروري بالنسبة الينا ألا نتعاقد الا على أساس الشروط المذكورة أعلاه . ونحن نأمل أن تتمكنوا ، بعـــون الله ، من الاجابة عن رسالتنا الحالية فى الحـــال وبمجرد معرفة مضمونها . واذا وافقتم على طلبنا ، وعلى الشروط المحددة أعلاه والمنصوص عليها فى المعاهدة المذكورة ، يرجى افادتنا بجواب سريع . ولكنه اذا كنتم ، على عكس ذلك ، غير قابلين لشروطنا ومقترحاتنا ، فسوف يكون تصرفكم مناقضا لواجب الانسان المقدس وضد القوانين الدولية .

انني لا أطلب منكم الا التلطف باستدعاء قنصلكم فى أسرع وقت ممكن ، ، مؤكدا لكم أن ذلك سيكون مبعثا لاعتباطنا . وهذه كلماتنا الأخيرة اليكم ، وندعو الله أن يحفظكم بعنايته .

حرر فى 20 جمادي الثاني سنة 1231 هجرية ، الموافق 23 أبريل 1815 م وقع فى مدينة الجزائر المحبوبة .

عمر بن محمد

الفاتح العظيم

الملحــــــق هـ

معركة الجزائر (حملة اكسموث)

تفاصيل حررت فى القنصلية (الأمريكية)

كان الجو فى صباح يوم 27 أغسطس سنة 1816 ، جميلا لطيفا والهواء ساكنا لا يكاد يعكر هدوءه الا نسيم عليل . وقد كان من الممكن رؤية الأفق البحري كله من هذا المنزل ، وهو مغطى بالسفن الحربية ذات الأشكال المختلفة ، من البارجة العظيمة ذات ثلاث طبقات حتى مركب المدفعية الصغير . وكان مدفع الانذار قد أعلن وصول هذا الأسطول يوم أمس ، ويبدو أنه يقترب بفعل التيارات البحرية .

وعلى الساعة الحادية عشرة كان النسيم يميل الى الرطوبة والبرد الخفيف ، وقد انفصلت بارجة عن بقية الأسطول وتوقفت عند مرمى المدفعية الجزائرية ، وذلك بعد أن رفعت علم المفاوضة ، ووجهت مركبا الى الرصيف . وقد احتفظت هذه البارجة بموقعها حتى الساعة الواحدة بعد الزوال ، وهي دائما تحمل علم المفاوضة ، وفى نفس الوقت ، تجمعت بقية قطع الآسطول فى الخليج وبدأت تستعد للهجوم .

وعقب انزال علم المفاوضة على البارجة ، شوهدت عدة اشارات من الأسطول ، كما شوهدت ست بوارج تحمل العلم الهولندي تتقدم الى الأمام ، لتشكل خطا متراصا للقتال . وقد تحركت حراقة فرنسية كانت ترسو فى الخليج عند ظهور الأسطول المشترك وغادرت مرساها واتجهت اليه .

وعلى الساعة الواحدة و 40 دقيقة ، اتجهت خمس قاذفات للقنابل مواقعها الحربية فى مقابل المدينة ، وذلك على مسافة ميل واحد من مواقع بطاريات المدافع . وعلى الساعة الثانية والربع يلاحظ نشاط مكثف لتبادل الاشارات بين قطع الأسطول ، وتدل المناورات التي يقوم بها على نية اتخاذ مواقع حربية للهجوم .

وعلى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، تقدم الأميرال الانجليزي على متن البارجة « كوين شارلوت » المسلحة بمائة مدفع والتي تدفعها ريح شمالية بارد — تقدمت بخيلاء ، وفى أثرها سفينتان حربيتان ، احداهما مسلحة بثمانية وتسعين مدفعا والأخرى بأربعة وسبعين مدفعا . وقد بدت البوارج الثلاث فى نظام مشوش وكأنها تحاول كل منهـا احتلال الذي عين لها . وأما قطع الأسطول الهولندي ، فقد كانت فى الأثر وفى خط منتظم للمعركة .

وقبل الساعة الثالثة بقليل ، تقدم الأميرال الانجليزي الى الأمـام خارج موقعه السابق ، ويبدو أنها تجنب بقليل صفوف المدفعية البحرية الجزائرية الهائلة . وعند هذه اللحظة تقدمت سفينتان كلتاهما مسلحة بأربع وسبعين مدفعا ، واتخذت كلتاهما موقعا على مسافة لا تتجاوز مدى طلقة مسدس . وفى نفس الوقت ، تقدمت البارجة « العاتية » (1) التي تحمل علم نائب الأميرال والمسلحة بثمانية وتسعين مدفعا ، ولكنها اتخذت موقعا أبعد من السفن السابقة ، وهذا بدون شك مرجعه الى خطأ . وفى هذه اللحظة ، انحجب الأسطول عنا ، وذلك فيما عدا السفن الثلاث التي سبق الحديث عنها ، وعـدد من المراكب الشراعية ذات الصارية الواحدة والسفن الصغيرة التي استمرت عـلى المناورة تحت الأشرعة ، ولا يوجد ما يدل على نيتها فى الرسو .

وعلى الساعة الثالثة تماما ، أطلقت المدافع الجزائرية قذيفة فى اتجاه سفينة الأميرال . واثر ذلك مباشرة ، أصبحت المعركة شاملة .

1 — ترجمة لاسمها الانجليزي : The empregnable

وعلى الساعة الثالثة وعشرين دقيقة ، توقفت نيران المدفعية الجزائرية المواجهة للبحر ، وقد شاهدنا مئات من الهاربين على طول الشاطيء وتم تحت أسوار هذه القنصلية ، وكثير منهم قد وقع تحت القنابل أو الشظايا ، من بارجة الأميرال .

وفى هذه الأثنـــاء استمر قصف الأسطول الانجليـــزي بعنف وكانت المدفعية الجزائرية ترد عليه بكل شجاعة .

وعلى الساعة الخامسة ، تجددت نيران المدفعية الجزائرية واستمرت بصورة متقطعة .

وعلى الساعة السابعة والنصف ، كانت السفن الراسية فى الميناء طعمة للنيران .

وعلى الساعة الثامنة ، بلغت القنصل الأمريكي أخبار بأن أورطة من الجيش قد قبضت على القنصل الانجليزي فى منزله ووضعته فى القيد وزجت به فى السجن العمومي .

وعلى الساعة الثامنة والنصف ، كانت المدافع لاتزال تطلق نيرانها ، وقد أصبح القسم الأعلى من مبنى القنصلية خرابا بعدما أصيبت أسواره بخمس قنابل .

وعلى الساعة التاسعة أخذت نيران الجانبين تخف . وعـــلى الساعة الحادية ، كانت المدافع تطلق نيرانها على فترات متباعدة .

وعند منتصف الليل ، كان المنظر الذي نشاهده من شرفة القنصلية فى المينا عبارة عن شعلة هائلة من النار ، وبدت بقايا سفينتين وقد دفعت بها الأمواج خارج المرسى . كان المنظر فى هذه اللحظة هائلا وعظيما .

وفى هذه الأثناء بدأت عاصفة يرافقها رعد من السحب السوداء الكثيفة المتجمعة ، بدون شك ، نتيجة لدخان المعركة ، وقد كانت أضواء البرق اللامعة تكشف الستار عن أسطول العدو الذي ينسحب مستعينا بالنسيم الذي يهب من اليابسة ، وتبدو فى خليقة الأفق الداكن . وكأنها أشباح هائلة . وفى نفس الوقت لاتزال القنابل والقذائف تخترق السماء بين الحين والحين ، وطلقات المدافع الآتية من البوارج والتي لاتزال على المرمى تدل على عدو متعب منهك القوى ولكن غير منهزم . لقد كانت بطاريات المدافع الجزائرية التي تشمل ثلاثة لآلاف قطعة . تنازع الأسطول شرق المعركة .

وعند الفجر ، يوم 28 أغسطس ، اعترف الجزائريون بعجزهم عن المزيد من المقاومة ، فى الوقت الذي كان فيه الأسطول المشترك يبدو على استعداد لاستئناف الهجوم . وفى غضون النهار ، اعترف الجزائريون بهزيمتهم وقبلوا الشروط المهينة التي قدمها اليهم المنتصرون .

لقد قاست البحرية والمدفعية وتحصيناتها من تدمير واسع النطاق ولكن المرجح أن الجزائريين لم يفقدوا عددا من الرجال يوازي العدد الذي خسره العدو . وتقول تقديرات (تستحق ما تستحقه مثل هذه التقديرات من الثقة) أن عدد القتلى والجرحى من الجزائريين فى هذه المعركة بلغ 600 قتيل . والواقع أنه لا يوجد ما يدل بعد المعركة ، على أن خسارتهم كانت كبيرة فى الأرواح .

* * *

الملحـــق و
رسالة رسمية من اللورد اكسموث
عدد خاص من لندن «جزيت»

يوم الأحد 15 سبتمبر 1815

وزارة البحرية ، 15 سبتمبر 1815

وصل القبطان بريسبان (Brisbane) قبطان سفينة جلالة الملك « كوين شارلوت » ، وصل فى الليلة الماضية وهو يحمل البرقية التالية من الأميرال اكسموث ، موجهة الى جون ويلصن كروكر (John Welson Broker) المحترم

خليج الجزائر ، فى 28 أغسطس 1815

سيـــدي ،

لم يصادفني فى حياتي الطويلة فى خدمة الدولة حـادث ملأ نفسي بأحدث الانطباعات وبالسرور والاعتراف بالجميل ، مثل نجاح الأمس . فان الانسان الذي كان أداة متواضعة فى يد العناية الالهية ، لكي يعيد الى رشدها حكومة قاسية ويدمر ، الى الأبد ، نظاما فظيعا لا يطاق لاستعباد المسيحيين ، أمر سيكون دائما مصدر للسرور والشرف . وكل شخص ساهم فى هذه العملية المجيدة من حقه أن يشعر بالسعادة تغمر نفســه .

اسمحوا لي بأن أقدم تهانئي الى اللوردات على النصر الكامل الذي أحرزه أسطول جلالة الملك فى الهجوم على مدينة الجزائر ، وعلى النتيجة السعيدة التي أدت الى توقيع معاهدة الصلح اليوم .

وهكذا ، فان حربا استغرقت يومين قد نجم عنها نصر شامل ومعاهدة صلح فى صالح انجلترا وحليفتها مملكة هولندا ، وبشروط أملاها الحزم وحكمة حكومة جلالة الملك وفرضتها شدة أسلحته .

يجب أن أضيف شكري الى الوزراء الذين تفضلوا وكلفوا حماسي بهذه المهمة الخطيرة الشأن . فان الاجراءات التي اتخذوها تتفق مع رغباتي ، والسرعة التي تحقق بها النصر ، يؤكد حكمتهم .

انه لم يمض بعد أكثر من مائة يوم منذ غادرت الجزائر على رأس الأسطول البريطاني ، وأنا أبعد ما أكون عن تخيل الفضائع التي ارتكبت فى عنابة . ولما وصل هذا الأسطول الى انجلتـــرا ، اقتضت الظروف تشتيت قطعه ، ولكن أسطولا آخر زود بالموارد الضرورية التي هي فى مستوى مهمته العظيمة (حملة الجزائر) جمع بعد ذلك . وهذه الحملة على الرغم من توقف حركتها بسبب هدوء البحـــر والريـــاح المعاكسة ، قد تمكنت ، مع ذلك ، من الانتقام للاهانة التي وجهت الى الأمة ، وعاقبت حكومة غاشمة وبسرعة لا مثيل لها . لقد رفعت شرف الأمة البريطانية عاليا ــ بريطانيا التي لا تتوانى عن معاقبة القســوة والظلم الذي يتعرض له أولئك الذين يعيشون تحت حمايتها .

لو شاء الله لتم نصرنا دون خسائر كبيرة فى الضباط والجنود ! ولكن الدماء سالت غزيرة فى هذه المعركة التي تميزت بصفات من الشجاعة والبطولة النادرة ، وهي خليقة بأن تثير أقوى شعور الحماس والنبل . وليتني استطيع أن أنقل اليكم ذلك كله !

لاشك فى أن اللوردات قد تلقوا الآن بواسطة السفينة الحربية ذات الصارية الواحدة « جسبار » أخبار العمليات التي قمت بها حتى تاريخ 14 ، وهو اليوم الذي أقلع فيه الأسطول من جبل طارق حيث ظل مقيما مدة أربعة أيام دون أن يستطيع الحركة بسبب العواصف الشديدة .

كان الأسطول كاملا من جميع النواحي ، وقد زادت قوته بخمس زوارق حربية جهزت اليه فى جبل طارق ، وأقلعت بروح عالية مع أمل قوي فى أن تتمكن من الوصول الى الميناء الذي تتجه اليه فى ظرف ثلاثة أيام . ولكن ريحا معاكسة قضت على آمالنا . ومما زاد من سخطي لهذا التأخير أن أخبارا وصلتني عند الرحيل عن جبل طارق تقول ان الجزائريين يجمعون جيشا كبيرا ، وأنهم يقيمون تحصينات جديدة ، لا بجانب المدينة فحسب ، ولكن أيضا عند مدخل المرسى . وتبعا لذلك ، فقد خشيت أن تكون نيتي فى أن أسدد هجومي الى هذه النقطة الأخيرة قد اكتشفت وعرفها الداي بنفس الطرق أتاحت له معرفة اتجاه هذه الحملة .

وهذه الأخبار تأكدت عندي فى الليلة التالية بالمركب الذي وجهته قبل ذلك بوقت قصير لكي يحاول حفظ القنصل البريطاني فى الجزائر . فان القبطان داشورد الذي كلف بهذه العملية ، لم ينجح الا بصعوبة كبيرة فى تهريب شقيقة القنصل وزوجته بعد أن أسرتا فى زي بحارين ، وقد ترك مركبا لينقل طفلا رضيعا للقنصل ، حمله الطبيب الى الميناء فى قفة وكان يعتقد أنه قد وضعه فى حالة نوم ، ولكن الطفل ، مع الأسف ، صاح عند الباب الرئيسي وافتضح الأمر ، فكانت النتيجة أن أعتقل الطبيب وثلاثة من البحارة وغيرهم ، بحيث بلغ مجموع الأشخاص المعتقلين ثمانية ، وأخضعوا للعبودية ووضعوا فى السجن العادي . و فى اليوم التالي أرسل الداي الطفل الى أمه ، ونظرا لأن هذا هو العمل الانساني الوحيد الذي قام به ، فأنا أعتقد أنه يستحق ايراده فى هذا التقرير .

وكذلك أكد القبطان داشوود أخبارا أخرى تقول ان نحو أربعين ألفا مقاتلا قد أحضروا من داخل البلد الى العاصمة وأن جميع الانكشارية قد استدعوا من مختلف المدن التي يشكلون حامياتها ، وأنهم يستخدمون

بدون توقف فى المدفعية وفى الزوارق الحربية فى أعمال التحصينات فى كل مكان على الشواطيء .

والسفن الحربية (الجزائرية) كانت كلها راسية فى الميناء ، وهي تتكون مما يتراوح بين 40 و 50 زورق حربي وقاذفات القنابل ، وذلك بالاضافة الى وجود عدو آخـر من السفن الحربية التي هي فى حالة التصليح . وقد زج الداي بالقنصل الانجليزي فى السجن ورفض اطلاق سراحه ، أو ضمان سلامة شخصه . وكذلك رفض كل مفاوضة بشأن الضباط والجنود الذين اعتقلوا فى المركب الذي أعد لنقل الطفـــل الرضيع .

ونتيجة لهدوء البحر وللرياح المعاكسة ، فان الأسطول لم يصل الى شاطيء الجزائر الغربي الا يوم 16 . وفى اليوم التالي عند بزوغ الفجر ، تقدم الأسطول حتى أصبح مواجها للمدينة ، ولكنه لم يقتـــرب منها بالقدر الذي كنت أنويه .

ونظرا لأن البحر كان هادئا ، فقد اغتنمت الفرصة لارسال مركب تحت علم الهدنة وتحت حماية « سيفرن » . وقد كلف الضابط الذي يقود المركب بأن يبلغ السلطات الجزائرية أنني أود الاتصال بالداي باسم الوصي على عرش انجلترا ، وتلقى أمرا بأن ينتظر الجواب ساعتين أو ثلاثا . واذا لم يتلق أي رد فى غضون هذه الفترة ، فعليه أن يعود الى المركب الرئيسي وينضوي تحت حكم الهدنة .

وقد استقبل هذا الضابط عند حاجز الأمواج قبطان الميناء ، الـذي صرح ، عندما قيل له انه ينتظر وصول الرد فى ظرف ساعة من الزمن ، بأن ذلك أمر مستحيل . وعندئذ ، أعلن الضابط البريطاني أنه سينتظر ساعتين أو ثلاثا ، ولاحظ أن ساعتين وقت كاف للغاية .

وعند هذه المرحلة ، كانت الريح التي هبت من البحر قد دفعت الأسطول حتى وصل الى الخليج ، وشرع فى اعداد القوارب ومراكب الخدمة ، واستمرت هذه العملية حتى ما يقرب من الساعة الثانية بعد الزوال .

وفى ذلك الحين أبصرت الضابط ورأيت الاشارة التي بعث بها والتي تقول بأنه لم يتلق أي رد بعد مرور ثلاث ساعات ، أمرت باعطاء اشارة لمعرفة ما اذا كانت جميع السفن على استعداد . ولما تلقيت ردا بالايجاب ، تقدمت بارجة الأميرال « كوين شارلوت » الى الأمام ، وفى اثرها بقية قطع الأسطول ، واتخذت كل منها الموقع المحدد لها . وقد أرست السفينة التي تقود العملية على مسافة خمسين ياردة من مدخل المرسى . وحتى هذه اللحظة لم تطلـق رصاصة واحدة ، وقد ساورني الأمل فى أن الجزائريين سيقبلون شروطنا فى نهاية الأمر .

على أن الصمت العميق الذي يسود الموقف انقطع فجأة بطلقة مدفع فى اتجاهنا من حاجز الأمواج ، وقد تلت هذه الطلقة طلقتان أخريتان فى اتجاه السفن الراسية فى الشمال . وقد ردت على النار بمثلها البارجة « كوين شارلوت » على الفور . وعندئذ ارتبطت البارجة بحبـال بسفينة كبيرة كانت ترسو قريبا من الشاطيء عند مدخل الميناء ، وكانت بمثابة دليل لمواقعنا الأمامية .

وعند ذلك بدأ اطلاق أعنف نيران شاهدتها فى حياتي . وقد استمرت منذ الساعة الثالثة الا ربعا حتى الساعة التاسعة مساء بدون انقطاع ، ولم تتوقف كلية من الجانبين تماما ، الا عـلى الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا .

اتخذت السفن التي كانت خلفي مواقعها بنظام وهدوء يستحـق الاعجاب ، وكانت تسدد نيران مدافعها بدقة فاقت كل ما كنت آمله . ان العلم البريطاني لم يشاهد قط مثل ما شاهده فى هذه المعركة من

الحماس والبراعة . وأنا لم أكن أستطيع أن أرى من الموقع الذي كنت فيه ، سوى ما كان يحيط بي مباشرة ، ولكن ثقتي كانت عارمة فى الضباط الذين كان لي شرف قيادتهم ، بحيث أنني كنت هادىء البال مطمئن النفس ، وكنت أحدس بمواقع السفن بأثر نيرانها المدمرة فى تحصينات المدينة وفى بطاريات المدفعية الجزائرية المواجهة لهم . وفى نفس الوقت ، كانت غبطتي عظيمة حينما شاهدت بارجة نائب الأميرال الهولندية ، فان كابلان فى الموقع الذي حددته لها . وكذلك رأيت بقية بوارجه تستمر فى اطلاق نيرانها الشديدة المفعول على البطاريات الجزائرية ، من جانب ، حيث انه لم يكن فى وسعي أن أصطحب نائب الأميرال فى المقدمة .

وعند غروب الشمس ، تلقيت اشارة من نائب الأميرال ميلن يبلغني فيها نبأ الخسائر الهائلة التي أصيبت بها البارجة « العاتية » (وقد بلغ عدد القتلى والجرحى على متنها حينئذ مائة وخمسين قتيلا وجريحا) ، ورجى مني أن أوجه اليه ان أمكن بارجتين حتى تتوزع قوة النيران الهائلة المسلطة على بارجته . وعلى الفور ، أقلعت البارجة « جلاسجو » التي كانت ترسو غير بعيد مني ، ولكن رياحا معاكسة جرفتها واضطرتها الى الرسو من جديد ، ولو أنها اتخذت فى هذه المرة موقعا أفضل من ذي قبل . وفى هذه الأثناء أعطيت أوامر الى سفينة المتفجرات التي كانت تحت قيادة الملازم فلامينج والسد باركر بواسطة القبطان ريد من سلاح المهندسين ليأتي بها الى المرسى . ولكن نائب الأميرال كان يعتقد أن هذه السفينة ستقدم له خدمة كبيرة اذا تم تفجيرها تحت بطاريات المدفعية الجزائرية المقابلة له . وقد أعطيت أوامر جديدة لهذه الغاية ونفذت . وكذلك أبلغت نائب الأميرال أنني ، وأنا أشاهد عددا كبيرا من سفن العدو تلتهما النيران ، وأنه لن تنجو واحدة منها أرى أنني قمت بتنفيذ الجزء الأهم من

التعليمات التي أحملها ، وأنني ، تبعا لذلك ، سوف أستعد لابعاد الأسطول ، وأنني أرغب منه أن يقوم بنفس العملية مع فيلقه ، وذلك فى أسرع وقت ممكن .

لقد واجهنا أثناء المعركة لحظات مرعبة لا أستطيع أن أتعرض لها بالوصف الآن ، وقد كانت نتيجة لاندلاع النيران فى سفن قريبة من سفننا . ولقد قاومت طويلا تضرعات الذين كانوا يقفون حولي والذين أرادوا أن أشعل النار فى بارجة تقع فى داخل المرسى على مسافة نحو مائة قدم منا ، ولكنني فى نهاية الأمر رضخت لهذا الالحاح . فان الرائد جوسي الذي كان يقف بجانبي والذي كان شديد الرغبة فى أن ينزل قواته من الاخصائيين فى الألغام ، طلب مني بالحاح الاذن بأن يرافق الملازم ريتشارد فى قارب تابع لهذه البارجة . ولم يلبثوا أن اقتربوا من البارجة ، ولم تمض سوى فترة أقل من عشر دقائق ، حتى تحولت البارجة الى شعلة هائلة . ولقد دفع حماسه المتأجج أحد ضباط صف البحريين التابعين لسفينة الصوارخ رقم 8 للسير ، على الرغم من منعي له ، لتأييد القارب ، فأصيب بجروح خطيرة ، وكذلك قتل ضابط وتسعة من بحارته فى العملية . وأما القارب الذي كان يجدف بسرعة فانه لم يتكبد سوى خسائر ثانوية ولم يخسر سوى اثنين من رجاله .

وأما بطاريات مدفعية العدو التي كانت تواجه فيلقي ، فقد توقفت عن اطلاق النار على الساعة العاشرة ليلا ، بعد ما دمرت كلية .

وعملنا على أن تكون نيران الأسطول معتدلة بقدر الامكان للاقتصاد فى البارود ، حتى تتمكن من الرد على بعض الطلقات المدفعية التي كانت لاتزال تسدد الينا بين الحين والحين ، على أن برجا يقع على الزاوية للمدينة لم تستطع قذائف مدافعنا الوصول اليه ، قد استمر على تسديد رصاصه وقنابله الى سفننا طول الوقت .

وفى هذا الوقت ، اقتضت العناية تحقيق رغباتي بأن هبت رياح من البر على الخليج ، وسمحت لنا بالقيام بمناوراتنا بسهولة وامتلأت أشرعتنا ولم تلبث سفننا أن أصبحت خارج مرمى القنابل علـى الساعة الثانية صباحا ، وذلك بعد اثنتي عشرة ساعة من العمل المتواصل .

لقد ساهمت مراكب المدفعية المسلحة بالمدافع والصوارخ ، بقيـادة ضباط المدفعية بحظ كبير فى الأعمال الجليلة التي أنجزت فى هذا النهار وقدمت خدمات عظيمة . فبفضل النيران التي كانت تطلقها ، أمكـن احراق جميع قطع الأسطول الجزائري (فيما عدا البوارج التي كانت خارج المرسى) . وهذا الحريق امتد بسرعة ليشمل دار الصناعة والمخازن والزوارق الحربية . لقد كان منظرا فظيعا ولكنه يستحق الاعجاب فى نفس الوقت ، ولا يمكن لريشة أن تصوره .

والسفن الحربية الصغيرة التي كانت مهمتها مساعدة السفن الكبيرة وتهيئة انسحابها ، لم تكتف بالقيام بمهامها على أفضل وجه ، بل انها استغلت كل فرصة لاطلاق نيرانها فى فترات متقطعة ، وكانت فى حركة دائبة .

وكانت القنابل تطلق ببراعة فائقة من مدافع البحرية الملكية ، وعلى الرغم من أنها كانت تطلق نيرانها بيننا وفوق رؤوسنا ، فانه لم يبلغ علمي أنها أحدثت أية اصابة فى سفننا .

وقد قام الأسطول بمناوراته فى هدوء وصمت كامل بحيث أنني لم أسمع صيحة واحدة فى غضون هذه العملية .

وكذلك كانت خدمة المدفعية ممتاز ، وسوف يمر وقت طويل قبل أن يشهد الناس نيرانا أشد وأعنف ، وسيذكرها الجزائريون الى الأبد .

والطريقة التي قاد بها الربان بارجة الأمير وقاد بها الربابنة بقية سفن الأسطول ، كانت محل تقدير واعجاب الجميع . والأول ، كان زميلي في السلاح نيفا وعشرين سنة .

وهذه التفاصيل (على الرغم من كونها غير وافية) حول معركة لم تدم الا وقتا قصيرا ، تسمح بأن آمل بأن تكون خدمات القائد الأعلى وولائه ، وخدمات الضباط والبحريين الذين أتشرف بقيادتهم ، ستكون محل رضى سمو الوصي على العرش ويستقبلها بما عرف عنه من كرم النفس .

وغاية أمانينا جميعا ، هي أن نرى خدماتنا محل الموافقة من جانب الملك والتصفيق من الشعب . ان ذلك من شأنه أن يبعث شعور الاغتباط والرضى في نفوسنا .

ولو حاولت أن أذكر للوزارة العدد الكبير من الضباط الذين أبدوا في ظروف مختلفة شجاعة أكثر من غيرهم في هذه المعركة ، لكان في ذلك عدم انصاف للكثيرين .

وأنا آمل في أنه لا يوجد في هذا الأسطول الذي أتشرف بقيادته ضابط يشك في اعترافي له بالجميل لخدماته العديدة . فان الضباط والجنود جميعهم قد قاموا بأكثر من واجبهم . وقد كنت أجد صعوبة في كبح جماح حماسهم أكثر مما كنت أشعر بالحاجة الى تحريضهم على القتال . وأنا لم أرقط من مظاهر الشجاعة أكثر مما رأيته من قبطان بارجتي ومن الضباط المحيطين بي مباشرة . وأنا مدين بالاعتراف والشكر لجميع من خدموا تحت أوامري ، وكذلك لنائب الأميرال فان كابلان وضباط أسطول جلالة ملك هولندا . فان ذكرى خدمتهم لن تزول من ذاكرتي الا حينما تفارقني الحياة . انني لم أر قط في حياتي شجاعة وحماسا يفوق ما رأيته في هذه المعركة . وابتداء من ضباط الصف البحريين حتى كبار ضباط الأسطول ،

كانت تسرى فى الجميع روح واحدة . وسوف يكون من دواعي غبطتي وسروري أن أقدم لهم أمام الوزارة كلما احتاج واحد منهم اليها .

سلمت هذه البرقية الى نائب الأميرال ميلن ، قائدي الذي يأتي بعدي فى القيادة ، والذي شاهدت منه خلال هذه الحملة خدمات مشرفة الى أقصى حد . فان هذا الضابط يتمتع بخبرة ممتازة فى قيادة الأسطول . وهو يستطيع أن يقدم جميع التوضيحات التي ستكون مرضية للوزارة بشأن المسائل التي لم أتعرض لها فى هذا التقرير . انني آمل فى أن أكون قد حصلت على تقديره . واذا كان لدي أسف أعبر عنه بشأنه ، فهو لأنني لم أكن قد عرفته من قبل .

تجدون مرفقا مع هذه البرقية تقدير الأضرار التي لحقت بسفن الأسطول وقائمة بأسماء القتلى والجرحى الذين سقطوا فى المعركة . وأنا سعيد بأن أفيد بأن القبطان « ايلكينز » والقبطان « كود » كلاهما يستعيد صحته بسرعة ، والأمر كذلك بالنسبة الى معظم الجرحى .

ان الأخبار الواردة من البر تفيد بأن خسائر الأعداء تتراوح بين ستة وسبعة آلاف رجل .

انني أوصي بضباطي وأسطولي وأرجو حمايتكم لهم .

أتشرف بأن الخ .

الامضاء : اكسموث

تفاصيل

عن تدمير قطع الأسطول الراسي في ميناء الجزائر

فى غضون الهجوم الذي وقع على الجزائر يوم 27 أغسطس 1816 ، تم تدمير أربع بوارج كبيرة ذات أربعين مدفعا (للواحدة) وخمس حراقات حربية كبيرة ذات ثلاثين مدفعا (للواحدة) وجميع الزوارق الحربية التي يبلغ عددها ثلاثين زورقا . وهذه السفن دمرت تدميرا تاما فيما عدا سبع منها . وكذلك دمر عدد من السفن التجارية ذات الصاريتين وعدد من السكونات وعدد من السفن الصغيرة من مختلف الأشكال والأحجام ، وكذلك دمرت جزئيا جميع الجسور العائمة والأرصفة والمسطحات والفنار الذي يهتدى به الملاحون ودار الصناعة بما يحتوي عليه من الخشب (البناء وتصليح السفن) والأجهزة البحرية المختلفة ، وكذلك دمرت حاملات المدافع والبراميل ومخازن السفن من مختلف الأنواع والأوصاف .

الامضاء : اكسموث

متن البارجة « كوين شارلوت »
خليج الجزائر ، 28 أغسطس 1816

الى سمو داي الجزائر ،

نظرا لأعمال القسوة التي قمتم بها فى عنابة ضد مدنيين عـزل مـن المسيحيين ، ونظرا لاهمالهم غير اللائق للمطالب التي قدمتها اليكم باسم الوصي على عرش أنجلترا ، فان الأسطول الذي تحت قيادتي قد قـام بمعاقبتكم بتدمير أسطولكم البحري تدميرا تاما وتخريب دار الصناعة ، ونصف المدفعيـة .

« وحيث أن أنجلترا لم تعلن الحرب لتدمير المدن ، ولا تحاول تحميل تبعة قسوتكم الشخصية السكان الأبرياء ، فاني أقدم اليكم نفس الشروط التي قدمتها يوم أمس باسم ملكي . واذا لم تقبلوها ، فيجب ألا تأملوا فى السلام مع بريطانيا .

« واذا قبلتم هذه الشروط ، كما يجب عليكم ، فستطلقون ثلاث طلقات بالمدافع . وسأعتبر صمتكم رفضا لهذه الشروط ، واتخـذ الاجراءات الملائمة لاستئناف الهجوم .

« أعرض عليكم هذه الشروط ، بشرط أن لا يكون قنصل أنجلترا والضباط والجنود الذين اعتقلوا بنذالة فى مركب تابع للأسطول البريطاني، قد عوملوا معاملة سيئة ، وكذلك جميع العبيد المسيحيين الذين يوجدون حاليا تحت سلطانكم . وأنا أطالب بأن يعاد الي القنصل وجميع ضباطي وجنودي ، وذلك طبقا لنصوص المعاهدات القديمة .

التوقيع : اكسموث

مـذكـرة عـامـة

(البارجة « كوين شارلوت » خليج الجزائر في 30 أغسطس)

يسعد القائد الأعلى أن يخبر الأسطول ، بأن نتيجة المعركة كانت توقيع الصلح الذي ستطلق المدافع 21 طلقة احتفالا به ، وذلك بالشروط التالية التي أملاها الوصي على عرش أنجلترا :

1 ــ ألغي استرقاق المسيحيين الى الأبد .

2 ــ سيتم تسليم جميع العبيد الذين يوجدون في مملكة الداي ، مهما تكن جنسيتهم ، في بارجتي عند الزوال يوم الغد .

3 ــ وفي نفس الوقت يعيد الداي جميع أموال الفدية التي أخذها على الأسرى منذ بداية هذه السنة .

4 ــ قدمت تعويضات الى قنصل أنجلترا على جميع الخسائر التي تحملها عقب القبض عليه وسجنه .

5 ــ قدم الداي اعتذارا علانيا بمحضر وزرائه وضباطه وطلب العفو الى القنصل بالعبارات التي طالب بها قائد البارجة « كوين شارلوت » .

يغتنم القائد العام هذه الفرصة ليشكر علانية الأميرالات ، والقبطانات ، والضباط ، والبحارة ، والمدفعية البحرية الملكية وفريق الصوارخ ، للخدمات التي تتسم بالولاء والاخلاص التي قدموها في غضون الحملة ، ويعلن ان صلاة عامة ستقام يوم الأحد القادم لشكر الله على تأييد العناية الالهية في غضون معركة 27 أغسطس للأسطول البريطاني ضد أعداء الانسانية .

المطلوب قراءة هذه المذكرة على بحارة جميع السفن .

الى جون ويلصن كروكر
خليج الجزائر ، 1 سبتمبر 1816

سيدي ، أتشرف بأن أبلغ الوزارة عن طريقكم بأنني أرسلت القبطان بريسبان ليحمل نسخة من برقيتي ، وذلك خشية تأخر نائب الأميرال ميلن الذي يحمل الأصل ، نتيجة للرياح المعاكسة التي بدأت تهب بعد بضع ساعات من رحيله . والقبطان بريسبان الذي أدين له بخدمات ممتازة طيلة مدة المعركة ، يمكنه أن يقدم جميع التفاصيل التي ربما أهملتها .

لقد وصل الأميرال شارلز بن روز (Ch. Penrose) متأخرا ولم يمكنه المساهمة فى المعركة عند الهجوم على الجزائر . انني متأسف لذلك من أجله ومن أجلي أيضا .

انني أشعر بالاغتباط بأن أفيد بأن جميع العبيد الذين كانوا يوجدون فى مدينة الجزائر وفى جوارها قد أبحروا ، كما استعيد مبلغ 357ر000 دولار لحساب ملك نابلي ، واسترجع مبلغ 25ر500 دولار لحساب ملك سردانية . ستوقع المعاهدات يوم الغد ، وأنا آمل أن أتمكن من الاقلاع فى ظرف يوم أو يومين .

سافرت السفينة « ميتدن » الى جبل طارق ، ومن هناك ستقلع فى الاتجاه الذي يعين لهـا .

ستنفصل عن الأسطول فى جبل طارق السفينة « البيول » لكي تستقبل بارجة الأميرال ، سير شارلز بن روز . سأضطر الى أن أصطحب معي البارجة « جلاسجو » الى أنجلترا .

الامضاء : اكسموث

قائمـــة

السفن الحربية التي تشكل الاسطول المشترك الانجليزي

	عدد المدافع	القتلـى	الجرحـى
Queen Charlot	100	8	131
Impregnable	98	60	160
Superb	74	8	84
Niden	74	7	37
Albion	74	3	20
Lander	50		118
Severn	40		34
Glasgow	40	60	37
Granicus	36	16	42
Hebrus	36	4	15
Heron Mutine Prometheus Cordelia Brilomary	مراكب شراعية حربية وحيدة الصارية لا قتيل ولا جريح		
Infernal	(قاذفة قنابل)	2	17
Belzbub Hecle Fury	(قاذفات قنابل) لا قتيل ولا جريح .		

اسطول صغير يتكون من اربع زوارق حربية ، عشرة قوارب مدفعية خمس قاذفـات الصوارخ ، مراكب صغـيرة مـن مختلف الانـواع .
المجموع ـ 55 .

مجموع القتلى البريطانيين 138 ـ والجرحى 695 (1) .

---

1 ـ وباقي الحساب من الهولنديين

الاسطـــول الهولندي

	عدد المدافع	القتلى	الجرحى
Melanpus	40	3	15
Frederica	44	0	5
Dagaraad	36	0	4
Diana	40	6	22
Amstel		4	6
Andracht	24		

القتلى من البريطانيين 138 والجرحى 695

« الهولنديين 13 والجرحى 52

مجموع القتلى 151 مجموع الجرحى 747

الملحـــق ز

من رئيس الولاايات المتحدة الى داي الجزائر

تلقيت رسالتكم المؤرخة فى24أبريل الأخير. انكم تقولون انالمضنيتين الجزائريين اللتين استولى عليهما الأسطول الأمريكي لم تعادا الى الجزائر، طبقا لوعد الكمودور ديكاتور ، وأنه نتيجة لخرق هذه المادة ، أصبحت المعاهدة ملغاة . وتقترحون بديلا عنها تجديد المعاهدة الأولى التي وقعت منذ عهد بعيد ، أو سحب قنصلنا . ونظرا لأن الولايات المتحدة تريد أن تعيش فى سلام ووئام مع جميع الأمم ، فانني آسف لأنكم تنظرون نظرة خاطئة الى ما حدث فى الماضي . وهذا الخطأ هو الذي أوحـى اليكـم بمضمون رسالتكم .

فان سلفكم أعلن الحرب ، بدون مبرر ، على الولايات المتحدة ، بعد ما طرد قنصلها ، ووضع فى قيد العبودية قبطان سفينة أمريكية وبحارتها ـ سفينة كانت تحمل علم دولة ترتبط بمعادة مع الجزائر .

وبعد ما انتهينا من حرب مظفرة مع أكبر دولة حربية فى أروبا ، وجهنا أسطولا الى البحر الأبيض المتوسط بغية الحصول على ترضية لسلوك الجزائر الظالم تجاهنا . واثر ذلك التقى أسطولنا بأسطولكم وهزمه واستولى على أكبر سفنكم الحربية ، مع سفينة أخرى صغيرة . وعقب ذلك مباشرة ، اتجه أسطولنا الى الجزائر . لقد عرضتم علينا الصلح ، وبقبولنا له أنقذتم بقية أسطولكم الذي لم يكن (ونحن نعرف ذلك) قد دخل الى الميناء ، وكان سيقع فى يدنا حتما . وقد وعد قائدنا الذي

كان كرمه لا يقل عن شجاعته ، بأن يعيد اليكم السفينتين اللتين أسرهما . ومع ذلك ، فهو لم يكن يريد أن يتخذ من هذا الوعد مادة من مواد المعاهدة . وكذلك أعيدت السفينتان . فاما البارجة فقد وصلت الى الجزائر بعد ذلك بقليل . وأما السفينة الصغيرة ، فقد ادعت الحكومة الاسبانية انها أسرت فى مياهها الاقليمية ، وأنها لا يمكن أن تكون غنيمة لنا ، ولذلك ، فقد احتجزتها فى ميناء قرطاجنة ، وذلك بعد أن سلمناها نحن الى ضابطكم .

ونحن لم تكتف بالوفاء بوعدنا ، بل مارسنا ضغطا على الحكومة الاسبانية وطالبناها باطلاق سراح السفينة التي لا حق لها فى احتجازها ، سواء أكان أسرها يتفق أم لا يتفق مع القوانين الدولية . وقد وعدت الحكومة الاسبانية باعادة السفينة ، وعلى الرغم من طول المدة التي استغرقتها العملية ، التي كانت أطول مما كان يعتقد ، فان السفينة فيما يبدو والبارجة ، كلتاهما فى حوزتكم الآن .

ولذلك ، فنحن نندهش لان نراكم فى الظروف الحاضرة تبالغون فى أهمية حادث صغير لا تتحمل اللوم عليه ، وتلحون على تطور ضئيل للتفوه بتلك التهديدات والاقتراحات التي وردت فى رسالتكم . انني أود الاعتقاد بأنكم متى امعنتم التفكير والتروي ، فسوف تشاركون سلفكم ميوله الطيبة نحو الولايات المتحدة ، بعد الحرب التي أعلنها عدوانا وظلما عليها . والولايات المتحدة التي لا ترغب فى الدخول فى حرب مع أية أمة ، سوف لا تشتري السلام ، مع ذلك أبدا . ان هذا مبدأ أساسي من مبادئنا السياسية . والسلام أفضل من الحرب ، ولكننا نفضل الحرب على دفع ضريبة .

لقد خولت الصلاحيات الضرورية لقنصلنا وللكمودور تشوسي ، قائد أسطولنا ، لكي يتفاوضا معكم لتسوية الخلافات القائمة بين الأمتين ، وذلك بالاعتراف وتنفيذ المعاهدة الأخيرة التي عقدت بيننا .

انني أدعو الله أن يلهمكم حبا بالمثل للسلام والعدل الذي نشعر به من أعماق نفوسنا ، وأن يرعاكم بعنايته .

حرر فى واشنطون فى 21 أغسطس 1816

التوقيع : جيمس ماديصون

الرئيس

التوقيع : جيمس مونرو

وزير الخارجيـة

المفاوضون الأمريكيون فى الجزائر

ان الموقعين أدناه يتشرفون بأن يسلموا الى سمو الداي رسالة من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن يخبروه بأنهم عينوا للتفاوض من أجل اعادة اقرار السلام بين الولايات المتحدة وبايالة لجزائر . وطبقا للتعليمات التي تلقوها . فقد سارعا للوصول الى خليج الجزائر لانهاء الخلاف القائم بين البلدين وذلك بالتصديق على معاهدة السلام التي عرضت عـلى رئيس الولايات المتحدة ، وذلك بعد ما آبـدى مجلس الشيوخ رأيه بشأنها وصدق عليها .

ونظرا لأن وعد الكمودور ديكاتور بأن يعيد الى الأيالة السفن الحربية التي استولى عليها الأسطول الذي كان تحت أوامره ، قبل يونيو 1815 ، قد انجز بتسليم السفينتين الى يد ضباط جزائريين أرسلوا خصيصا لهذه لهذه الغاية الى قرطاجنة ، وبعودة السفينتين فعلا ، الى الجزائر ، فـان الموقعين أدناه لا يمكنهم الاعتراف بشرعية هذه المطالب التي لا تقوم على أي أساس ، وطرحها على بساط المفاوضات . ولكي يثبت المفاوضون لسمو الداي أن الحكومة الأمريكية لم تتوان فى الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها بأمانة ، فهم يرفقون طية المراسلات التي تبودلت بين وزيـر الخارجية الأمريكية ووزير صاحب الجلالة ، ملك اسبانيا فى أمريكا .

وبعد الاتفاق على هذه الأمور التمهيدية ، يعلن المفاوضون أنهم منحوا السلطة لأن يقترحوا على سمو الداي تجديد معاهدة السلام التي عقدت بين الجزائر والولايات المتحدة على الأسس التالية :

1 ـ تجديد معاهدة السلام التي عقدت فى يونيو 1815 بنفس الصيغة والمضمون والتي اتفق عليها مع سلطات الايالة القنصل العام والكمودور

ديكاتور . ولكنه لاثبات روح الوفـاق والتصالح التي تدفع رئيس الولايات المتحدة ، فقد كلفوا بالاقتراح على سمو الداي تعديل المادة 18 فى المعاهدة بدون مقابل ، وذلك باضافة المادة التالية التي توضحها :

« رغبة فى الولايات المتحدة فى أن تقدم للداي الدليل على تعلقهـا بالسلام والمحافظة عليه ، وبالعلاقات الودية التي تربط بين البلدين بروح من التحرر التام ، ورغبة منها فى ازالة جميع العراقيل التي قد تقوم فى طريق الايالة فى علاقاتها مع الدول الأخرى .

توافق الولايات المتحدة على الغاء المادة 18 من المعاهدة التي تمنـح الولايات المتحدة فى موانيء الجزائر امتيازات تفوق امتيازات الـدول الأكثر رعاية التي ترتبط بمعاهدات مع الايالة .

2 ـ نظرا لأن الأيالة قد أسأت فهم المباديء التي عقدت على أساسها معاهدة يونيو ، ونظرا لأن مادة صيغت بطريقة تتعارض مع الاتفاق الذي تم بينها وبين المفاوضين، بورود نص فى ترجمة هذه المعاهدة يلزم الولايات المتحدة بأن تدفع للايالة الهدايا القنصلية ، فان الموقعين أدناه يصرحون بكل وضوح وبصورة رسمية لا غبار عليها ، بأن الولايات المتحدة لن توافق على أية مادة تنص على أنها ستدفع للايالة أو لأعوانها هدايا فى أية مناسبة كانت .

« ان الموقعين أدناه يعتقدون انهم يستطيعون أن يؤكدوا لسمو الداي أنهم لن يحيدوا عن الشروط المذكورة أعلاه ، وهم يتركون للايالة الاختيار بين السلام والحرب . والولايات المتحدة التي ترغب فى أحد الأمرين مستعدة للقيام بالأمر الآخر .

« ولكي يسهل الموقعون أدناه على حكومة الجزائر فهم محتوى هذه المذكرة ، يرفقون طيه ترجمة دقيقة لها باللغة العربية . وهم يأملون فى أن يرد سمو الداي على هذه المذكرة كتابة ، باللغة الانجليزية أو الفرنسية

أو الاسبانية أو الايطالية ، أو بواسطة قنصل أجنبي يصرح له بضمـان الدقة فى الترجمة .

« يغتنمون هذه الفرصة ليقدموا الى سمو الداي تحياتهم وتقديرهم الفائـق .

التوقيع : وليـام شالـر

ج . تشونسي

على متن البارجة واشنطن

خليج الجزائـر

9 ديسمبر 1816

مذكرة القنصل الأمريكي

« يتشرف الموقع أدناه ، القنصل العام للولايات المتحدة فى بلاد البربر ، والمفاوض لتجديد معاهدة السلام مع الجزائر ، بأن يصرح لسمو الداي ، بأن الاقتراح الذي تقدم به والذي يقضي بتأجيل المفاوضات لمدة ثمانية أشهر ويوم واحد ، قد رفض من جديد ، والموقع أدناه يكرر القول بأنه لا يمكنه أن يحيد عن مضمون المذكرة التي وجهها الى سموه بالاشتراك مع زميله بتاريخ 9 من الشهر الجاري ، وأنه اذا كانت هذه المقترحات قد رفضت ، فسوف يعتقد ان من واجبه أن يرحل فى الحال ويترك ايالــة الجزائر فى حالة اعلان الحرب .

« يغتنم الموقع أدناه هذه الفرصة ليجدد لسمو الداي تأكيد تقدير الفائق واحترامه العميق .

الامضاء : شالر

حرر فى قنصلية الولايات المتحدة

الجزائر فى 20 ديسمبر 1816

* * *

الملحـــــق ح

بروتوكول مؤتمر « ايكس لاشبيل » رقم 39 بتاريخ 20 نوفمبر 1818

اتفق المفاوضون طبقا لنص برتكول ـ على أن يواصلوا فى المؤتمر الوزاري الذي سيعقد فى لندن النظر فى مختلف المشروعات المقترحـة لالغاء القرصنة التي تمارسها الدول البربرية بطريقة فعالة . فقد طالب الكـونت دوكابـو ديستريـا مـرة أخـرى ولفت أنظـار المؤتمـر الى هـذه المسألـة . ولمـا اعتـرف بأهميـة وضـع أيـة حواجـز فى أقرب وقت ممكن للأضرار التي تلحقها القرصنة بالتجارة الأروبية ، وباقتراح قرارات تتخذ لهذه الغاية وبالقيام بسعى مباشر وقوى لمواجهة ايالات الشواطيء البربرية فى افريقية ، فقد طلبوا الى مندوبي بريطانيا وفرنسا ، بوصفهما ممثلين للبلاطين اللذين يجب أن يكون لنفوذهما ، بطبيعة الحال ، ثقل أكبر لدى هذه الايالات ، أن يوجها اليها انذارات جدية بأن استمرارها على نظام القرصنة الذي يضايق التجارة السلمية ستكون له آثار تحسن الايالات صنعا فى أن تفكر عاجلا فى تتائجهـا التي قد تمس وجودها نفســه وقـد تعهـد الـدوق دوريشوليـو واللورد كاستلريق بأن يعطوا التعليمات الضرورية للقيـام بمثل هذا المسعى ، وبأن يبلغوا الحكومات الأخرى بالنتيجة التي قد يسفر عنه . وكذلك تحتفظ البلاطات الخمس بحقها فى تحذير الباب العالي أيضـا بصورة ودية من الأخطار التي قد تتعرض لها الايالات البربرية نتيجـة

الملحـــق ح

بروتوكول مؤتمر « ايكس لاشبيل » رقم 39 بتاريخ 20 نوفمبر 1818

اتفق المفاوضون طبقا لنص برتكول ـ على أن يواصلوا فى المؤتمر الوزاري الذي سيعقد فى لندن النظر فى مختلف المشروعات المقترحة لالغاء القرصنة التي تمارسها الدول البربرية بطريقة فعالة . فقد طالب الكـونت دوكابـو ديستريـا مـرة أخـرى ولفت أنظـار المؤتمـر الى هـذه المسألـة . ولمـا اعتـرف بأهميـة وضـع أيـة حواجـز فى أقرب وقت ممكن للأضرار التي تلحقها القرصنة بالتجارة الأروبية ، وباقتراح قرارات تتخذ لهذه الغاية وبالقيام بسعى مباشر وقوى لمواجهة ايالات الشواطيء البربرية فى افريقية ، فقد طلبوا الى مندوبي بريطانيا وفرنسا ، بوصفهما ممثلين للبلاطين اللذين يجب أن يكون لنفوذهما ، بطبيعة الحال ، ثقل أكبر لدى هذه الايالات ، أن يوجها اليها انذارات جدية بأن استمرارها على نظام القرصنة الذي يضايق التجارة السلمية ستكون له آثار تحسن الايالات صنعا فى أن تفكر عاجلا فى نتائجهـا التي قد تمس وجودها نفسـه وقـد تعهـد الـدوق دوريشوليـو واللورد كاستلريق بأن يعطوا التعليمات الضرورية للقيـام بمثل هذا المسعى ، وبأن يبلغوا الحكومات الأخرى بالنتيجة التي قد يسفر عنه . وكذلك تحتفظ البلاطات الخمس بحقها فى تحذير الباب العالي أيضـا بصورة ودية من الأخطار التي قد تتعرض لها الايالات البربرية نتيجـة

لاستمرارها على ممارسة القرصنة ، من حيث انها ستكون سببا فى اتخاذ الدول الأوروبية اجراءات حاسمة .

التوقيع :

ميترنيخ ، ريشوليو ، كاستلريق

ويلينجطون ، هاردنبرج ، بيرنسطورو

نيسلرود ، كابو ديستريا

* * *

مذكرة وجهت الى ايالة الجزائر تطبيقا لما تقدم من طرف الأميرال فريمانتل وجورين دولاجرافيير

لقد كلفت الدول الأروبية التي اجتمعت فى « ايكس لاشابيل » فى السنة الماضية فرنسا وبريطانيا بمهمة القيام بمسعى جدي باسم جميع هذه الدول لدى الايالات البربرية بشأن ضرورة وضع حد لاعمال القرصنة والعنف التي تمارسها سفنها المسلحة فى البحر .

ونحن قد حضرنا باسم أصحاب الجلالة ملك فرنسا وأنجلترا بوصفنا ممثلين لهما لنبلغكم نيات الدول الأروبية . فان هذه الدول قد صممت بطريقة لا تراجع فيها على وقف نظام القرصنة الذي يتناقض مع المصالح العامة لجميع الدول ، بالاضافة الى كونه يقضي على جميع الآمال فى قيام حالة الرخاء فى البلدان التي تمارسه . واذا استمر هذه الايالات على هذا النظام المعادي للتجارة السلمية ، فانها ستثير ضدها ، حتما ، الاتحاد العام لجميع الدول الاروبية ، ويجب عليها أن تفكر قبل فوات الاوان ، ان مثل هذا الاتحاد سيكون من نتائجه تعريض وجود الايالات نفسها للخطر .

ولكنه قبل آن نشير الى العواقب الوخيمة التي ستترتب على استمرار نظام القرصنة الذي يثير امتعاض أروبا ، نسارع لنؤكد لكم أنه اذا تخلت الايالات عن هذا النظام الذي يجر الويلات ، فان الدول الاروبية ، سوف لا تكتفي بالاحتفاظ بعلاقات طيبة معها وبتفاهم وصداقة ، بل هي ستشجع

أيضا جميع أنواع العلاقات التجارية التي ستكون فيها فائدة لرعاياها . والدول التي تتشرف بالتحدث باسمها ، متحدة اتحادا تاما ، فيما يتعلق بهدف المسعى الهام الذي كلفنا بالقيام به ، ونحن تتــرجم باخلاص نياتهــم .

ونحن نأمل فى أن ادراككم لمصالحكم يجعلكم لا تترددون فى الرد بطريقة مرضية على المطالب التي قدمناها اليكم منذ حين ، والدول الأروبية تقتصر على مطالبة الايالات بأن تحترم الحقوق التقليدية التي تعتبرها الدول المتحضرة مقدسة . واذا ادعت الايالات البربرية ان من حقها مضايقة تجارة الدول الأخرى ،حسبما يمليه عليها هواها ، فانهـا سوف تجر على نفسها الاسلحة الاروبية حتما . فالتتلطفوا اذا بمنحنا هذه التأكيدات التي يتوقعها ملوكنا منكم ، والتي ينتظرونها بفارغ الصبر لكي يتفلولها الى حلفائهم بشأن موضوع يهمهم كثيرا . ولكنه فى مثل هذه الحالة ، لا تكفي الوعود الشفاهية . فان هذه العملية تتطلب تعهدا جديا وذا أهمية فائقة بالنسبة للملاحين وللتجارة بين جميع الدول . ونظرا لاننا نسجل تصريحنا مكتوبا بشأن نيات الحلفاء ، فنحن فى حل من أن نعتقد فى أنكم ستردون على هذا المسعى بنفس الطريقة ونحن سنسارع بابلاغ حكوماتنا التعهد الايجابي الذي تسلمونه الينا ، لاننا نكرر القول بأننا لا نسمح لكم برفض اقتراحات من شأنها أن تجعلكم تجنون سريعا الفوائد التجارية التي سيضمنها احترام حقوق الدول .

التوقيع : توماس فريمان

جورين دوجرافيير

سبتمبر 1819

تصريـح

لقد أعرب لنا جلالة ملك المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا عن رغبته فى أن تفسر تفسيرا واسعا المادة 17 من المعاهدة التي عقدت بين بريطانيا والجزائر فى 5 أبريل 1686 ، التي تضمن أمن وسلامة قنصل جلالته الذي يقيم فى مدينتنا ، الجزائر ، ونحن على استعداد للاستجابة لرغبات جلالته لكي نثبت له رغبتنا القوية فى أن نقيم ونعزز علاقات السلام والوئام بصفة أكثر دواما بيننا ، تلك العلاقات التي لا تزال ، لحسن الحظ قائمة بين البلدين . ولذلك فنحن نعده بذلك بكل سرور ، ونصرح بما يلي :

1 — فى المستقبل والى الابد ، سيعامل القنصل الانجليزي الذي يقيم فى مدينة ومملكة الجزائر ، فى جميع الاوقات ، بالاحترام والتقدير المستحق لشخصه .

2 — ان شخصه ومنزله ، أو منازله ، تتمتع بالحصانة ، وكل من يهين القنصل بكلامه أو بأعماله ، سيتعرض لعقاب صارم .

3 — سيتمتع بالحرية فى اختيار مترجمة وخدمه المسلمين . أو غـير المسلمين الذين لا يجبرون على دفع ضريبة من أي نوع كان .

4 — سيكون حرا فى أي وقت فى أن يرفع علم جلالة الملك على منزله فى المدينة أو فى الريف وعلى مركبه حينما يكون فى البحر .

5 — يعفى من الضريبة الجمركية على أثاثه وملابسه وأمتعته وغير ذلك من الاشياء الضرورية التي يستوردها الى مدينة الجزائر أو الى

الاراضي الجزائرية لاستعماله الشخصي ولاستعمال عائلته . واذا اقتضت خدمة جلالة الملك أو غير ذلك من الاسباب تغيبه عن مملكة الجزائر ، يمتنع عن الاستيلاء على شخصه أو خدمه أو امتعته مهما يكن السبب ، وله الحق فى الذهاب والاياب كلما رأى ذلك ضروريا ، وأخيرا ، فان جميع الامتيازات وعلامات التشريف التي يتمتع بها الآن أو سيتمتع بها فى المستقبل الوكلاء والقناصل ونواب القنصل التابعين لدول أخرى ستمنح أيضا لوكلاء وقناصل ونواب قناصل جلالة ملك بريطانيا .

أكد وختم عليه فى مدينة الجزائر المحاربة بشهادة الله العظيم فى 26 يوليو 1824 م الموافق ليوم 29 ذو القعدة سنة 183 هجرية .

ختم الداي

توقيع الشاهد : ر . س . سبنسر
قبطان سفينة جلالة الملك

الوكيل القنصلي : « نايدا »
هـ . ماكدونال

تصـــريـــح
لصاحب السمو داي الجزائر

لقد وقع تصريح فى شهر أغسطس 1816 من طرف سلفنا صاحب السمو عمر باشا ، للنبيل ، البارون اكسموث ، ينص على أن سموه يلتزم ، فى حالة حرب مع دول أروبية ، بأن لا يخضع بعد الآن أي مسيحي لقيود العبودية ، بل يعامل الاسرى المسيحيين بكل انسانية بوصفهم أسرى حرب ، وذلك حتى يتم تبادلهم بطريقة عادية على أساس المعمول به بين الدول الاروبية . ونحن نصرح هنا بكل وضوح بأننا نرغب فى احترام روح هذا التصريح ونصه بكل أمانة .

أكد وختم عليه فى مدينة الجزائر المحاربة ، عاصمة مملكة الجزائر ، بشهادة الله العظيم فى 26 يوليو 1824 ، الموافق ذو القعدة ، سنة 1239 هجريـــة .

ختـــم الـــداي

ر . س . سبنسر

ماكدونـــل

* * *

تصـــريـــح
لصاحب السمو داي الجزائر

لما بلغ علمنا أن السكونة الانجليزية المسماة « داندى » كانت راسية فى ميناء الجزائر ، يوم 10 يناير الماضي ، اقترب منها بعض رعايانا وعاملوا ربان السفينة المذكورة معاملة سيئة ، فاننا نؤكد رسميا لجلالة ملـك بريطانيا اننا سنتخذ فى المستقبل اجراءات فعالة لتجنب تجدد مثل هـذا الاعتـداء .

أكد فى مدينة الجزائر بشهادة الله العظيم فى يوم 26 يوليو 1824 م الموافق 29 ذي القعدة 1239 هجرية .

ختـم الـداي

ر . س سبنسر

هـ . ماكدونال

* * *

تصـــريـــح
لصاحب السمو داي الجزائر

ان سمو الداي ، رغبة منه فى أن يثبت احترامه الصادق ومحافظته على حرمة شخص القنصل البريطاني ومنزله ، يوافق على توقيع التصريح الذي قدم اليه ، ولكن الداي قد أبدى اشمئزازه من المادة التي تنص فى التصريح على حق القنصل فى أن يرفع علم جلالة الملك على منزله فى المدينة ، ولذلك فهو يرجو من ملك بريطانيا وايرلاندا أن لا يلح على المطالبة بتطبيق هذه المادة تطبيقا دقيقا .

ومع ذلك ، فان الداي يؤكد لجلالته بأقوى العبارات وأوضحها بأنه لا يعتبر عدم رفع القنصل البريطاني العلم على منزله سببا فى حرمان هذا المنزل من الحقوق والامتيازات التي تترتب على رفع العلم البريطاني على منزل القنصل الريفي .

أكد وختم فى مدينة الجزائر الحربية بشهادة الله العظيم فى 26 يوليو 1824 م الموافق 29 ذي القعدة 1239 هجرية

ختم الداي

ر . س سبتمبر

هـ . ماكدونال

انتهى

* * *

كشــاف عـــام

ـ ا ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

- ح -

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ر ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

- و -

انتهى

فهرست الكتـــاب

صفحة

كتب أخـرى للمترجـم

الشؤون الدولية :

- التنمية الاقتصادية فى الدول العربية فى المغرب (طبعة ثانية)
- التنمية الاقتصادية فى الدول العربية فى المشرق (طبعة ثانية)
- التكتل والاندماج الاقتصادي بين الدول المتطورة (طبعة ثانية)
- التعاون الاقتصادي للتنمية فى نطاق المنظمات الدولية (طبعة ثانية)
- هيئة الأمم المتحدة والتنمية الاقتصادية فى البلدان المتطورة (الطبعة ثانية)
- فصول فى العلاقات الدولية
- نماذج من روائع الأدب العالمي (اربعة اجزاء)

التاريـخ :

- دولة بني زيري ملوك غرناطة
- دراسات فى تاريخ الجزائر الحديث
- المقاومة الجزائرية تحت لواء الامير عبد القادر
- العلاقات الديبلوماسية الجزائرية فى عهد الامير عبد القادر
- دولة الادارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة
- المدن المغربية فى الادب الجغرافي العربي
- جدول المطابقة بين التقويم الهجري والتقويم الميلادي (بالاشتراك مع الدكتور عبد القوي) .
- الاسلام والتيارات الحضارية فى شبه القارة الهندية
- الصحراء الكبرى وشواطئها
- معجم الفرق والمذاهب الاسلامية
- عواصم بني زيري ملوك أشير والقلعة وغرناطة وبجاية والمهدية .

ـ دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية
ـ فردريك نيتشه ـ حياته وفلسفته (بالانجليزية)

تحقيق الثرات :

ـ كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي (الطبعة الثانية بصدد الانجاز)
ـ سير ابي زكريـاء
ـ سير مشائخ المغرب لأبي الربيع الوسياني
ـ كشف الغمة الجامع لاخبار الامة (فى تاريخ المذهب الاباضي) لمؤلف عماني مجهول .
ـ القارة الافريقية وجزيرة الاندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتـاق للشريف الادريسي) .
ـ نتيجة الاجتهاد (أو سفارة أحمد بن الغزال ورحلته الى الاندلس)
ـ تحت الاعداد : تقويم البلدان للملك الصالح اسماعيل ابى الفداء (مقارنة نسخ باريس ولندن) .

الترجمة :

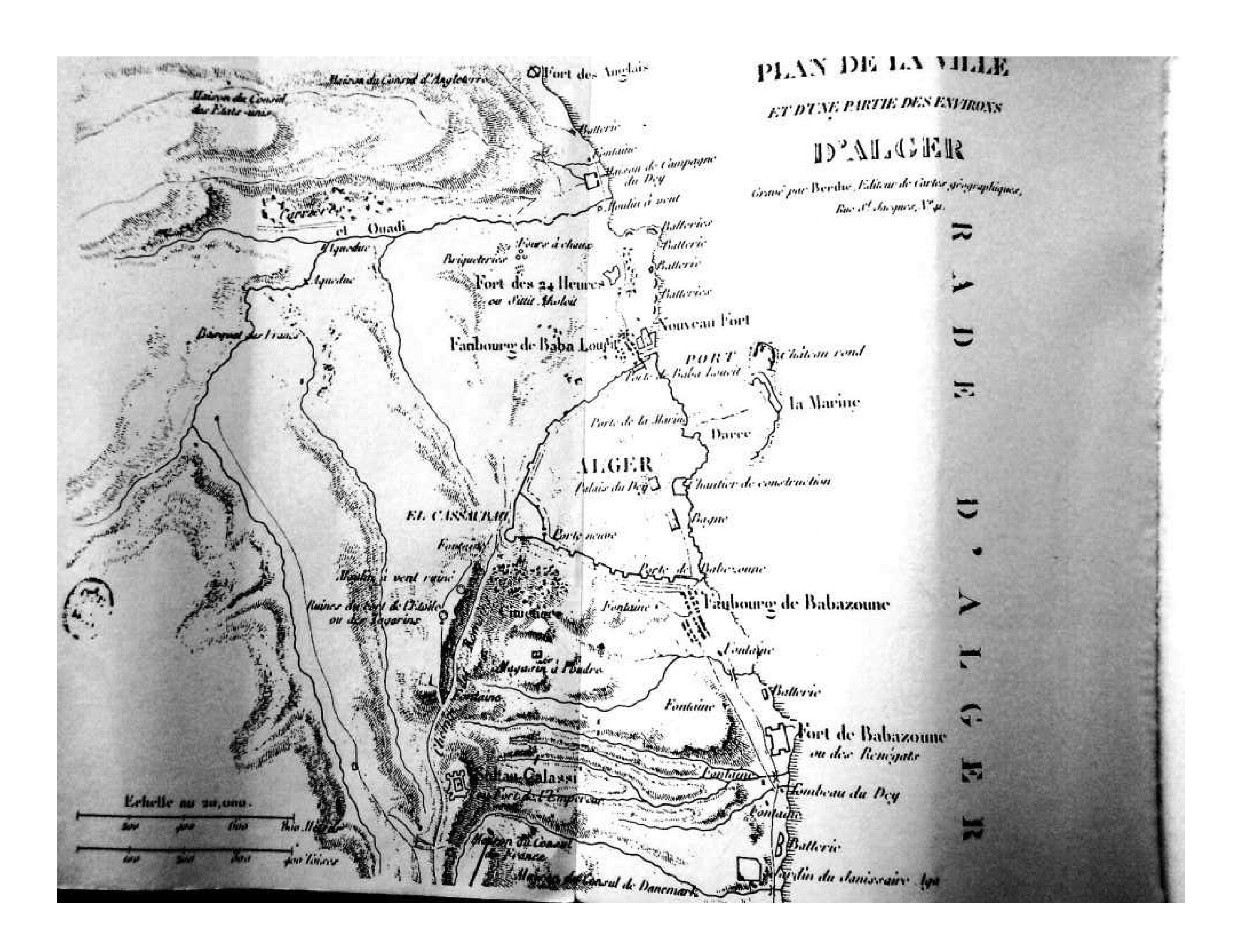
ـ الفتوحات الاسلامية فى فرنسا وايطاليا وسويسرا لجوزيف رينو
ـ كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي (من العربية الى الفرنسية)
ـ مذكرات الكلونيل سكوت الانجليزي عن اقامته فى رمالة الامير عبد القادر
ـ الاسلام فى مجده الاول لموريس لومبار .
ـ العلاقات الديبلوماسية بين دو لالمغرب والولايات المتحدة (1876 – 1816) لراي ايروين .
ـ مذكرات اسير الداي ، كاتكارت قنصل الولايات المتحدة فى المغرب .
ـ الدراسات العربية فى الجزائر خلال قر نمن الاحتلال الفرنسي لماسي وآخرين .
ـ قصر الحمراء فى الأدب والتاريخ لواشنطون ايرفينج .
ـ سقوط غرناطة آخر معاقل الاسلام لواشنطون ايرفينج .

الناشرون : وزارة الثقافة السورية ـ المطبعة التجارية (بيروت) دار الآفاق الجديدة (بيروت) ـ دار الغرب الاسلامي (بيروت) دار الرائد العربي (بيروت) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (ديوان المطبوعات الجامعية) ـ مطبعة البعث .

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مديـرية الانتـــاج
مطبعة أحمد زبانة

خريطتان لمدينة الجزائر فى الربع الاول من القرن التاسع عشر وفد فضلنا ننشرهما كما وردتا فى الاصل لقيمتهما التاريخية ، ولا سيما فيما يتعلق بأسماء الاماكن .


MER MÉDITERRANÉE
RADE D'ALGER
Cap et Fort Matifou
Ruines de Rupisir
ALGER ou AL DJEZAIR
(Iomnium)
Fort Babazoune
Fort de l'Eau
Fort des Anglais
Boujerah
Sidi Ferruch Marabout
(Rusucurru)
Terrasse pour l'embarquement des Barque
Oued Khaznadji
Hameau
R. Haratch
(Tigisis)
à l'ancien Rabil 27 m. romains
Chemin de Blida
(Rapida Castra)
PLAINE DE METIJAH
ayant de 18 à 20 lieues de longueur sur 3 à 4 de largeur
CARTE
DES ENVIRONS



PLAN DE LA VILLE
ET D'UNE PARTIE DES ENVIRONS
D'ALGER
Gravé par Berdue, Editeur de Cartes géographiques,
Rue St. Jacques, No.
RADE D'ALGER
Fort des Anglais
Maison du Consul d'Angleterre
Maison du Consul des Etats-unis
Batterie
Fontaine
Maison de Campagne du Dey
Moulin à vent
el Ouadi
Aqueduc
Fours à chaux
Briqueteries
Batteries
Fort des 24 Heures ou Sttit Aholeit
Nouveau Fort
Faubourg de Baba Loueit
PORT
Château rond
Porte de Baba Loueit
La Marine
Porte de la Marine
Darce
ALGER
Palais du Dey
Chantier de construction
Bagne
EL CASSAUBAH
Porte neuve
Porte de Babazoune
Faubourg de Babazoune
Moulin à vent ruiné
Ruines du Fort de l'Etoile ou des Tagarins
Cimetière
Magasin à Poudre
Fontaine
Fort de Babazoune ou des Renégats
Sultan Calassi ou Fort de l'Empereur
Tombeau du Dey
Maison du Consul de France
Maison du Consul de Danemark
Jardin du Janissaire Aga
Echelle au 20,000.

MEMOIRS OF WILLIAM SHALER
AMERICAN CONSUL GENERAL AT ALGIERS
1816 - 1824

TRANSLATED FROM ENGLISH
WITH NOTES AND AN INTRODUCTION
by
ISMAIL EL-ARABI

السعر فى الجزائر : 48 د.ج